

#### عزيزى القارئ:

أحببت في هذه المرة ، أن أرتد بك عبر الزمن قر نا كاملا وعقداً ،
 أى ماثة عام وعشرة أعوام .. وأن أرتاد بك أفق الأدب الإنجليزى ،
 لتصل إلى إحدى شوامخه الراسخة ، الباقية <:</li>

في فني سنة ١٨٤٧ ، اهتمت الأوساط الأدبية في إنجلترا ، بكتاب ظهر لمؤلف مضمور ، مجهول، خرق ما جرى عليه الأدباء من تقاليد ، وتجاوز ما كانوا يتقيدون به من عرف في تأليف القصص الفرامية .. وإن هي إلا أيام حتى أصبح الكتاب حديث الصالونات والمجتمعات ، وراح الرأى العام يتساءل عن ذلك المؤلف الجرىء .. وقبل أن يكتمل العام على ظهور الكتاب ، كان قد طبع مرة ثانية ، فحرة ثالثة 1 . و أدرك الرأى العام في تلك الأثناء أن المؤلف الجريء لم يكن (رجلا) على الإطلاق ، وإنما كان .. امرأة ؟ . بل عدراء ، في الناسعة والعشرين من عمرها ، نشأت في أحضان أب كان من رجال الدين (البيوريتان) ، وكان يحرض على أن يربي أولاده على الزهد ، والتقشف ، والتقوى ، واعتزال الناس !

ومن وراء الاسم المستعار الذي انتحلته المؤلفة في الطبعة الأولى من كتابها – وهو اسم (كورر بيل) – بزغ اسم (شاراوت برونتي) ليتألق ويظل براقاً على مر الزمن .. وعرف الناس أنها إحدى أخوات ثلاث ، نشأن في عزلة موحشة ، وليس لهن من أنيس سوى القلم والورق .. ولم يجدن ما يملأن به فراغ حياتهن منذ الصغر ، سوى الأدب ومحاولة قرض الشعر وثاليف القصص التي كن يتترفها من صحيح

# قصة حياة المؤلفة: (شارلوت برونتي )

 کانت قریة ( هاورت ) تقوم علی رأس سفح مرتقع – فی مقاطعة يوركشاير - يمعن في الارتفاع حتى ليحسبه المرء مشرئباً ليمس السهاء .. وخلف الكنيسة ، كانت دار القس تلوح خلال أفواف الضباب والمطر ، كأنها صرح عتيق مهجور : ثرين عليه الجهامة والاكتئاب ، فلا تكاد تُنبعث منه ضحكة . وكأنما خلعت المقبرة التي قامت في حديقة الكنيسة ، شيئاً من صمتها الساجي ، ورهبتها الخاشعة ، على راعيها وأسرته وداره .. وفى حجرات تلك الدار ، التي حقت بها المقبرة من أمام ، والمستنقعات من خلف ، ولد للقس ستة أبناء ، تجرى في عروقهم الدماء الإير لندية ، ولا يقلون جهامة وغرايةعن هذا الوسط الذي تلقاهم و أحاط بهم .. لحمس بنات ، وولد !

# فى عزلة مع الحزن والكابة

• وقدر للأطفال أن يفقدوا أمهم ولما تتجاوز كبراهم الثامنة من عمرها ، بينما كانت صغراهم (آن) تحبو في ثاني أعوام حياتها .. وإذ كان الأب من أتباع مذهب (كالفن) ، فقد كتب على الأولاد أن يعيشوا في زهد وتقشف ، حتى لقد حرموا مذاق اللحم ، لأن اللحم \_ في ملحب الأب .. من مظاهر الترف ! .. بل إن اللعب كان ضرباً من الرفاهية لايليق بهم . ومن ثم طبعت حياتهم بالحزن والكآبة والشعور بالمسئولية .. فقد كان حتماً عليهم أن يتلقوا عن أبيهم دروساً في الموت والحياة الأخرى : وهم بعد يمتصون أصالعهم ومحملفون فيا حرقم ، حياتهن ، ومن أحلام اليقظة التي كن يعوضن بها ما حرمن منه في حاتهن الواقعية!

واستطاعت صغرى الأخوات الثلاث – وهي (آن بروتتي ) – أن تخلد اسمها بقصة : ( آجنس جراى ) .. وكانت وسطاهن أكثر توفيقاً بقصتها : (مرتفعات وذرنج) ، وإن كان صيت هذا التوفيق واتاها متأخراً ، بعد أن ماتث .. فقد أعيد طبع القصة مراراً ، واقتبس موضوعها لأفلام سيناثية أمريكية ، وإنجليزية ، ومصرية ! .. بيد أن الفتاتين لم تصيبا من المجد والشهرة ما أصابته كبر اهن (شارلوت بروتني) ، عندما وضعت الرواية التي اخترتها لك اليوم .. ( جين لير ) .

على أن (شارلوت) فاقت أختيها في ناحية أخرى أيضًا .. في تحمل العناء والآلام والأسي في هذه الحياة ! .. لقد عاشت أربعين عاماً في ظلام الحزن والشجن والحرمان العاطني .. وكان الحب الوحيد الذي خفق به قلبها: حباً مقضياً عليه بالفشل من بدايته.. وأخلدت بعد يأسها منه إلى العزلة ، وليس من أنيس لها ــ بعد موت أختيها وأخيها ــ سوى قلمها .. وفي نهاية الأربعين عاماً التي عاشتها ، لاحت طلائع فجر الفرح في حياتها ء ولكن .. ولكن القدر لم بشأ أن يمهلها حتى يطلع

لقد كانت حياة (شارلوت ) مأساة ، لا تقل روعة عن مأساة (جين) .. وقد تستطيع أن تلمس أوجه شبه بين الائتتين ، عندما تقرأ قصتيهما ، فلأدعك لها ، ولا أشغلك عنهما أكثر مما شغلتك .

واك تحياتي ي حلمي مراد

#### (شارلوت) في الثامنة من عمرها

وتتلج الإجابتان صدره، فهكذا ينبغى أن تكون أخلاق المتطهرين
 ( البيوريتان ) - قى رأيه . ولا يلبث أن يلتفت إلى (شارلوت ) التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها ، والتي لم تثرت قبساً من الجال ، بل كانت ذات فم واسع معوج ، وعينين حالمتين ، فيسالها : هما هو أفضل كتاب في الدنيا ! . .

- التوراة .. والطبيعة يا أبت !

ويتحول الآب إلى (ماريا) ، كبرى البنات ، فيسألها . « خبريني يا ابنتى ، ما أفضل الطرق للإفادة من الوقت ؟ » .. وتجيب ابنة الربيع العاشر من العمر : « أعتقد أن خير طريقة للإفادة من الوقت ، هي في تكويسه للامتعداد للحياة الأنحرى ! » .

ويُحِين دور ( برانوبل ) ، الأبن الذي عقد عليه الأب ( برونتي ) آماله ، وكان – إذ ذاك – صبياً مثاكساً ، شرساً، في السابعة من عمره ، فيسأله : دما أفضل الوسائل لمعرفة الفوارق بين ذكاء الرجال ومدارك النساء ؟ » .

ويقطب (برانويل) = ثم يقول : « مراعاة الفارق بينهم في المجسم ياسيدى ! » ... ويبهت مستر (برونتي ) لهذا الجواب !

وينتهى الاختيار ، فيصح الأب لأولاده السنة بأن يخرجوا للنزهة مع كلبهم ، مكافأة لهم ، فينطلقوا فى الأرض المشوشة التي تتخاليا المستنفعات .. وفى تلك السويعات الفلائل ، كانت يد محفية عجيبة يحاولون التعرف على الحياة الدنيا ! .. وكيف كان لهم أن يعرفوا هذه الحياة وهم الذين لم يكونوا يلقون من الناس أحدا سوى أهل بيتهم ، ولا كانت أبصارهم تقع — خلال نوافل حجرة الأطفال بالمدار — على غير المقبرة الحزينة » والمستفعات الكثيبة ؟! وفي الصمت الواجم الذي كان يرن على عالمهم هذا ، كان الموت والشيطان لايكفان عن الصراع : أولها يبغى الاستيلاء على أجسادهم ، والنيما يسعى الظفر بنفوسهم ! .. وكان الأب القس طرفاً ثالثاً في الصراع ، يمثل الله ويشرف على تنفيذ تعاليمه . فكان الآب ( بروتني ) يدعو أولاده إلى مكتبه مرة في كل أسبوع ، ليخبرهم فيا تكون أخته العمة (برانويل) — مكتبه مرة في كل أسبوع ، ليخبرهم فيا تكون أخته العمة (برانويل) — قد لقشهم من دروس .. وكان الأطفال يقفون أمامه في أدب وخضوع ، شأن الصغار أمام أبيهم ، فيسائم بالدور :

ما الذي يعوز الإنسان إذا ما كان في مثل سنك يا آن ؟

وتجيب (آن) ذات العينين الزرقاوين ، التي لم تتجاوز الرابعة : « التجربة والخبرة يا أبت ! » .

... وما الذي يتبغى أن أفعله بأخيك (برانوبل) إذا ماكان مشاكساً يا إميلى ؟

ونجيب (إميلي) ، التي كانت في الخامسة من عمرها : ، تجادله بالتي هي أحسن ، فإذا لم يرعو لصوت العقل ، تضربه بالسوط ! ، . موهومة ، وأقاصيص تصور نفوسهم في آلاف من مرايا الفكر والوهم.. وكننوا بهذا يخلقون لأنفسهم عالماً خاصاً بهم ، عزز الوشائيع بينهم .

وتقول شارلوت عن هذه الحقبة : « كنا تعتمد كل الاعتهاد على القصنا ، ويركن كل منا إلى الآخر ، وإلى الكتب ، وإلى الدوس ، فلتمس فيها ما يملأ حياتنا من لهو وشقل » . وهي تذكر أن محاولة الكتابة الأدبية كانت أشد ما يستأثر بشفقهم ، وما يبعث السرور في تقوسهم .

#### (شارلوت) في المدرسة

■ على أن الأب لم يلبث أن قرر أن من الخليق بشارلوت ـ وكانت قد بلغت الرابعة عشرة ـ أن تنال تصيباً من الدراسة النظامية ، فأرسلها إلى مدرسة البنات . وعندما وقفت فى اليوم الأول بين الطالبات ، بدت منكشة ، وراحت عيناها تظرفان وتختلجان فى الضوء ، مما أثار إشفاق البنات الآخريات ، وجزعهن ، بل منهن من كدن يبكين . فقد كانت هزيلة ، فشيلة ، يكاد من يراها يحسبها لم تتجاوز العاشرة . وكان بصرها كليلا ، قصير المدى ، مما كان يجعل عينيها تبدوان كعينى الضفادعة ، إذا واجهت بغنة ضوءاً قوياً . . وكان شعرها مضفوراً ، وقد ارتدت ثوباً من الصوف الأخضر ، ارتدته عمها قبل ذلك بحيل ! . . وكانت حركاتها أشيه بحركات حيوان صغير خائف !

واختبرتها مس (وولر) – المدرسة – فألفتها متخلفة فى أبسط مبادئ الحساب والجغرافيا والنحو ، فاإحاولت أن تعرف مقدرتها على الكتابة ، أمسكت الصدية العجيبة بالقلم ، وانحنت في كاد أنفها بلاص

تربط بين الأطفال الذين كانوا يعبشون في عزلة ، وكأنما غفل عنهم البشر ، وبين المنطفة المعشوشية – الحمأة – التي كانت تبدو وكأنما نبذها الله وأهملها .. وما أشد ما كان الشبه بين الفريقين .. الأولاد البتامي الذين فقدو الأم ورعايتها ، والمنطقة المهملة اليتيمة التي فقدت رعاية المصلح !

# عالم من نسج الخيال !

و وأرسل الأب ( برونتی ) بناته إلى مدرسة بقرب ( برادفورد ) ولكن نقص التغذية ، وشظف الحياة ، لم يلبئا أن قصفا عمرى ( ساريا )
و ( البزاهيث ) ، الابنتين الكبربين . وعادت ( شارلوت ) و ( إميلي )
و ( آن ) إلى دار القس في ( هاورث ) . وإذ أصبحت ( شارلوت )
كبرى أخواتها ، فإنها لا تلبث أن تنصب نضها أما لهم ، تنظم شئونهم ،
و ترعاهم ، و تعلمهم ، و تقرأ صحيفة الصباح على أبيها وهو يختسى
قهوته .. وتتزعم الأطفال في الإلحاف على ( تاني ) الخادم ، كي تروى لم قصص الجان و ( العفاريت ) .. وتسترسل في الأحلام التي كانت لم قصص الجان و ( العفاريت ) .. وتسترسل في الأحلام التي كانت ترى فيها نفسها مع دوق ( ولينجتون ) - بطلها المحبوب - في جريرة خلت الإسهما ا

وكان لابد لمن يقيمون في دار قس (هاورث) من أن يلتموا الزمالة والحياة الاجتماعية في الخيال ، فقل من كان ينشد زماتهم أو ينفذ إلى حياتهم . ومن ثم فإن التاريخ لم يعرف إخوة أوتوا من الخيال المشحوذ ، المرهف ، ما أوتيه أبناء القس (بروتني ) . البنات الثلاث والولد : فقد راحوا يسودون المذكر ات بمغامرات خيالية ، واجتماعات

صيحة ألم مكتومة ، ثم هضت تنشد العون ، يصوت مرتجف .. وإذا يها غارقة في اللموع والأسي .. ومكثنا عدة أسابيع لا نجرؤ على أن نسألها أن تستأنف القصص ! " :

هكذا كانت عواطَّنها تنساق لخيالها إذا روت إحدى قصصها ..

وكانت إذا تحدثت عن أختيها اللتين ماتتا ، تملكها الألم . فإذا أبدى أحد عجبه من دقة وصفها لأطوارهما، وقد كانت صغيرة حين مانتا ، قالت : ٦ لقد تعودت أن أحلل الشخصيات مذ كنت في الخامسة من

وبقدر تشاط قريحتها ، كان خول جسدها : فكانت إذا ما اشتركت رِّميلاتها في اللعب، ثلجاً إلى كتاب عازنة عنهن .. ولعل ضعف بصرها كان من أهم أسباب عزوفها عن اللعب .. كان بصرها ضعيفاً ، في الوقت الذي كانت بصيرتها فيه حادة ، ثاقبة !

#### خلقوا من غير طينة البشر ؟

■ وانتهى الآمر بشارلوت إلى أن أصبحت مدرسة في المدرسة التي تعلمت فيها. بيد أنها لم تكن تميل إلى التدريس ، فأرسلت بعض أشعارها إنى الشاعر (روبرت ساوذي) تلتمس تشجيعه ، ولكنه أرسل لهما يقول: " ليس من الممكن للأدب أن يكون حرفة امرأة . . ولا ينبغي ا عم وبعثت بشطر من رواية إلى (وردسويرث) – وكان من فطـاحلي الشعراء إذ ذاك ـــ ولكنه كتب لها زاعماً أنه لم يستطع أن يتبين: ﴿ مَا إِذَا كانت المؤلفة كاتبة لدى موثق العقود : أو حائكة العقول 1 ، الورق ، وراحث تكتب صفحة إثر أخرى ، في أسلوب راق . . حتى إذا أبدت المعلمة دهشها ، قالت الفتاة في بساطة : " لقد كبت مل، اثنتين وعشرين كراسة من القصص ، في دارتا ، يا سيدتي ! . .

وفكت مس (وولر) ضفائر التلميذة الجديدة ، فإذا شعرها ينساب جميلًا على كتفيها . وخصتها المدرسة بنظام خاص للتغذية ، أتاح للفتاة أن تتناول – لأول مرة في حياتها – اللجم والحساء و (الصلصة). وسرعان ما اكتسب جسمها الهزيل التفافآ أضني عليه جمالاً ـ

# تحلل الشخصيات وهي في الخامسة!

• وما لبثت أن تغلبت على حيائها وانطوائها ، حتى لقد صارت تستبقى زميلاتها مستيقظات \_ في عنبر النوم \_ إنى ساعة متأخرة من الليل ، بمأ كانت ترويه لهن من قصص أراضي المستنقعات! .. وكان الحماس يستولى عليها ، فتتألق عيناها ، ويتضرج وجهها ، وهي تستسلم لأجنحة الخيال تحلق عليهما في مغامرات مثيرة . وقــد كتبت إحــدى زميلاتها يوماً تقول :

و أثارت شارلوت الذعر في نفوسنا ذات مساء بما راحت ترويه عن مغامرات فتاة اعتادت أن تسير أثناء نومها .. لقد جمعت في قصتها كل ما كان في متناول خيالها من أهوال .. فمن يحر متلاطم الأمواج ، إلى قلعة منيعة الجدران ، إلى ذرى عالية تشرف على وهاد سحيقة . . وندت صرخة واجفة من إحدى المستمعات > وكانت مريضة حديثة النقاهة .. وإذا ذاك ، توقفت شارلوت عن الرواية .. وما لبثت أن انبعثت منها

## تهوى أستاذاً دميماً .. متزوجاً !

وكان لابد من عمل لإصلاح حال الأسرة ، قالت (شارلوت)
 على تفسها أن تضطلع بهدا العبء . وستحت لها الفرصة حين تلقت
يوماً رسالة من إحدى زميلات المدراسة ، وكانت تدرس في مدرسة
داخلية في (بروكسل) ، فقررت أن تصحب (إميلي) إلى بلجيكا ،
 حيث تدرسان لعام كيف تدار المهدارس ، ثم تعودان فتنشئان في
 هوارث) مدرسة راقية لاينات .

وهكذا رحلت وهي في السادسة والعشرين من عمرها ، فالتحقت بمدوسة داخلية يديرها زوجان .. مسيو ومدام (هيجير) . وسرعان ما تعلقت بالرجل برغم أنه كان أباً لخمسة أبناء ، وبرغم أنه كان و أبشع رجل في العالم .. كان قصير الساقين ، بارز سقف الجمجمة ، ذا شعر أسود غزير قصير ، ونظارة تنحدر على أنفه ، وتتألق خلفها عينان كجذوتين من نار .. كان مخلوقاً ضائيل الجسم ، أسمر البشرة ، ذا وجه لا تستقر ملامحه ، فهو تارة يستعير قسيات قط برى مسعور ، وطوراً قسمات ضبع محموم لـ ١٠ .. وكان على النقيض منها تماماً : في السن ، والميول ، والطباع . ولكنه كان أول رجل مرهف الذكاء صادفته ! واصطفاها الرجل من بين تلميذاته، ليؤثرها بدوس خاصة، جعلت من ذهنها الطفل الساذج « ذهناً قوياً فيه صفات تفكير الرجولة » . إذ كشف لها عن دنيا الفلسفة ، والعلم ، والفن ، وقادها إلى آفاق جديدة من خبرة البشر .. وأحست الفتاة إلى جواره ، ببوادر يقظة العاطفة . حتى إذا استكملت عامها ، وعادت إلى (هاورث) ، كتب الرجل وصائبها المحاولتان عن الآنجاه إلى احتراف الأدب ، فقبلت العمل كربية لدى أسرة لندنية من الطبقة الوسطى . ولكنها لم تستشعر في حياتها الجديدة سعادة ولا هناء . فقد كان رب الأسرة يعاملها كما لو كانت خادماً . . وكان الأطفال « يسكبون اللبن على المائدة ، ويدس كل مهم إصبعه في قدح أخيه ، ويمسحون أفواههم بأيديهم ، أو بأطواف ثوب أمهم . . ويتعجشأون كالعجول ، ويبصق كل منهم في وجه أخيه ، أو في حقيبة المربية ! » .

ومن ثم لم تلبث أن هجرت عملها فى استياء ، وقد ضاعف إخفاقها فيه من شعورها بالنقص . ولكن .. ما الذى ينبغي لها أن تفعل إذن ٠٠٠ أتتزوج ؟ .. كان الزواج أبعد الأصور عن ذهنها ، إذ من ذا الذي يتزوج من فتاة ( بلا مال ولا جمال ) ؟

وهكذا لم تكن (شارلوت) سعيدة في حياتها .. ولا كان أحد من 
Tل ( برونتي ) سعيداً ، فكأنما خلقوا من طينة غير طينة البشر و دنياهم ... 
إذ كانت (آن) لا تقوى على الظهور أمام أغراب عنها ، وكانت تصة 
في عملها كمر بية للأطفال . وكانت ( إميلي ) تأني العمل بعيداً عن قريتها 
ومقارقة مستنقعاتها . أما ( برانويل ) - أمل أبيه - فقد ارتمى بعد 
عاولات فاشلة لبيع قصصه ، في أحضان المواخير ، حيث كان يجد 
جمهوراً يقدر تلك القصص ، ويقدر براعته ، إذ كان يستطيع أن يكتب 
خطابين ، بيديه الاثنتين ، في آن واحد ! . . كما كان يحذق رواية 
النكات الإرلندية اللاذعة !

وهو ؟ ! :: إنه لم يكن يعي ما يساورها :. لم يقطن إلى وجدها ، ولم يشعر بجها ، خلال العامين اللذين قضتهما في ( بروكسل) في هذه المُرة .. كان يحدثُها عن العواطف وكأنها أفكار وآراء عقلية مجردة ، في الوقت الذي كانت هي فيه تكتوى بنيران الجوي .. عامان قضتهما في ظلام ، تتخبط بلا رفيق ولا نصير . ثم عثرت ذات يوم على صديق .. وكان ذلك الصديق : كنيسة ! .. كنيسة القديسة ( جو ديل ) .. ووقفت لحظة تسرح بصرها خلال أبواب هذه الكنيسة ، تحملق في الشموع الموقدة، ثم أقدمت على ما لم يقدر لأبيها وأختيها أن يدركوه أبداً .. سارت إلى داخل الكنيسة ، لتلتى بنفسها في أحضان المذهب الكاثوليكي .. وركعت عند المذبح لكي تعترف ، وتفضفض بما كان يضنيها .. بقصة حبها ! .. وروت آلامها ، كما يروى الطفل شكاته لأمه ، تم بارحت الكنيسة ، فحزمت أمنعتها ، ورحلت لفورها إلى ( هوارث) !

## (شارلوت) العاشقة تكتب خطابات متأججة

• وهناك أمسكت بالقبلم ، لتكتب له أروع الرسائل وأحفلهما بالعواطف .. رسائل تتلظى بالنير ان المتأججة في فؤادها : ﴿ سيدى ، إن الفقراء لايحتاجون إلى الكثير ليقيم أودهم ويصون بقاءهم في الحياة ، بل لأنهم لايرجون سوى الفتات الذي يتساقط عن ماثدة الغني . وأنا الأخرى لا أطمع في غير قسط ضئيل من عطف من أحبهم ، إذ أنني لا أدرى ما الذي أفعله بالولاء الكامل ، الشامل منهم .. فأنا لم آلف التفكير في ذلك . ومع هذا ، فإنني أدرك أن ثمة أناساً ذوى تفكير رزين وأعصاب باردة ، خليقون بأن يقولوا ، إذا ما قرأوا هذا : ﴿ إِنَّا إلى أبيها يرجو أن تعود إليه تلميذته الفُذَة ! .. وعادت (شارلوت) إلى بروكسل ، ﴿ تَجِندُهِما قُوةُ لا قبل لها بمقاومتُها! ﴿ . وشد ما كانت غبطتها حين سألها مسيو ( هيجير ) أن تعلمه الإنجليزية ، فأتاح لها بدَّلك الفرص كي تخلو إلى الرجل الذي أصبح .. كل شيء في دنياها ا

### تحتفظ بأعقاب سيجار حبيبها!

 وكانت مدام ( هبجير ) تلاحظ هذه الأعراض بأعصاب باودة .. كانت الإنجليزية الشابة الحجول لا تكلم أحداً، ولا تبسم لأحد سوى زوجها .. وكانت إذا جُلست إليه : " أشرق وجهها ، واكتسب جمالا لم تكن تفطن إليه 1 . . كانت معه تتحول إلى امرأة مشتهاة ! . . ومن ثم لعبت مدام ( هيجير ) دورها بدهاء المرأة المجربة ، فتعمدت – في لباقة ــ أن تعدل جدول دروس زوجها ، بحيث لا تتفق أوقات قراغه مع أوقات فراغ تلميذته . وصدت (شاراوت ) - في براعة – عن أن ترتاد غرفة جلوس الأسرة وكأنها من أفراد هذه الأسرة . على أنه ما كان ينبغي لمدام ( هيجير ) أن تخشى هذه الفتاة الساذجة . فإن ( شار لوب ) لم تكن ترى الحب قبلات وعناقاً ، وإنما كان : ﴿ الحب ، كما أفهمه ، ليس بالشيء الذي يجانب الصواب ، والنبل ، والإخلاص . . ولم تكن تبغي من وراء غرامها ، سوى أن تكون مع ذاك الذي أحبته . . أن تحظي بنظرة منه، وأن تنصت ساعة إلى جرس صوته ، وأن تجمع السيجار الذي كان ينساه وراءه ولما يدخن سوى نصفه ..

لم تكن تبغى سوى هذا .. ولكنها حرمت من هذه البسائط ، على قلتها وتواضعها ! وأخذت تلجأ إلى قامها، لتنفذ نفسها من الجنون .. ولكنها لم تتلق جواباً . . وإذ ذاك صهرت عذابها وصبته في قالب قصة . . قصة للأجيال ، وللخلودُ .. هي قصة (جين إبر ) التي نقدم إليك أول ترجمة عربية أمينة ، دقيقة لها ، في هذا الكتاب .

وعندما ظهوت (جين إير ) للمرة الأولى – في نسنة ١٨٤٧ – أحدثت ضجة هائلة ، ولةيت رواجاً عظيماً ، حتى لقد أعيد طبعها في ديسمبر من نفس العام ، تم طبعت مرة ثالثة في إبريل سنة ١٨٤٨ .. وتوالت الطبعات بعد ذلك ، وما تزال تتوالى .. ولكن المهم في الأمر ، أن يكون الكتاب أول إنتاج لمؤلفة مجهولة ، مغمورة ، ويطبع ثلاث مرات في حوالي العام : بل أقل من عام . ومتى .. قبيل منتصف القرن التاسع عشر ، ولما يبلغ التعليم مبلغه اليوم ، ولما تنفسح أمام الإنتاج الأدنى الإنجايزي أسواق العالم كما تنفسح اليوم !

# قصة هو اها باسم مستعار!

• وأطرف من هذا كله ، روح الكنابة وشعورها ، وهي تدفع بكتابها الأول إلى دنيا النشر .. فلقد قالت لأختيها : « إن الكتاب ليخطئون إذ يصرون على أن يجعلوا بطلاتهم جميلات، ويتخذون من هذا قاعدة .. ولـوفأثيت أنهم مخطئون ..سأقدم بطلة خالية من الجال ضَيَّلة الجسم، مثلي تماماً 1 × .. ولم يتقض أسبوعان على ظهور الكتاب، حتى كان حديث القوم في صالونات الشاي والمجتمعات، يتناولونه في إعجاب والبهار، ويتساءلون : من ذلك الكاتب الذي التحل لنفسه تهذى ! » :: ولست أرجو من تأر سوى أن يجرب هؤلاء الناس يوماً ما عانيت من عـــذاب خــلال تمانية شهور .. لسوف نرى إذ ذاك ما إذا كانوا هم الآخرون يهذون!.. إن المرء يتحمل العذاب في حمت، طالمًا كانت لديه القوة ، أما إذا انهار تحذه القوة، فإنه يتكلم دون أن يزن

ولم تتلق رداً .. كان رجلا ( مستقيماً ) ، فلم يحفل برسائلها .. ومن جديد ، عادت تكتب إليه : « لقد حاولت أن أنساله .. فعلت كل شيء .. حاولت أن أشغل نفسي باستمرار .. لماذا لا أملك أن أشعر نحوله بنفس القدر من الصداقة الذي تشعر به نحوى ، دون زيادة أو نقصان ؟ .. لو أنني استطعت ، لتحررت ، ولكان في وسعى أن أصمت سنوات 1.. إنني أسألك صنيعاً، باسيدى .. حدثني عن أطفالك .. تكلم عما يحلو لك ، يا أستاذى ، لمجرد أن أحظى بحديثك . . فإنه – بالنسبة لى – بمثابة الحياة .. أما أن تمنعني من الكتابة ، وأما أن ترفض الرد ، فكأنك تنتزع مني السعادة الوحيدة التي حظيت بها من دنياي ، وتنتزع مني آخر نعمة للدي ! ١ .

#### تصارع الجنون باللجوء إلى القلم !

 وجاءها - أخبراً - رد ، فكتبت تقول : « لقد غذانى خطابك ستة شهور ، ولابد لى الآن من آخر ، ولسوف ترسله ، لا بدافع من الصداقة – إذ أنك لا تشعر بها كثيراً – وإنما لأن لك قلباً رقيقاً ، شفوقاً ، يأبي غليك أن تقضى على امرىء بالعذاب الطويل ، لمجرد أن تجنب نفسك لحظات من السأم ! ١٠. عمره .. وكان قد رحل إلى لندن ، ليبرز في فن الرسم ، فتردى في مباذل الفنانين ، ثم عمل مدرساً لأبناء رجل موسر ، ولكنه طرد من عمله حين ظهر أنه كان يدبر خطته للفرار مع أم تلاميذه ! .. وانحدرت به الحال حتى عمل كمحصل في أحد الخطوط الحديدية ، إلى أن اكتشف المفتش أنه كان يرسم في دفائره صور (فينوس) بدلا من أن يسجل الأرقام ، وكان يثبت قصائد من الشعر في مكان الحسابات !

وعندما هوت مكانة (برانويل) إلى الحضيض ، عكف على ترجمة ( الأوديسة ) إلى شعر إنجليزي راق . . وأفرط في الشراب ، حتى قضيي نحبه مخموراً ! .. ولم تنقض أسابيع قلائل ، حتى لحقت به (إميلي) ، التي قضت العمر صامتة ، بينا كان قلبها بِتأجِج بسعير نفئته في قصة (مرتفعات ويذرنج) .. وإن هو إلا شهر ، حتى أنشب السل مخالبه في رثتي (آن) .. صغرى الأخوات ! .. وحملتها (شارلوت) إلى البحر عسى أن تفيد من نسيمه ، ولكن ( آن ) أدركت أن النهاية قد دنت ، فشدت على يد (شارلوت) وهي تهمس : « تشجعي ! » .. ولم يحن أصيل ذلك اليوم حتى ماتت ! ..

ووقفت (شارئوت) وحيدة ، في ضياء الشمس الآفلة ، وفي أَذْنيها أصداء أبيات من شعر (إميلي) :

إذا كانت الأرض والقمر قد وليا ..

والشموس والأكوان قدغابت عن الوجود وبقيت أنت وحيكة ..

فإن الوجود كله .. سينحصر فيك ا.»

اسم (كورر بيل) ، فما شك القوم في أن المؤلف الذي وضع رواية غرامية على غير المألوف في قصص الهوى، إذ جعل بطلبًا مربية ليس فيها ما يبهر الرجال ، ولكنها تقع في هوى رجل،متزوج من امرأة معتوهة مخبولة . . ما شك القوم في أن المؤلف لم يجسر علىنشر اسمه الحقيق على الرواية، لما فيها من خرق للتقاليد التي جرى عليها المؤلفون .. ولكن أحداً لم يتصور إطلاقاً أن المؤلف ليس في الواقع ( مؤلفاً )، وإنما هو .: (مؤلفة) .. أنثى .. وعفراء!

وكان أديب إنجلترا الخالد الذكر ( ٹاكيراي ) قد تورط في نفس الوقت ، في مثل هذا الخرق لتقاليد مؤلفي القصص الغرامية، إذ أصلو رواية ( فانيتي فير ) .. فلم يتردد في الاعتراف بعبقرية ( كورر ) ، حتى أنه بادر فأرسل إليه نسخة من روايته ، تحمل إهداء بخطُّ يده .. وما خطر له قط \_ إذ ذاك \_ أن الزميل العبقرى ؛ كان .. ابنة قس (بیورپتانی) متزمت!

ولقه ردت ( شارلوت برونتي ) هذه التحية بأجمل منها، إذ صدرت الطبعة الثانية من كتابها ، بإهداء إلى ( ثاكيراى ) .. وكان الوأى العام قد فطن إلى شخصيتها ، فلم يسعه سوى أن يظن أن ( المؤلَّفة ) العاطفية الجريئة ؛ لابد أن تكون (عشيقة ) للمؤلف العاطني الجرى، !

#### تفقد إخوتها في أسابيع قلائل

• وما دری الناس أن (شارلوت برونتی) كانت ترزح نحت أفدح الأحزان، في الوقت الذي سلط المجد فيه أضواءه على (كورر بيل)، فإن أخاها ( برانويل) مات ولم يكن قد تجاوز الحادية والثلاثين من



أو (فييت) ، التي استمدتها من ذكريات حياتها في بلجيكا .. قصتان من الماضي : فقد مضي كل شيء ، بالنسبة لها ، ولم يعد لها في حاضرها سوى الذكريات تعيش عليها .. بل إنها نفسها أصبحت تمت إلى الماضي ، فقد كانت تبدو في السنين من عمرها ، قبل أن تتجاوز الأربعين !

# زواج بعد الأربعين !

أنكان ثمة مجال للحب عند تلك التي كانت تعيش في الماضي؟!

نقد تطايرت الشائعات بأن قسآ من أبناء الجيرة صارحها بهواه . وكان الأمر حميقة واقعة ، فقد شاء أحد القساوسة أن يتبح لها بعثاً جديداً في اخباة .. وكان جامد الفكر خلواً من المواهب ، في حين أنها كانت وهوبة . ومكان جامد الفكر خلواً من المواهب ، في حين أنها كانت وهوبة . ومم الفارق الكبير بينهما ، فإنها قبلت .. وبعد كثير من الحم والأسى ، وقفت إلى جواره بعد ظهر عبد الميلاد من سنة ١٨٥٤ . في ثوب الزفاف ؛ لتربط حياتها بحياته .. وكانت هذه هي الفرحة الوحيدة في حياتها ؛

ودامت هذه الفرحة شهوراً . ثم تطايرت الأنباء من ( يوركشاير ) إلى لندن ، بأن ( شارلوت ) قد حملت ، وأن البهجة دبت من جمديد في قواد ابنة ( هاورث) الحزينة . ولكنها سرعان ما مرضت، ولازمت الفراش ، وراح الأطباء يعلمتنونها بأن الوهن أمر طبيعي يصحب الحمل لمن كانت مثنيا . وأخذت تقضى وقتها مسرحة البصر خلال النوافذ إلى يه الأمطار الدافقة التي كانت تعرق الحديقة ، وإلى المستنقعات التي لفيها انضباب ، ت وكانت تحس في ضافع، بنوذ فريد ، عجبية .

# تعيش في الماضي مع اللكريات

■ أعلن الخادم فى دار مسز (هاربيت عارتينو) مقده الآنسة (بروجلان).. وأقبلت فى أعقابه امرأة ، لم ير الضيوف من تصغوها جسماً من قبل .. وكانت مستحيية ، خفيضة الصوت . حتى إن الخادم لم يسمع اسم (بروتتى) من شفتها واضحاً . فظنه (بروجلان) !.. وملت (شارلوت) إلى صاحبة الدار يداً صغيرة طرية . كأنها . عظب طائر صغيره ، ثم انزوت فى أحد الأركان . وعيناها تطرفان فى كانل وارتباك ..

وكانت (شارلوت) قد غالبت حجلها وانقواءها . وغادوت (هاورث) لنزور ناشرى كتابها . فيذن الشريكان كل حيلة في حملها على قبول برنامج حافل بزيارات وحفلات ومآدب تنبق بشهوتها .. ووراحت تقضى نهارها في انتفل وإلقاء المحاضرات . ونرى في نبيها إلى حجرات فخمة أعمدت لنزولها .. وكان القوم يتوقعون أن يلتقو بفتاة فيها كل ما في الأنولة من رغبة في انتزاع الإعجاب: فإذا بهم إلاء مخلوقة صامتة ، منطوية . تكاد تتوارى خلف قطع الأثاث أو تحتها ، إذ كانت تحس بآلام عنيفة لوجودها بين الناس! .. وعندما تركها الناشران في النهاية ، لتختار ما يخاو ها من أماكن تزورها . اختارت اثنين من السجون . ومايجاً للقطاء ، ومستشقي المجاذب!

# ۱۰ تواریخ فی حیاة (شارلوت برونتی )

١٨١٦ : ولدت بمقاطعة (يوركشاير).

١٨٣٠ : التحقت بمدرسة داخلية للبنات .

١٨٤٢ : درست في بلجيكا ، ووقعت في غرام أستاذها .

١٨٤٤ : عادت إلى دار أسرتها في (هاورث) وقد باست من غرامها .

١٨٤٢ : نشرت بالاشتراك مع أختيها (إميلي) و (آن) ديواناً شعرياً ، تحت أسماء مستعارة : (كورو ، وإليس ،

واكتون بيل) .

١٨٤٧ : نشرت (جين اير ) .

١٨٤٩ : أثمت كتابة روايتها الثانية (شيرلى).

١٨٥٣ : أنمت كتابة روايتها الثالثة (قبلليت):

١٨٥٤ : تزوجت من القس آرثر بيل نيكولس. ومن طويف المصادفة

أنْ ثانى أسمائه (بيل) هو نفس الاسم المستعار الذي كانت تتخذه قبل اشتهارها .

۱۸۵۵ : ماتت وهي حامل .

وما درت أن الموت كان ينمو مع نمو الحياة الجديدة التي كانت ندب في أحشائها .. ثم اشند نمو الموت حتى فاق نمو الجنين . فما لبِّت أن زهدت مولد الطفل ، وفقدت كل اغتباط كان يفعم تفسها لمقدمه . . وكانت تقول لزوجها وهو يحنو عليها : ﴿ إِنِّي مِن النَّعِبِ بَحْيِثُ لِمُ أَعْدُ أَقَوَى عَلَى أَنْ أَحْفَلَ بِهِ عِ . . ثُمَّ تَرَفَعَ رَأْسِهَا نَحُوهُ لَتَقُولُ ۚ : ٩ لا ، لنَّ أموت ! .. لن يفرق بيننا ! ¤ .. ولكن رياح شهر مارس حملتها معها عبر نهر الظلمات ، إلى :. إلى حيث تبدأ الحياة من جديد ، في العالم الآخر 🖠





■ ثم يكن في الوسع أن تتمشى في ذلك البوم .. فلقد قضينا .. في الواقع .. ساعة كاملة من الصباح ، ونحن نتجول بين الأشمجار الجرداء .. بيد أن رياح الشتاء القارس ما لبثت بعد الغداء .. إذ تتغدى مسر (ريد) عادة في ساعة مبكرة ، عندما لايكون ثمة ضيوف ... أن أخذت تجلب معها تعبأ قائمة ، ومطرآ ثاقباً ، لايتاني معهما أن نخرج لأية رياضة . وثقد فرحت بذلك ، لأنني لم أكن أحب مطلقاً أن أسير لمسافات طويلة ، لاسيا في الأصائل الباردة . وكم كان يروعني أن أعود إلى المترل في عسق الليل ، بأصابع يهرؤها البرد، وبقلب مجلؤه الأسي لتأنيبات (بيسي) المربية ، ويستذله الشعور بضعف بنيثي بالنسبة لكل من (اليزا) و (جون) و (جورجيانا ريد) !

الصغار ! .. وكنت أسألها : « وما الذي قائت بيسي إنني فعلته ؟ ١ . فتحبب : اا اسمعي يا جين .. أنا لا أحب من يكابرون ويستجوبون .. فضلا عن أنني أكره في الطفلة أن تتحدث إلى من يكبرونها بمثل هذه الطريقة . هيا اجلسي في مكان ما ، وأخلدي إلى الصمت ، ما لم تستطيعي التحدث باطف ! » .
وكانت تنسل بحجرة الجلوس غرفة صغيرة لتناول الإفطار . وقالت المناول الإفطار .

فلسللت إليها . وكانت أحوى صواناً للكتب ء فسرعان ما استوليت منه على كتاب عنيث بأن يكون زاخراً بالصور . ثم ارتقيت قاعدة النافذة . فرفعت قدمي ، وجلست متربعة كعبلسة الأثراك ، وجذبت السنارة الحمراء الشجرة حتى كلات أسدها على تماماً ، فأصبحت بالملك في عز له مز دو جة : فقد كانت طيات الستارة القرمزية تُحجيثي وتحجب عني الرؤية من ناحية اليمين ، بينها كانت ألواح الزجاج إلى اليسار ، تحميني -- دون أن تفصلني فصلا -- من طقس ذلك اليوم الكثيب من أيام شهر نوفمبر . وفيها كنت أقلب صفحات كتابي بين الفينة والأخرى . أخذت أتفحص « طلعة » الشتاء بعد ظهر ذلك اليوم . كانت ثمة صفحة ياهتة من الضباب والسحاب على البعد . ومنظر يتألف من أرض مخضلة ، ودغل عبثت به العاصفة ، وأمطار تهطل مدرال: دون انقطاع . وتندفع هوجاء أمام زوبعة هائلة تثير الشجن في النفوس .

وكنت لا ألبث أن أعود إلى كتابى: (تاريخ الطيور البريطانية). من تأليف (بويك) .. وما كان موضوعه يعنينى فى كثير، ولمكننى. – برغم طفونتى – لم أستطع أن أمرّ ببعش صفحاته الأولى دون احتماء،



فقد كانت طبات الستارة القرطرية تعصيني وتصعب على الرؤية .

ليّوها . ورحت أعيش في مناظر الكتاب ، فلم أدر أي (شعور ) كان يراود صحن الكنيسة وقد غرق في وحدته بنصبه المنقوش ، وبوابنه ، وشجرتيه ، وأفقه الواطىء الخفيض يحده سياج مهدم ، وهلاله الجديد الذي بزغ شاهداً على ساعة الأصيل . والسفينتان الساكنتان فوق بحر هامد ، ظنتهما شبحين بحريين . أما العفريت الذي كان يدق ظهر لص في جدار خلفه ، فقد مررت به على عجل لا لأنه بعث في نفسي الرعب والهلع . وكذلك فعلت بمنظر الشيء الأقرن ، الذي جلس على إحدى الصخور في ترقع وشهوخ ، وهو يشرف على الحشد الذي أحاط على البعد بإحدى المشانق :

كانت كل صورة فى الكتاب تروى قصة كثيراً ما وجدتها غامضة على إدراكى غير الناضج و ومشاعرى التى لما تكتمل. ولكنبا – مع ذلك – كانت دائماً مشوقة و وفى طرافة القصص التى كانت (بيسى ) ترويا لنا أحياناً فى أسيات الشناء ، عندما يصادف أن يكون مز اجها صافياً ، فتجىء بمنضدة الكي إلى غرفة الأطفال ، وتدعونا إلى الجلوس حولها، ثم تأخذ – وهى تكوى لمسز ريد ملابسها المصنوعة من (الدانتلا) وطاقية نومها – تغذى مسامعنا المرهقة بعبارات عن الحب والمغلمرة ، تنتزعها من القصص الخرافية القديمة والروايات الشعرية العتبقة ، أو تستقيها – كما اكتشفت فيا بعد – من صفحات قصص (بأميلا) و (هنرى إبرل مورلاند " ت

إذ كانت تتناول مآوى الطيبور ، وتلك الصخور والجبال المنتزلة في جوف البحر ، والتي لا تسكتها سوى تلك الطيبور .. كما كانت تتحدث عن ساحل الثرويج الذي ترصع الجزر طوقه الجنوبي ، من (ليندنيس) أو (نيز) إلى (نورث كيب):

كذلك لم أقو على أن أغفل تصويره ثلك الشطآن الصخرية الجرداء نی (لابلاند) و (سیبریا) و (ایسلاند) و (جریتلاند) ، وما پترای منها في المنطقة القطبية المتجمدة .. ولا تلك المناطقالشاسعة، المهجورة. الموحشة .. مستودعات الصقيع والجليد، حيث حقول الثلوج الراسخة، التي تراكمت في قرون من الشتاء ، تلتمع في ارتفاعات شاهقة. طبقات فوق طبقات حول القطب ، وتتركز فيها قساوات البرد القارس المتعددة !.. ومن هذه المالك التي تبدو في شحوب الموت ، كونت لنفسى فكرة مبهمة ككل الأفكار نصف المفهومة التي تطفو معتمة في أذهان الأطفال ، ولكنها تثير العواطف والأحاسيس إلى حمد عجيب . فقد كانت الكلمات في هــذه الصفحات الأولى تصدور في جلاء بالغ الصخرة التي شمخت بمفردها عالية في بحر زاخر بالأمواج والرذاذ ، والقارب المحطم الذي رسا عند شاطئ مقفر ، والقمر البارد الشاحب الأسارير الذي أطل خلال قضبان من انسحب على حطام سفينة غرقت



كَانَ (جُونَ رَيْدَ ) تُلْمَيْذًا في الرابعـة عشرة من عمـره ، أي أنه كَانَ يَكْبَرُنَى بَأْرِبِعِ سَنُواتٍ ، إِذْ كَنْتَ آنَذَاكُ لَا أَعْدُو الْعَاشَرَةُ . وكَانْ صخم الجسم ، قوى البناء بما يفوق سنه ، وقد أوتى بشرة ، متمة لا تنم عن صحة : وأسارير غليظة في وجه عريض ، وأطرافاً ثقيلة ، وطباعاً منظرقة !:. وكان شرهاً بعادته أمام المائدة ، مما جعله صفراوي المزاج وأعتم عينيه ، وغشي يصره ، ورهل خديه . وكان جديراً به أن يكون في مدوسته في ذلك الوقت ، ولكن أمه سحبته منها ليقضي في المنزل شهراً آو اثنین (بسهب صحته المرهفة) ! بینیا کان مستر (مایلز) ــ ناظر المدرسة ــ بؤكد أن صحة الصبي سوف تنحسن جداً إذا ما قلت كمية الكعث والحلوي التي ترسل إليه من المتزل ! .. بيد أن قلب الأم عاف فَكُرَةً بَهَذَهُ (النَّسُوةُ ! ) ، وانخازَ إلى الفكرة الأكثر رقة ، وهي أن شحوب (جون) كان بسبب إرهاقه في العمل ، وربما ــ أيضاً ــ بسبب حنينه إلى الوطن !

ولم يكن (جون) يطوى فى أعماقه حباً شديداً لأمه أو شقيقتيه ، بينا كان يكن لى بغضاً وكراهية ، ولذلك كان ينهمونى ويعاقبنى .. لا مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع ، ولا مرة أو اثنين فى البوم ، وإنحا باستمرار وعلى الدوام ! .. ولذلك كان كل عصب من أعصابى يخشاه ويرهبه ، وكانت كل مضغة من لحم على عظامى تنكمش إذا هو اقترب منى !.. وكم من لحظات أذهانى فيها الرعب اللتى كان يبعثه فى نفسى ، فإننى لم أكن لأجد من يدرأ عنى وعيده وأذاه د. إذ أن الخدم لم يشاءوا إغضاب سيدهم الصغير بمظاهر فى ضده، بيناكانت مسز (ديد)

وهكذاكنت – وأنا أحمل كتاب (بويك) على ركبتى – سعيدة ..
 سعيدة على طريقتى الخاصة ، على الأقل . ولم أكن أخشى سوى أن
 يمكر شيء ما صفو خلوتى ، وهذا ما لم يلبث أن حدث . فإن باب
 الحجرة سرعان ما فتح ليجلجل صوت جون ريد :

أوه . . مدام موب ! إ يقصد السخرية من جين ) .

ثم توقف عندها وجمد الحجرة خالية ـ كما كانت تبـدو ــ ثم استطرد يتساءل : « ترى أين هي ؟ » .

وصاح ينادي شقيقتيه : « ليزى ! جورجى ! إن جيل ليست هنا . أبلغا ماما أنها خرجت في المطو .. هذه الحيوانة اللشية ! .. .

فقلت فى نفسى : « لقد أحسنت إذ أحدلت الستارة . . وتمنيت فى لمفة ألا يكشف ( جون ريد ) عن تخبئى . وما كان ليعثر عليه من تلقاء نفسه ، لأنه لم يكن سريع النظر ولا سريع الإحراك .. ولكن ( ليز أ ) ما لبثت أن أطلت برأسها من الياب وصاحت لفورها :

 إنها على قاعدة النافذة بالا ريب يا جاك ( فهكذا كانوا ينادون جون في البيت 1 ) .

وخرجت فى الحال لأننى كنت أرتعد لمجرد التفكير فى أن يجذبنى جاك هذا , وسألته فى استخذاء وارتباك : « ماذا تريد ؟ » .

فكان جوابه : « قولى : ماذا تريد يا سبيد ريد ! .. أريد منك أن تأتى إلى هنا ! » .

ثم جلس فى مقعـــد ذَى مسندين ، وأَشَار بِلْيُمـــاءة منه أَنَّ أَقْتَرْبِ وأقف أمامه !

تدعى العمى والصمم في هذا الشأن .. فهي لم تره قط يضربني، وهي لم تسمعه أبدأ يهينني ، وإن كان يفعل الأمرين في حضرتها \_ من آن إلى آخر ــ ويمعن كل الإمعان في ذلك من وراء ظهرها !

ولما كنت قد شببت على أن أطبعه ، فقد اقتربت من مقعسده . فقضي نحو ثلاث دقائق وهو يخرج لى لــانه إلى أقصى ما يستطيع ، حتى أوشك أن ينتزعه من جذوره . وكنت واثقة من أنه لن يلبث أن يضربني . وفيما كنت أوجس خيفة من الضرب ، رحت أسرح الخاطر في الصورة الكريهة اللميمة لوجه هذا الذي كان موشكاً أن يضربني . ويبدو أنه قرأ في وجهي ما كان يدور برأسي . لأنه ما لبث ــ دون أن ينبس بحرف ــ أن ضربني على حين غرة ، وبعنف ، فترتحث . و لما استعدت توازني . ارتددت إلى الخلف خطوة أو الْنَتِينَ يعيداً عن مقعده . . فقال :

\_ هذا جزاء قحناك في الرد على ماما منذ قليل . ولطريقنك في التسلل خلف الستبائر ، وللنظرة التي كانت ترتسم في عينيك منــــذ دقيقتين . . أيتها الفأرة !

وكنت قد اعتدت شــناثم ( جون ريد ) . ولذلك لم يدر ببالي أن أرد عليها ، وإنمـا كان كل هي منصرفاً إلى تحمل ألم الضربة التي كان من المحتوم أن تعقب السبباب . وسألني : ه ماذا كنت تعملين خلف

- كنت أفرأ!
- \_ أريني الكتاب ..

قاستشرت إلى النافذة ، وجنته بالكتاب من هناك ، فقال : ﴿ لَهِسَ لك أن تأخذى كتبنا . إنك عالة كما تقول ماما ، وليس لك مال ، لأن والدلث لم يترلَّهُ لللهُ شيئاً . وكان أجلس بك أن تتسولي لا أن تعيشي هذا مع أطَّمَال سادة مثلنا ، وأن تتناولي من الطعام مثل الذي نتناوله ، وأن ترتدى ثياباً على تفقة ماما . والآن .. سوف أعلمك كيف لا تنبشين رفاف کتبی ، فهی ملکی ـ بل إن هذا المنزل کله ملك لی ، أو أنه سيكون كذلك بعـد سنوات قلائل . هيـا اذهبي وقفي بجانب الباب .. يعيداً عن المرآة والنوافذ! ه .

ففملت ذلك ، دون أن أقطن لأول وهملة إلى ما كان يعتزمـه ه ولكنني حين رأيته يرفع الكتاب ويزنه على أصابعه، ثم يقف ليهم بأن يطوح به ، وثبت بغريزتي جانباً ، وأنا أصبح في فزع . ولكني لم أسرع بقدر كاف ، فاندفع الحجلد وأصابني ، فوقعت ، وارتطع رأسي بالباب قشج . واندفعت الدماء من الجرح، واستبد بي الألم ، ثم تجاوز ذعري ذروته . وتوالت مشاعر أخرى على". فصحت : ﴿ يَا لِكُ مَنْ صَبَّى شرير قاس .. إنك شبه قاتل .. إنك كتاجر الرقيق .. بل أنت تشبه أباطرة الرومان !! أ. .

وكنت قد قرأت (تاريخ روما) لجولد سميث، وكونت للنفسي فكرة عن (تيرون)؛ و(كاليجولا)، وغيرهما ، واخترت لهم أشباهاً ممن كانوا حولى، الأمر الذي ما كان ليخطر قط ببالي أن أجهر به . وصاح الصبي :

#### القصل الثاني

 ورحت أقاوم طوال الطويق .. وكان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة لى، كما بدا أن الظرف عزز جداً تلك الفكرة السيئة التي كانت (بيسي ) و ( مس آبوت ) تميلان إلى اعتقادها أنّ . والواقع أنني خرجت قليلا عن طورى ، أو بالأحرى أفلت منى الزمام . وأدركت أن عصمياني الذي لم يدم أكثر من لحظة واحدة، قد عرضي لعقوبات عجيبة . وكأى عبد ثالر . عزمت في يأسي على المضي إلى آخر الشوط . وقالت

 أمسكى ذراعيها يا ( مس آبوت ) لأنها أشبه بقطة مجنونة ! فصاحت وصيفة السيدة : ﴿ يَا لَلْخَرَى ! يَا لَلْعَارِ ! يَا لَهُ مِنْ سَلُوكُ مذهل با مس ( إير ) .. أنَّ تضرى سيداً صغيراً .. ابن ولية تعمتك،

وسيدك الصغير المد

\_ سيدي ؟! كيف يكون سيدي ٢ هل أنا خادم ٢

 كلا .. إنك أقل من خادم . لأنك لا تعملين شيئاً مقابل إيوائك . هيا اجلسي وفكرى في ذنبك !

وكاننا قد وصلنا ي عندئذ إلى الغرفة التي اختارتها لي مسز (ريد) ثم دفعتا ني إلى مقعد ــ بلا مسند أو ظهرــ ودار بخلدي أن أثب عن فلك المقعد كالزنبرك . ولكن سرعان ما قبضت على يداهما . وقالت

 إذا لم تجلسي هادئة ساكنة أوثقناك!.. أعيريني وباط ساقلت يا مس (آبوت) لأنبا تستطيع أن تقطع راباطي على الفور إ ـــ ماذا !.. ماذا !.. أقالت ذلك لى أنا ؟ هل سمعتهاما يا إليز ا وجورجيانا ؟ ألا يجدر أن أبلغ ماما ؟ ولكن يجب أولا ...

وجری نحوی . . وشعرت به یمسك بشعری وكتنی ویطبق علیهما في استماتة : ورأيت فيه شخصاً عانباً .. قاتلا حقاً . وشعرت بقطـرة أو اثنتين من الدم تنحدران من رأسي إلى عنتي، وأحسب بألم حاد . " وتغلبت تلك الآلام على خوفى، فواجهته فى ضرب من الحبل وألجنون.. ولست أدرى تماماً ماذا صنعت يداى: ولكنه راح يصبح ن: ١ يا للث من فأرة ! فأرة !.. ؛ ثم مضى يصرخ بأعلى صوته.. وسرعان ما خفت إليه النجدة، إذ جرت ( إليزًا ) و ( جورجيانًا ) إلى مسز ( ريد ) – التي كانت قد صعدت إلى الطابق العلوى .. فإذا بها ثفد إلى مكان الواقعة. تتبعها (بيسي ) ، والوصيفة (آبوت ) .. وفرقن بيننا. ثم سمعتهذه الكلهات : ﴿ أَعُودُ بِاللَّهِ ! أَعُودُ بِاللَّهِ !.. أَى جَنُونَ بِدَفَعَكُ إِلَى مَهَاجِمَةً السيد ( جون ) ! ١٠.

> ــ. على رأى أحد مثل هذه الصورة من الهوس ؟ ! وأدلت مسز (ريد) برأيها في النهاية ، قائلة :

ــ احملاها إلى الحبورة الحمراء ، وأغلقًا عليها الباب بالمُقتاح . وسرعان ما هبطت أربع أبد عليٌّ ، فحملتني إلى الطابق العلوى ٣

آن تفعلي 1 m . .

فاستدارت ( مس آبوت ) لتمد ساقاً قوية تحمل الوباط اللازم . غايسة في الإيلام والإذلال ، وإن لم أكن أفقـه كل ما تعنيه . وقالت ولكن هذا الإعداد للقبود ، وما كان يعتبه من إذلال جلسه ، يسددا ( مس آبوت ) بدورها : ﴿ وَبَجدر بكُ أَلا تَحسَى نَفْسَكُ نَدَاً للْآنَسَيْنِ شيئاً من ثورتي ، فصحت : ﴿ لا تُغلُّعيه .. لن أُتَّحرك من مكانى ؛ [.. وللسبد (ريد) لحجرد أن تعطفت والدتهم بتنشئتك معهم . . نسوف يصيبون وتأكيداً لذلك تشبثت بكانا بدى بالمفعد، فقالت (بيسي) ١٥ حذاري تُروة كبيرة. أما أنت فلن ينالك شيء، ولذلك فبقاؤك هنا رهن بأن تتواضعی وأن تحاولی استالة قلوبهم 🛚 . .

ولحا استوثقت من استسلامی أرخت قبضتهما - ثم نهضت هی و ( مس آبوت ) ، وقد عقلت كل منهما ذراعيها ، وأخذنا تتأملان وجهي في تجهم وشك . وكأنهما لم تكونا تطمئنان إلى سلامة عقلي !.. وأخيراً : التفتت (بيسي ) إلى ( الجارية ! ) الأخرى وقالت : ١ إنها لم تفعل هذا من قبل ! ه .

فكان الجنواب : ﴿ وَلَكُنَّ هَذَا الطَّبِّعِ قَيَّهَا دَائَّكًا ﴿ وَلَمَّـٰذَ طَالَّـا أفضيت لسيدتي برأتي في هذه الطفلة ، فكانت تقرفي عليه .. يا لحا من مخلوقة صغيرة ماكرة 1.. إنني لم أر أبداً فناة في سنها تخفي وراء ظهرها مثل هذا الخبث! \* .

فلم ترد عليها (بيسي )، ولكنها ما لبثت أن خاطبتني قــاثلة : و ينبغي أن تعلمي يا آنسة أنك مدينة لمسز (ريد) يكثير من الالترامات فهي التي تؤويك ، ولو أنها طردتاك لاضطررت إلى الذهاب إلى

ولم يكن لدى ما أقوله رداً على هذه الكلمات، فهي لم تكن جديدة على ، بل إن ذكريات وجودى الأولىكانت تحوى تلميحات من هذا القبيل ، حتى بات تعبيري بأنني مالة ، أشبه في أذفي بنغمة غامضة ،

وأضافت (بيسي) في صوت خال منالغلظة والعنف: ﴿ إَنَّمَا نَقُولُ هذا لصالحك . فيجمد بك أن تحاولي أن تكوني نافعة ولطيفة ، إذ تجدين لك بهذا مأوى هنا . أما إذا صرت حادة الطبع فظة الخلق ، فإن السيدة سنطر دلك . على ما أعتقد ! ه .

وقالت (مس آيوت) : ﴿ ولسوف يعاقبها الله كذلك .. إنها قد تقع ميتة في إبان تورثيا وهياجها ، فإلى أين تذهب بعد ذلك ؟ (إلى جهنم 1). تعالى يا( بيسيي). ولنتركها ، فلست أرجو أن أزلزل قلبها .. ألا صلى يا مس (إير) إذا ما خلوت إلى نفسك، لآنك إن لم تندمي فقد يهيط إليك شر من المدخنة، ويحملك يعيداً عن هنا ! • .. ثم ذهبتا بعد أن أغلقتا الباب خلفهما بالمقتاح .

• كانت الغرفة الحمراء حجرة فائضة ، مهملة ، يندر جداً أن ينام فيها أحد ، بل إن في وسعى أن أقول إن أحداً لم يكن ينام فيها إلا إذا تصادف أن غص قصر (جيتسهيد هول ) بالزوار ، وأصبح لزاماً أن يستعملوا كل ما كان فيه من غرف ، يرغم أنها كانت من أكبر وأفخم غرفات القصر . وكان بها سرير مقام على أعدة ضخمة من خشب

٤.

وكانَ مُعْمِدَى – آلمذي سمر تني فيه (بيسي) ومس (آبوت) القاسية – عبارة عن كرمبي خفيض بالقرب من الموقد المصنوع من الرخام : وكان السرير يتنصب أماى . وإلى يميني كان صوان الملابس العالى الداكن اللون بأضوائه المتعكسة المتكسرة التي تتباين باختلاف اللمعان المنبعث من ألواحه .. وإلى يساري كانت النافذتان يستاثرهما الممدولة ، وبينهمما مرآة كبيرة تعكس منظر السرير الفخير والحبجرة الكبيرة . ولما كنت غير واثقة من أنهما ــ أى الوصيفتين ــ قد أغلقتا الباب بالمفتاح ، فإتني لم أكد أجرؤ على الحراك ، حتى نهضت أتفقد الباب . وشد ما كان أسنى حين وجدته موصـدآ بالمفتاح فعلا 1.. لم يكن ثمة سجن يفوق ذلك استحكاماً . وكان لابد لى أن أمر ــ فى عودتى ـــ أمام المرآة ، فإذا تُظُوانَى الحائرة تتفقد ، على الرغم منى ، ما كان ينعكس عليها .. كان كل شيء يبدو في الصورة المنعكمة ، الجوفاء ، أشد برودة وحلكة مما كان في الواقع ! .. وكان للشكل الصغير ، الغويب ، الذي راح بحملق في وجه شاحب ، يعلو ذراعين يومض بياضهما خلال الظلال ، وبعينين تشعان خوفاً ، وتنحركان ، في حين كان كل ما حولها ساكناً .. كان لذلك الشكل وغال الله الكلامان

(المهوجني)، وقد أسدلت عليه ستائر من اللمقسالأهم الغامق، فبدا أشبيه بخيمة وسط الغرفة ، بينها كانت النافذتان الكبيرتان - بمصاريعهما المغلقة دائماً – تكادان تتواريان في أطواء ستائر من نفس القياش. كما كان البساط أحمر اللون، والمنضدة القائمة بجوار السرير مغطاة بغطاء فرمزى . وكانت الجدران ذات لون ماثل للاصفرار تمازجه مسحة خفيفة من حمرة ، في حين كان صوان الملابس ومنضدة الزينة والمقاعد من ( المهوجني ) القديم ، الداكن الطلاء .. ولم يخل من هذه الظلال القاتمة الغالبة على الحجرة ، سوى ١٠ ارتفع والتمّع بياضــه من حشيات ووسائد على السرير ، يعلوها لحاف ناصع كالثلج من طراز (مارسيايا) . وكان تمة مقعد لا يقل عن هذه الأشياء ظهوراً وسط الظلال الفائمة .. كان مقعداً وثيراً ، على مقوية من رأس السرير - أبيض الاون كذلك - يقبع أمامه مقعد صغير للقدمين، ويبدو في نظري أشبه بعرش باهت اللون ا

وكانت هذه الفرقة باردة ، إذ قلها كانت توقد فيها نار ، كما أنها كانت ساكنة ــ لبعدها عن غرفة الأطفال والمطابخ ــ مهيية : لما كان معروفاً من أنها قلها وطأتها قدم أو دخلها إنسان ، اللهم إلا الخادم التي كانت تلجأ إليها في يوم السبت من كل أسبوع ، لتنفض عن المرايا والأثاث الغبار الذي تراكم خلال الأسبوع . وفي فترات متباعدة : كانت مسز (ريد) تزور هذه الغرفة لتشقد محتويات درج خاص في صوان الملابس ، أو دعت فيه أوراقاً مختلفة وصندوق حليها وصورة مصغرة لزوجها الراحل . وفي هذه الكلات الانجيرة يكنن سر الغرفة

شدید الاستخفاف برغباتها، وکثیراً ما مزق أو أتلف لها ثوبها الحریری.
ومع ذلك ، فقد ظل (عزیزها الغانی ) !.. أما أنا فكنت لا أقترف
خطأ . وأحاول أن أؤدى كل واجب على ، ومع ذلك فقد كانوا
پنعنوننی بالشقیة ، المضجرة ، المشئومة ، الماكرة .. من الصباح إلى
الظهر ومن الظهر حتى الليل !

وكان رأسى لايزال بوجمنى ويدى بسبب الضربة ، والسقطة التي نالتنى . دون أن يوجه أحد منهم أى لوم إلى (جون) على أن ضربنى بتهور ونزق . أما أنا فقد اتهالوا على تعييراً وتأنيباً لحبرد أنتى انقلبت عليه لأتتى مضيه فى قسوته الهوجاء . .

وحدثنني نقسى ، وقد ألهمها الألم المبرح قوة سابقة لأوانها ... وإن كانت طارئة ، عابرة .. بأن أصبح: «هذا ظلم ! هذا ظلم ! ه . وحفزنني العزيمة التي ساورتني كذلك ، إلى أن أبحث عن ذريعة عجيبة للتخلص من الاضطهاد الذي لا يحتمل . إلى الهرب ، أو ... إذا لم يتسن لى ذلك ... إلى الهرب عتى بدركني الموت !

أى رعب شمانى فى عصر ذلك اليوم الموحش ؟ إ. .. وأى لجب السطخب فى رأسى ؟ .. وأى لجب السطخب فى رأسى ؟ .. وأى تحرد غشى قلبى ؟ .. ومع ذلك فأية ظمة ، وأية جهالة ضارية شب فيها أواو تلك المدركة التى دارت فى رأسى ! .. ولم أستطع الاهتداء إلى جواب عن السؤال الذى ما فنئت أردده : « لماذا أتعذب هكذا ؟ « .. أما الآن ــ ولن أقول بعد كم سنة تقضت ــ فإننى أرى الود واضحاً كل الوضوح :

كنت في قصر ( جيد بيد ) نشازاً ، لا أي الكالم كانرا هناك ..

الأشباح الصغيرة ، نصف الجنيات ، التي كانت (بيسي ) تروى لي ــ في قصص المساء ــ كيف كانت تخرج وتنبعث من البطاح المنعزلة المعشوشية ، لتظهر أمام أعين المسافرين الذين تخلفوا عن الركب !.. وعدت إلى مقعدى ، وفي رفقتي الخرافات .. ولكن ساعة انتصارها الكامل على لم تكن قد حانت بعد : لأن دي كان لايز ال حاراً : وكانت ثورة الأسيرة الثائرة على أشدها ! .. وكان على" أن أواجه تدفق الأفكار المتصلة بالماضي قبل أن تخور عزيمتي أمام الحاضر المظلم . ومن ثم عادت إلى عقلي المضطرب كل ألوان الظلم القاسي التي عانيتها من (جون ربد) ، وكبرياء شقيقتيه ، وكراهية والدته .. عادت أشبه برواسب حالكة في بئر عكرة موحلة . وتساءلت : لماذا كنت معذبة على اللنوام . مستضعفة على الدوام . مثهمة باستمرار . مذنبة إلى الأبد ؟ .. لماذا لا أقوى على إرضاء أحد ؟ .. لماذا لم تكن محاولاتي مجلية في استهالة أحد ٢ .. إن ( إليز ا ) . العنيدة الأنانية . محترمة .. و (جورجيانا ) ، بطبعها الفاسد . وحقدها اللاذع ، وسلوكها المتحامل الوقح ، تلقى استحساناً عاماً ! وكأنماكان جمالها ووجنتاها الحمراوان وجدائلها الذهبية ، متعة لبصر كل من يتطلع إليها، وتعويضاً عن كل عيوبها ! .. و (جون) ، لم يكن ثمة من يعارضه ـ وقل أن عوقب. مع أنه كان يلوى أعناق الحام ، ويتلف نبات الحسص التسغير ، ويحرض الكلاب على الغنم ، ويجرد الكروم من ثمارها . ويحطم براعم خير النباتات في البيوت الزجاجية بالحلميقة . ويدعو أمه بالفتاة العجوز، كما كان يعيرها أحياناً ببشرتها المعراء الشيهة ببشرته ! .. كذلك كان

www.d-rd4aran.com

كَانَ ذَلِكَ جَرِيمَةَ بِلا ربِّ . . ولكن ، هل كنت أهلا للموت ؟ أو هـل كان القبو – تحت عراب الكنيسة – هدقاً يغرى بذلك ؟. لقد علمت أن مستر ( ريد ) كان مدفوناً في ذلك القبو : فقادني التفكير إلى استعادة ذكر اه . و تعمقت في ذلك التفكير في هلم متر ايد متضاعف. . ولم أكن أقوى على تذكره جيداً \* ولكني كنت أعلم أنه خالى .. شقيق أى .. وأنه أخدَق وأنا طفلة يتبمة الوالدين إلى منزله: وأنه - في لحظاته الأخيرة ــ انتزع من مسز( ريد) وعداً بأن نربيني وتعوثني كواحدة من أطفالها . ولعل ممنز (ريد) كانت تحسب أنها يرت يوعدها ... فقد فعلت ذلك . على ما بدا لى ، بقدر ما كانت تسمح به طبيعتها ، إِذْ كَيْفُ لِهَا سَا فِي الْحَنْبِقَةِ \_ أَنْ نَحْبِ فَنَاهُ وَيَطْفُلُهُ لِيْسَتُ مِنْ دَمِهَا ، ولا تربطها بها صلة بعد أن توفى زوجها ؟!.. لاربب في أنه كان عملاً جد شاق أن تَجد نفسها مرتبطة برغمها بوعد قطعته على نفسها s بأن تقوم مقام الأم نحو طفاء غربية لانڤوى على أن تحبها، وأن ترى فتاة غريبة ليست من دمها ، تقحم نفسها دائمًا على أفواد أسرتها !

وومضت في خاطرى فكرة عجية .. إنى لا أشك \_ يل ما شككت إطلاقاً \_ في أنه أو بقي مستر (ريد) على قيد الحياة ، لكان قد عاملني برفق . وفيا كنت أجلس وأنطلع إلى الفراش الأبيض ، وإلى الجلران الطلبلة ، وعيناى الحائرات تتحدران أحياناً نحو المرآة المعتمة البريق ، أتحدرات أندكر ما سمعته عن الموتى عندما يضايقهم في قبورهم أن تنتهك رغباتهم الأخيرة ، فيعاودون زيارة الأرض لبنزار العقاب بالمانش وينتموا للمضطهدين ! .. وخيل لى أنه روح المستروبية ) . وقد

فلم يكن ثمة انسجام بيني وبين مسر ( ريد ) وأطفالها وأتباعها المختارين!.. وإذا كنانوا لم يجوفي ، فما كان أقل حبى هم ، في انواقع ! .. و لم يكن لزاماً عليهم أن ينظروا بعين الحب إلى محلوقة لا تستطيع أن تأتنف مع واحد منهم .. مخلوقة لم تكن تتجانس معهم ، وإنما كانت تعايرهم في المزاج ، والكفاية ، والنزعة .. مخلوقة مؤذية ، تنمى في نفسها جنور مصالحهم ومضاعفة غبطتهم .. مخلوقة مؤذية ، تنمى في نفسها جنور الحنن على معاملتهم ، وتتعهد فيها جرائيم السخط على أحكامهم ! وكنت أدرك أنني لو كنت طفلة دموية المزاج . متوقدة الذكاء . عديمة الاكتراث ، ظالمة ، هميلة ، مرحة ، نزقة ، لاحتملت مسر ريد وجودي بحزيد من الرضى ، ولبادلئي أطفالها مزيداً من الإحساس القاني بالزمالة . ولخف ميل الحدم إلى جعلى كبش الفداء في غرفة الأطفال .. مهما أكن عالمة المنصير !

事 券 春

• أخذ ضوء النهار يغادر الفرقة الحسراء . إذ ناهزت الساعة الرابعة . واعدر العصر الغائم تحو الغسق، وسمعت المطر وهو ما يزال بصفع زجاج النوافذ بلا انقطاع ، كما سمعت الرياح وهي تعوى في الغابة الصغيرة التي تقع خلف القصر . وأخذت البرودة تشل حركاتي تدويجاً . وإذ ذاك غاضت شجاعتي وعاودني إحساسي العادي بالحوان وعدم الثقة بالتقس والانقباض اليائس ، فكان أشبه بقطوات باردة تبيط على جموات حقدي الذاهب ! لقد أجعوا على أثني شريرة .. ولعنني كنت كذلك .. وإلا فكيف لم أعد أشغل إلا بتصور أن أقضى على نفسي جوءاً؟!

وقع أقدام في الممر الخارجي ، ثم دار الفتــاح في الباب لتدخل ( بيسي) و (آبوت) ... وقالت (بيسي): ٥ مس إير .. هل أنت مريضة ؟ ٨ . وصاحت (آبوت) : « يالها من ضنوضاء مروعة !.. لقد هزت کل کیانی! ه .

وارتفع صياحي : 1 آخرجيني ! .. دعيني آذهب إلى غرفة الأطفال! . . . فعادت (بيسي) تمالني: « لماذا ؟ هل أصابك أذى ؟ هل رأيت شيئاً ؟ و . . .

فتشبئت بید ( بیسی ) دون أن تحاول أن تنتزعها منی . ثم صحت : ﴾ أواه ! .. لقد شاهدت ضوءاً . وظننت شبحاً يوشك على الظهور ! ۗ ۥ ،

فقالت (آبوت) في شيء من الاشمئز از : « لقد صر خت متعمدة .. ويالها من صرخة ! .. ولو أنها كانت تعانى ألمَّا شديدًا لالتمسنا لهـــا العـــذر ، ولكنها أرادت فقط أن تأتى بنا حميعًا إلى هنا ، إنني أعرف حيلها الحيثة ! ١ .

وانبعث صوت يسأل في حزم : ٥ ما هذا كله ٢ ٪ .. ثم ظهرت مسز ( ريد) في الردهة ، وقد أخذت حواف قبعتها ترفوف حول وأسها و أخذت منامنها تبعث حليفاً شديداً . و استر سلت قائلة : ﴿ لَقُد أَصَادُونَ ۗ لكما أوامري بأن تتركا (جيزاير ) في الغرفة الحمراء إلى أن أحضر إليها بنفسي ا م. فقالت بيسي ضارعة : ﴿ لَقَدْ صَرَحَتْ مَسَ جَيِّنَ صَرَحَةً ملوية ياسيدتي ! ٩.. فكان الرد الوحيد : « أطلقيها .. اتركي يلتي بيسي ا يا طفلة، وتتي من أنك لنتوفق إلى الخروج بهذه الوسائل. إنني أمقت الخداع وخاصة في الأطفال: ومن والجي أنا أراك أنا الحيل لاتجدى..

أزعجتها المظالم التي هبطت على رأس ابنة شقيقته ــ قد تترك مثواها. سواء في قبو الكنيسة أو في عالم الراحلين المجهول، وتقت أماي في هذه الحجرة ، فقمعت دموعي ، وكفكفت نشيجي ، خشية أن يوقظ أي مظهر للحزن العاصف صوتاً قد ينساب من وراء الطبيعة ليسرى عني « وخوفاً من أن يبزغ من الظلام وجه منبر يحنو عليٌّ في إشفاق غريب ! : : وشعرت بأن هذه الفكرة تغدو مخيفة ، مروعة ، إذا ما تحققت، برغم ما كان فيها من عزاء وسلوى من الناحية التظرية !. لَذَلك حاولت بكلى قواى أن أخنفها وأن أخمدها ، كما حاولت أن أكون ثابتة الجنان ، قوية العزم ، فلخمت شعرى عن عيني . ورفعت رأسي ، ثم حاولت أن أتطلع بجرأة إلى ءا حولى في أنحاء الغرفة المظلمة . وفي هذه المحظة، برق ضوء على الجدار، فتماءلت: أهي أشعة من النمر تسللت من فتحة في مصراع النافذة ؟ .. كلا فإن ضياء القمر ساكن ، وهذا ضوء يتحرك !.. وفيا كنت أحملق ، تسلل الضوء إلى السقف ، واهنز فوق رأسي . وبوسعي أن أحدس الآن أن ذلك الخيط من الضوء كان ــ في الغالب – نوراً صادراً من مصباح يحمله شخص عبر الحديقة، ولكنني - في ذلك الوقت ، وأفكاري مهيأة للرعب والفزع ـ وأعصابي ثهتر بالانفعال والاضطراب ـ خلت أن الشعاع المارق بسرعة ـ إنما كان لذيراً برؤيا قادمة من عالم آخر ، فدق قلبي بعثف ، والتهب رأسي . وامتلأت أذناي بصوت حسبته اندفاع أجنحة . وخيل إلى أن شيئًا تجلى على مقربة مني ، فضاق صدرى ، واختنقت أنفاسي ، وخارت قواي ، فبادرت إلى الباب ورحت أهرَ التَعْلُ فيبأس واسْيَاتَهُ . وارتفع

#### القصل الثالث

• أذكر بعد ذلك أنني أفقت وأنا أحس كأنني كنت في كابوس مخيف .. وكنت أرى أماى يريقاً أحمر رهيباً ، تقطعه قضبان كثيفة سوداء . وسمعت كذلك أصواناً جوفاء نتحدث وكأنما يختقها اصطخاب رياح أو مياه . ويلبل حواسي الانفعال والشك ، والشعور الجارف بالرعب والفزع . وقبل أن تنقضي فترة طويلة ، انتبهت إلى أن أحداً يتناولني باهتمامه ، فيرقعني ثم يجلسني برفق لم أعهده من قبل ، فاعتمدت برآسي على وسادة أو ذراع ما ، واستشعرت الراحة , وبعد خس دقائق اتقشعت سحب الحيرة ، وعرفت جيداً أنني في فراشي ، وأن البريق الأحمر كان نيران المدفأة في غرفة الأطفال . وكان الوقت ليلا : شمعة تشتعل على المنضدة ، و ( بيسي ) واقفة عند مؤخر السرير وفي يدها حوض ، وسيد يجلس على مقعد بالقرب من وسادتي وقد انحني فوقي ..

وشعرت براحة لاتوصف ، وبإحساس لطيف بالحابة والأمان ، عنده أدركت أن يالحجرة غريباً .: شخصاً لابحت إلى القصر بصلة ، ولا يتصل بمـز ( ريد ) بقراية ما : وحولت نظري عن ( بيسي ) – ولو أن وجودها كان عندى أقل إثارة للكراهية مما لوكانت (آبوت) هي الموجودة ـــ ورحت أتفحص وجه ذلك السيد حتى عرفته، فإذا هو محتر ( لويد ) .. الصيدلي الذي كان يستدعى أحياناً عندما عرض الخدم .. أما لنفسها ولأطفالها ، فقد كانت السيدة تلجأ إلى طبيب ! وسألني : ١ والآن .. من أنا ؟ ١ . | ٥٥ ٥٥ لسوف تمكثين هنا ساعة أخرى، ولن أطلق سر احلث يعدها : إلا إذا أذعنت تماماً ، وأخلدت إلى السكون ! ي .

 أوديا خالئي .. ترفقي في ! اغفري لي ! لست أفوى على احتمال ذلك .. دعيني أعاقب بطريقة أخرى ، فلسوف أموت إذا ..

الزمى الحكون! إن العنف أدعى لإثارة الاشمئز از!

ولا ريب أنها أحست بالاشمئزاز ، لأنني كنت في نظرها محثلة نابغة بارعة بالنسبة لسنى .. بل لقد كانت ترى فيُّ مزيجًا من الأهواء الوبيلة ، والروح الوضيعة ، والرياء الخطر !..

وبعـد آن انسحت (بیسی ) و (آبوت) . کان صـیر مسز (ريد) قد عيل ، وضاق صدرها بآلامي الملتاثة ، وزفراني الحائجة ، فدفعتني بفظاظة إلى الخلف : ثم أغلقت الباب عليٌّ بالمفتاح : دون أن تُنبِس يُعرف . وما أن سمعتها تبتعد حتى انتابتني ــ على ما أعتقد ــ لوبة من النوبات ، ثم أسدل الإغماء الستار على ذلك المنظر !

فنطقت باسمه وأنا أمد له يدى فى الوقت نفسه ، فتناولها وهو يبسم ويقول : « سوف تتحسين جداً ، عما قريب » . . ثم أرقدنى وخاطب (بيسى) ليكلتمها أن توليني من الرعاية الشديدة ما يحول دون إزعاجي فى الخيل . وبعد أن أصدر بعض تعليات أخرى ، وعد بأن يعود «رة ثانية فى الحيوم التالى ، ثم غادرتى وقد برح بى حزنى ، إذ كنت أشعر بأننى أنع بالحاية والصداقة مادام هو جالساً فى المقعد بجانب وسادتى . فلها أغلق البابخلفه أظلمت الحجرة كلها، وعاد قلبي يغوص من جديد ، لأن حزناً لايوصف قد أثقله .

وسألنى بيسى يصوت أرق مما اعتدت منها : « أتشعرين برغية فى النوم يا آنسة ؟ « .. وكدت لا أجرؤ على الرد عليها ، لأننى خفت أن تكون الجملة الثانية جافة ، فغمغمت قائلة : « سأحلول ! » م

- أترغبين في أن تشربي أو تأكلي شبثًا ٢
  - کلا .. أشكرك با بيسي .
- لأذهب إلى فراشى ، فإن الساعة قد جاوزت الثانية عشرة :
   ولكن في وسعك أن تناديني إذا احتجت إلى شيء أثناء الليل .

يالها من دمانة عجبية ! .. وشجعنى ذلك على أن ألتى إليها سؤالا ، فقلت : « بيسى .. ماذا جرى لى ؟ هل أنا مريضة ؟ » .

- أَضْنَكَ قَدْمُرضَتُ فَى الحَجْرةَ الحَمْراءُ بسبب بكائكُ ، ولكنك سوف تتحسنين حالاً بلاربيب ,

ثم مضت بيسي إلى حجرة الخالم، المشرفة على شتول البيت



أذكر بعد ذلك أثنى أفقت وانا أحس كأننى كنت في كأبوس مخيف

العقلية المروعة التي تعتريني ، ولكني خليقة بأن أصفح عنك ، لأنك لم تكونى تدرين ما تعملين : قبينا كنت تمزقين نياط قلبي ، كنت تحسين أَنْكُ إِنَّمَا تَسْتَلِينَ مِنِّي نَزْعَاتِي الشَّرِيرَةِ !

وغادرت قراشي – حوالي ظهر اليوم التالي – فجلست متلفعة بشال ، على مقربة من المدفأة في حجرة الأطفال . وكنت أشعر بضعف وهزال في بنيائي ، ولكن أسوأ ١٠ كنت أعانيه تمثل في شقاء تفسى يفوق للوصف :. شقاء ظل يستنزف مني الدموع في صمت ، فكنت لا أكاد أمسح دمعة عن خدى ، حتى تسقط أخرى , ومع ذلك فقد خلت أنه بجدر بی أن أكون سعيدة لأن أحداً من آل ( ريد ) لم يكن موجوداً ، إذ خرجوا جبعاً في عربة أمهم . وكذلك كانت آبوت تخيط في حجرة آخری ، بینها کانت بیسی – وهی تنتفل هنا وهناك لترتب اللعب أو تنظم الأدراج ــ تخاطبتي ، وهي تعلوي حديثها على كلمة رقيقة بين آن وآخر . وكانت ثلك حال جديرة بأن تبدو لى بمثابة جنة من النعيم والسلام : يعد أن اعتدت حياة التقريع الدائب ، وحياة السخرة دون شكر أو ثناء . بيد أن أعصابي كانت إذ ذاك قد بلغت ــ في الواقع ـــ حالاً لا تجدى في تهدئتها طمأنينة أو غبطة ا

وكانت بيسي قد هبطت إلى المطبخ ، فجاءتني بكعكة في طبق لامع من الخزف رسم عليه عصفور من عصافير الجنة يعشش في إكليل من النباتات الملتفة وأزرار الورد . ولقد طالما أثار هذا الرسم فينفسي شعوراً بالإعجاب، فكنت أتوسل كي يسمح لي بأن أمسك بهذا الطبق في يدى لأتأمله من قرب ، ولكني كأن في نظرهم غنبر أهل الثل هذا

وكانت على مقربة ، ولذلك سمعتها تقول : ﴿ تَعَالَىٰ يَاسَارُهُ وَنَامَى مَعَى فَى حجرة الأطفال ، فإنني لا أجرؤ على أن أنفرد الليلة مع تلك الطفلة التعسة ، إذ قد تموت ! .. من العجيب أن تصيبها تلك النوبة .. ترى هل شاهدت شبراً ؟ ! .. لقد كانت سيدتنا غاية في الفظاظة معها ! و :

وعادت (سارة) معها ، فانلست الانتتان في الفراش ، حيث أخدتا تنهامسان لنصف ساعة ، قبل أن تستغرقا في النوم . واستطعت أن أُلتقط نتفاً من حديثهما ، أمكنني أن أستدل منها - يكثير من العتاء -على الموضوع الأصلى للمناقشة كقولما :

- مو بها شيء يرتدى بياضاً في بياض . ثم اختفى ؟
  - كان خلفه كلب ضخم أسود ..
  - ثلاث طرقات عالية على باب الغرفة ..
  - ضوء فى فناء الكنيسة فوق قبره مباشرة!

وأخيراً ، نامت الاثنتان .. وانطفأت النار والشمعة . أما أنا ، قإن ساعات تلك الليلة الطويلة قد تقضت وأنا في يقظة مروعة ، إذ توترت مني الأذن والعين والعقل معاً ، بخوف لا يمكن أن يشعر بمثله سوى الأطفال |

 ولم يتبع حادث الحجرة الحمراء هذا أى مرض جأتى شديد أو طويل ، ولكن الحادث أصاب أعصاني بصدعة مازلت أشعر برد فعلها حتى اليوم .. نعم يامــز (ربد) ، إنني مدينة لك بيعض الآلام حقولا فى ارتفاع الغنابات ، وقططاً عملاقة ، ورجالا ونساء بشبهون الأبراج .. ومع ذلك فإتنى وجدت الآن وقد وضع هذا الكتاب المعزز بين يدى ورحت أقلب صفحاته وأبحث فى صوره الرائعة عن السحر الذى لم يفتنى قط حتى ذلك الوقت ــ أن أهندى إليه .. وجدت أن كل هذا لا يثير فى نفسى سوى الفزع والاكتئاب : كانت العالقة مجرد (جنيات) هزيلة ، والأقرام (عفاريت) صغيرة حقودة ، و (جليفر) جوالا يهم على وجهه فى مناطق محفوفة بالحلاك .. لذلك أغلقت الكتاب الذى لم أجرؤ على أن أتصفحه بعد ذلك ، ثم وضعته على المنضدة بجانب الكمكة التى لم أذقها . وكانت بيسى قا، فرغت لتوها من تنفيض الحجرة وتنظيفها ، ثم غسلت يديها ، ففتحت درجاً صغيراً مايناً يقطع من الحور والأطلس ، وبدأت تصنع قبعة صغيرة لدمية (جورجيانا) وهي تغنى في نفس الوقت .. وكان مطلع أغنينها :

ة فى الأيام التى كنا فيها نحيا حياة الغجر منذ زمن بعيد ... # .

لكم سمعت هذه الأغنية من قبل فطربت لها ، إذ كانت بيسي رخيمة الصوت ، أو هكذا كان يحيل لى . غير أنني . ـ في هذه المرة ـ لمست في الخن حزناً لا يوصف ، يرغم أن الصوت ظل رخيماً ! . . وكان العمل يشغلها أحياناً ، فتبطيء وهي تردد مقطع الأغنية ، حتى لتبدو عبارة (منذ زمن بعيد) ، أشبه بترنيمة جنائزية ! . . على أنها ما لبثت أن انتقلت إلى قصة غنائة . . وكان الغناء في هذه المرة عزناً حقاً :

الامتياز . . أما الآن ، فهاهو ذا الإناء النَّين قد وضع على ركبتي ، وقد دعيت في إلحام إلى أن آكل هذه الحلقة الصغيرة من الحاوي التي كانت فيه .. فياله من فضل لايجدى ، إذ جاء متأخراً ، كمعظمِ الأفضال التي يطول حبسها برغم اشتداد اللهفة عايبها 1 .. ولم أنو على أكل الكعكة . لأن ريش العصفور وألوان الزهور الزاهية ما لبئت أن تبدت لعيني شاحبة بصورة عجيبة ! .. لذلك وضعت كلا من الطبق والكعكة جانباً . فسألتني بيسي عما إذا كانت تأتيني بكتاب . وإذا بكلمة (كتاب) تفعل فى نفسى فعل المنبه العابر ، فتجعلني أنوسل إلى (بيسي ) أن تجيئني بكتاب ( رحلات جليفر ) من المكتبة . . ولقد طالمًا تصفحت هذا الكتاب مرات ومرأت ، لأنني كنت أعتبره قصة ثقوم على حفائق . وكنت أكتشف فيه مورداً للمتعة أعمق ثما في القصص الخرافية . . حتى لقد رحت أبحث عبثاً عن ﴿ الجنبات ﴾ ــ التي ورد ذكرها فيمه ــ بين أوراق نبات ﴿ كَفَ النَّعَابِ ﴾ ؛ وتحت أعشاش الغراب ، وفي أركان الجدران القديمة التي تكسوها النباتات الزاحفة المتساقة . فلما لم أجلما – في النهاية ... اهتديت إلى الواقع الألم كما بدا لى وهو أنها قد رحلت كلها عن إنجلترا إلى بالـ ما موحش ، حبث الغابات أكثر اتساعاً وكثافة، وحيث السكان أقل عدداً . أما عن ( ليليبوت ) و ( برويد تجناج ) — المملكتين اللتين وردتا في أقاصيص ( جليفر ) – فقمد اعتقدت أتهما قائمتمان فعلا على سطح الأرض ، ولم يساورني شك في أنتي سأحظي يوماً ، خلال رحاة طويلة ، بأن أرى مملكة تضم حقولا ومنازل وأشجاراً صغيرة . وأناساً وأبقاراً وأغناماً وطيوراً ضئيلة الحجم .. وبأن أشهد مملكة أخرى تحوى وثمة إيمان يمدنى بالقوة:
 لو أننى حرمت كلا من المأوى والأقرباء
 فالسياء منزل ، وفيها لن أعدم الراحة
 لأن الله نصير الطفل اليتم المسكين!

茶 本

■ وقالت بیسی بعد آن فرغت من الغناء : ۵ کنی یامس جین ،
 لا تبکی ! ت :. وما کان أشبهها بمن تقول للنار « لا تشتعلی » ! . .
 ولکن أنی لها أن تتکهن بالعذاب الوبیل الذی کان یفترسنی ؟

وأقبل مستر (لويد) في الضحى يعودني ، فهتف وهو يلج غرفة الأطفال : و ماذا ؟ . . أهي مستيقظة ؟ . . كيف حالها أيتها المربية ؟ ه . . فأجابته بيسي بأنتي تحسنت جداً .

إذن، فجادير بها أن تبدو أكثر ابتهاجاً . تعالى هنا يامس جين ..
 إن اسمك جين .. أليس كذلك !

– بلی پاسیدی .. جین ایر .

حسناً . لقد كنت تبكين يامس جين إبر . . فهل لك أن تغير بنى بالسبب ؟ أتتألين من شيء ؟

- كلا ياسيدى !

فنلخلت بيسى قائلة : ﴿ أَوْهُ .. أَظَلْهَا تَبَكَى لَأَنَّهَا لَمْ تَسْتَطَعُ الْخُرُومِ مع السيدة .. فى العربة ٥ .

ليس لهذا السبب يكل تأكيد! .. إنها أكبر من مثل هذه التوافه !
 وكان هذا رأي كذلك . ولما كان الزعم الساطل قد جرح عزة

تفرحت قدمای وکلت ساقای
 والطریق طویل ، والجبال موحشة
 وسرعان ما یطبق الفسق مظلماً کثیباً
 علی طریق الطفل الیتم المسکین!

الماذا يقصوننى بعيدة هكذا ، ووحيدة هكذا
 إلى حيث تمند المستنفعات وتتكدس الصخور الكالحة !
 لقد تحجرت قلوب البشر ، ولكن الملائكة الرحيمة وحدها ترعى خطوات الطفل اليتيم المسكين !

و ومع ذلك ، فإن نسيم الليبل يهب رقيقاً ، على البعد
 وقد نقشعت السحب والتمعت النجوم المشرقة . .
 والله ـ . يرحمه ـ قد نجلت وعايته
 فبث الطمأنينة والأمل في نفس الطفل اليتيم المسكين !

۱ مهما تنعثر قدمای أثناء عبوری الجسر المحطم
 أو يضلني في البطاح ضياء زائف خداع
 فإن إلمي . . برعايته و بركته

سبضم إلى أحضانه الطفل اليتيم المسكن ا

واسترسل مستر لويد يقول بعد خروج بيسى : ٥ إن وقوعك لم يكن السبب في مرضك .. فما هو السبب إذن ؟ ه .

 لقد حبست فی حجرة بها شبح ، إلى ما بعد هبوط الظلام . قرأيت مستر ( لويد ) يبتسم ويعبس في آن واحد . ثم قال : ة شبح ! ؟ .. يالك من طفلة . برغم مظهرك ! .. أنخافين الأشباح ؟ » . ـــ أخاف من شبح مستر ( رباء ) ، فقد مات في تلك الغرفة ، ثم وضع فيهما . ولا تستطيع بيسي وغيرها أن تذهب إلى تلك الغرفة في الليل ، ما استطاعوا ! .. ولقد كان من النسوة أن أحبس وحدى بها ، دون شمعة تبدد الظلمة .. قسوة بالغة لن أنساها قط |

 حراء ! وهل هذا يشقيك إلى هذا الحد ٢.. ثم: هل يساورك الخوف الآن . . في وضع النهار ؟

 كلا .. ولكن الليل لن يليث أن يأتى مرة أخرى بعد قليل!.. مْ إِنِّي غَيْرِ سَعِياءً .. غَيْرِ سَعِيدة مَطَلَّقاً .. بَسَبِّب أَمُورَ أَخْرَى ! أية أمور أخرى ؟ . . هل في وسعك أن تحدثيني عن بعضها ؟

وكم وددت أن أجبيه عن هذا السؤال في صراحة !.. ولكن ، كم كان صعباً أن أصوغ أي جواب !.. إن في وسع الأطفال أن يحسوا ويشعروا ، ولكنهم يعجزون عن تحايل مشاعرهم ، وحتى إذا تسنى لهم ذلك التحليل في أذهانهم إلى حد ما ء فإنهم لا يعرفون كيف يعبرون التخفف من أحزاتي بالإفصاح عنها ، فقد قررت ـ بعد فترة من القلق والحبرة – أن أصوغ جواباً حقيقاً ، إلني الحازه وهزاله ، فقلت : نفسى ، فقد أجبت على الفور : ﴿ إِنِّي لَمْ أَبِّكَ فِي حَيَّاتِي لِمُثَلِّ هَذَا الْأَمْرِ فأنا أكره الخروج في العربة .. إنما أبكي لأنتي تعسة ! ١٠.

فقالت بيسي ؛ ﴿ أَوْهُ .. وَكِلْ يَا آنْسَةً ! ﴿ .. وَهَنَا تُبْلُتُ الْحَيْرُةُ على وجه الصيدلي . وكنت و اقفة أمامه ، فأخذ يتفر سنى بعينين صغير تين رماديتين ، لم تكونا شديدتى التألق ، ولكننى أستطيع أن أدرك اليوم أن نظراتهما كانت تنم عن ذكاء . وكان وجهه صارم التمسيات ، غير أنه كان صبوحاً ، ينم عن طيبة . وإذ تأملني ملياً ، قال : • ما الذي أسقمك بالأمس ؟ ٢ .

فأجابت بيسي متدخلة في الحديث مرة أخرى : • لقد وقعت • : ... وقعت اكيف ؟ هل ترينها ارتدت طفلة من جديد ؟.. ألا تستطيع

فتاة في سنها أن تمشي جيداً ؟. . إنها ولابد فيالتّامنة أو التاسعة من عمرها! وشعرت بالألم ... مرة أخرى ... لكرامتي الجربحة ، فقلت في

برود أوضح له الأمر : ﴿ لَقَدَّ أُوقَعَتَ ﴿ وَ فَهَا كَانَ مَسَرَ لُوبِهِ يَتُنَاوِلُ بعض السعوط ، أردَّفت قائلة : ﴿ وَلَكُنَّ هَذَا لَمْ يَكُنَّ سَبِّ مَرْضَى ﴾ .

وبينها كان يعيد علية السعوط إلى جيب صداره ، و ن أحد الأجراس عالميًّا لدعوة الخدم للغداء .. وأدرك المقصود بذلك فقال : • هذا من أجلك أيتها المربية ، وفى وسعك أن تنزلى .. أما أنا فسألتى على مس جين درساً ۽ رينيا تعودين ۽ .

وكانت بيسي تفضل البقاء ، ولكنها اضطرت إلى الذهاب، لأن المواظبةعلىمواعيدالوجبات كانت تراعى بكل دقة في قصر ( جيتسهيد). - إذا كان لك مثل هؤلاء الأترباء ، فهل ترغبين في الذهاب

فأخذت أفكر .. إن الفقر يبدو فى نظر الكبار عابساً كالحاً .. وهو أكثر عبوساً ومرارة في نظر الأطفال ، ولو أنهم لايدركون الكثير عن الفقر وأهواله بالنسبـة للطبقة العاملـة الكادحة ، ولا يرون لكلمة ( الفقر ) معنى ، اللهم إلا الملابس المهلهلة ، والطعام القليل ، والمدافئ الخالبة من النيران ، والطباع الفظة ، والرذائل الوضيعة .. كما كان الفقر في نظري مرادفاً للضعة والحوان ، ولذلك أجبت قائلة : « لا .. لست أحب أن تكون لي صلة بأناس فقر اء ! » .

🗕 حتى ولو كانوا شفوقين بك ٢

فهززت رأسي وأنا لا أدرك كيف يتـأتى للفقــراء من الناس أن يكونوا شفوقين !.. ثم كيف لى أن أتحدث مثل حديثهم ، وأن أتخـذ لنفسى أخلاقهم ، وأن أكون غير متعلمة مثلهم ، فأشب كواحدة من النسوة الفقيرات اللاتي كنت أراهن في بعض الأحيان وهن يرضعن أطفالهن، أو يغسلن الملابس عند أبو اب الأكواخ في قرية (جيتسهيد) ٢٠.. كلا ! . . لم أكن من الشجاعة بحيث أشترى حريتي بالفقر !

 ولكن على أقرباؤك فقراء إلى هذا الحد ؟ هل هم من الطبقة العياماة ؟

ــ نست أدرى .. ولكن الخالة ( ريد ) تقول : إنه إذا كان لى أقرباء فلابد أنهم من زمرة المتسولين ,, وأنا لا أحب أن أتسول ! \_ أتودين الذهاب إلى مدرسة ؟ ! 0000

« لسبب واحد . . هو أنني بلا أب أو أم أو إخوة أو أخوات ! £ .

ـــ إن لك خالة وأبناء خالة شفوقين . ـــ

فتوقفت عن الكلام مرة أخرى ، ثم قلت في حبيرة وتخبط : ، ولكن جون صرعني ، وخالتي حبستني في الغرفة الحمراء ! ي .

ومرة ثانية ، أخرج مستر لويد علبة السعوط ثم سألني : ﴿ أَلَا تُرينَ قصر (جيئسهيد) مقاماً جميلا ؟.. ألست شاكرة لإقامتك في مثل هذا المكان البديع ؟ ١١ .

 إنه ليس منزلى يا سيدى .. وتقول (آبوت) أن ليس لى أدنى حتى في الإقامة هنا إلا كخادم!

 أوه ! لا يمكن أن تكونى من البلاهة بحيث ترغبين في مغاهرة مثل هذا المكان الفخم |

 إذا وجمدت مكاناً آخر أستطيع الذهاب إليه ، فإنني أتركه مغتبطة ، مسرورة .. ولكني لا أستطيع مغادرة (جيتسهيد) قبــل أن أصبح امرأة !

ربحا .. من يدرى ؟.. ألك أفرباء غير مسر ريد ؟

ـــ لا أظن يا سيدي .

- أليس لك أقرباء لأبيك ؟

 لست أدرى !.. لقد سألت الخالة (ريد) ذات مرة ، فقالت : إن من المحتمل أن يكون لى بعض أقرباء فقراء وضيعين ، من عائلة أبي ، ولكنها لا تعرف عنهم شيئاً !

وإذ ذاك عادت بيسى .. وفى اللحظة ذاتها ، سمع صوت العربة ترقى الطويق المحصوبة ، فسألها مستر لويد : « أهذه سيدتك أيتها المربية ؟.. أحب أن أتحدث إليها قبل الصرافي ! » .

#### 告 告 告

و دعته ييسى إلى غرفة الفطور . وسارت أمامه . وفي المقابلة التي جرت تحت بينه وبين مسز (ريد) ... كما أدركت من الحوادث التي جرت بعد فلك ـ تجرأ الصيدلى على ما أظن . فأوصى بإلحاقى بإحدى المدارس. ولا شك أن مسز (ريد) رحبت بتلك التوصية . إذ حدث فى الليلة التالية لملازمتى الفراش ، أن جاست آبوت وبيسى ... فى غرفة الأطفال ... نتناقشان فى ذلك الموضوع ، وهما منهمكنان فى التطريز ، وقد حسبتانى نتناقشان فى ذلك الموضوع : إن سيدتها كانت غاية فى السعادة للتخلص من نائمة .. فقالت آبوت : إن سيدتها كانت غاية فى السعادة للتخلص من وتدبر له المكائد فى مكر ودهاء !.. وأطننى سمعت آبوت تصفنى بأننى وتدبر له المكائد فى مكر ودهاء !.. وأطننى سمعت آبوت تصفنى بأننى قسيرته الأساطير المخيفة 1 » .

وعلمت للمرة الأولى من أقوال آبوت - فى تلك المناسبة - أن أبي كان قسيساً فقيراً ، وأن أبى تزوجت منه على غير رغبة أصدقائها الذين لم يروا فيه نداً لهما ، وأن جدى (ريد) ذهب فى الهياج والسخط على عصياتها وتمردها إلى حد أن حرمها من كل شلن فى تروته ، وبعد انقضاء عام على زواج أبى وأبى ، أصيب الأخير بحمى التيفوس أثناء زيارته للفقراء فى إحدى المدن الصناعية اللى تفضي فيها ذلك الهياء -

ففكوت مرة أخرى .. كنت لا أكاد أعرف ما هي المدرسة . وإن كانت (بيسي) قد وصفتها أحياناً كمكان تجلس فيه السيدات الصغيرات في مقاعد ، ويرتدين أزياء خاصة ، ويطلب منهن أن يكن غاية في الرقة والكياسة . ولقد كان جون ربد يمقت مدرسته ، ويذم أسائلة، ، ولكن أذواق أسرة ( ريد ) لم تكن في نظرى أحكاماً يؤخذ بها . وكانت بيسي تتحدث بمـا جمعته من أقوال فتبات الأسرة التي كانت تعمل عندها قبل أن تجيء إلى (حيثسهيد) . فكان في وصفهـــا للنظام المدرسي ما ينم عن شيء من الشدة القاسية .. ولكن ما أسهبت في ذكره من ألوان الثقافة التي تحصل عليها هؤلاء الفتيات ، كان بدوره شيئًا جذابًا مشوقًا بالنسبة إلى ، إذ كانت بيسي تنحدث في زهو عن الرسموم الجميسة التي تنقلهما تلميذات المدارس عن المناظر الطبيعية والأزهمار ، والأغباني التي ينشدنهما ، والمسرحيات التي يمثلنهما ، والمفارش التي يطرزنها ، والكتب الفرنسية التي يستطعن ترجمتها .. ولذًا كانت نفسي تهفو إلى أن أكون مثلهن !.. هذا إلى أن المدرسة سـوف تكون بمثابة تغيير كامل بالنسبة لي ، لما تنتظمه من رحلة طويلة » وابتعاد تام عن (جيتسهيد)، ودخول في حياة جديدة !.. وكانت نهاية تأملاني أن قلت يصوت مسموع : ﴿ الحَسْقُ أَنْنِي أَتْمَنِي أَنْ أَدْهُبُ إلى المدرسة ع .

فقال مستر لويد وهو ينهض واقفاً : «حسناً.. حسناً .. من يلمرى ما سوف يحدث ؟ » .. ثم أردف محدثاً نقسه : « ينيغى للطفلة أن تغيير الهواء والمناظر ، فإن أعصابها ليست فى حالة طيبة ! » .

# القصل الرابع

 ■ من الحديث الذي دار بيني وبين مستر ( لويد ) ، ومن العبارات التي سمعتهـا ــ أنشاء مرضي ــ •ن بيسي وآبوت ، جنبت من الأمل ما يكنى لأن يكون حافزًا لرغبتي في الشفاء . إذ بدا لي أن تغييراً كان يوشك أن يطرأ عما قريب ، فتلهفت عليه ، ورحت أنتظره في صمت وهدوء .. بيد أنه أبطأ مع ذلك ، وانقضت أيام وأسابيع استعدت فيها صحتى العادية ، دون أن تبدر من أحد إشارة جديدة إلى الموضوع الذي كان يشغل بالى . وكانت مسز (ريد) ترمقني من حين إلى آخر بنظرة حادة ، ولكنها ندر أن وجهت لى الحديث ؛ لأنها منذ مرضى رسمت سياجاً يَمْرِقَ بِنِي وبِينَ أَطْفَالِهَمَا أَكُثْرَ مِنْ ذِي قِبْلٍ ، وخصصت لي حجرة صغیرة أنام فیها بمفردی ، كما حكمت علی بأن أتناول طعمامی وحدى ، وأقضى كل يومى في غرفة الأطفال، بينها كان أبناء خــالى في حجرة الاستقبال على الدوام . ورغم ذلك لم تلحف الجو بارقة تنبيُّ بلرساني إلى المدرسة . على أنني كنت أشعر شعوراً جازماً بأن مسز (ريد) لن تطيق طويلا أن يظلني وإياها سقف واحد، لأن نظراتها إلى أصبحت تنم عن نفور طاغ ، تأصلت جذوره في تفسها أكثر من أي وقت مضي !

وكان من الواضح أن (إليزا) و (جورجيانا) تنفـذان أوامر خاصة ، إذ أصبحنا تقتصدان في الحليث معي م استطاعتا، في حين كان (جون) بخرج لسانه حتى خده كالراب ويون عالى مرة أن

في ابراشيته : وما لبثت العدوى أن انتقلت إلى أي ، فحات الاثنــان و لما يمض شهر واحد بين موت الأول وموت الثانية !

المسكينة مس جين بالرثاء يا آبوت ! ٣ .

فأجابتها آبوت : ﴿ نَعْمِ .. لَوْ أَنْهَا كَانْتَ طَفَلَةٌ ظُرِيفَةٌ جَمِلَةٌ ، لأَشْفَقَ الضفدعة الصغيرة! ٤ . .

فوافقتها بيسي قائلة : ٥ إنها ليست على قدر كبير من الجال حقاً به ولو أن فتاة في مثل جمال مس جورجيانا وجدت في مثل ظروف مس جين ، لكانت أحظى بالرثاء والعطف ! ١. قصاحت آبوت متحمسة: ة إنني شغوفة بمس جورجيانا .. يا للعزيزة الصغيرة ، بجدائلها الطويلة وعينيها الزرقاوين ، ولون بشرتها الجميل .. كأنها صورة مرسومة 1.. إنني يا بيسي أفكر في أرنب من أرانب (ويلز ) للعشاء : قما رأيك ؟ • وأنا كذلك :: ومعه بصل مشوى . تعالى نهبط لندير الأمر !

تم مضت الأثنتان ب

تقريباً ، ؛ لأن لساني ـ على ما بدا ـ نطق بالكلات دون ما موافقة مني على النطق جا ، وكأن الذي تحدث شيء في أعماق لم يكن لي عليه سلطان . وشهقت مسرّ (ريد) قائلة : « ماذا ؟ » :: وعكوت عينيهما السمراوين ، الباردتين ، الرصينتين بطبعهما ، نظرة خائفة ، فرفعت بدها عن ذراعي ، وحملقت في وكأنها لم تكن تدرى فعلا ما إذا كنت طفلة أو (عفريتة) !.. وكنت قد انسقت للموقف ، قاتلة :

 ان خالی (رید) فی السهاء ، ویستطیع أن یری كل ما تفعلین وتفكرين فيه . وكذلك يستطيع أبى وأى 1.. إنهم يعرفون أنك تحبسبنني طوال النهار ، وأنك تتمنين موتى 1

على أنها سرعان ما استردت جأشها ، فأخذت تهزني بشدة وتلوى كلتا أذنى ، ثم غادرتني دون أن ننطق بحرف واحد ۽ وتولت بيسي مل، الفنرة النائية بمواعظ استغرقت ساعة كاملة ، وأثبتت لي بما لا يدع أَدَىٰى شِكَ ، أَنَّنِي أَشْقِي وأتعس طفلة نشأت تحت سقف من السقوف .. على أنني لم أصدق كل ما قالته 1 لأنني لم أكن أشعر بغير الإحساسات الشريرة التي كانت تعصف بين أضلعي !

 ■ وأنقضى شهر نو أبر ، ثم ديسمبر ، ونصف بناير : وكانوا قما. احتفلوا بعيمه وآس السنة ــ في القصر ــ بالابتهاج المعتاد ، فتبودلت الهَدَايَا \* وأَقِيمت ولائم الغداء والعشاء . وكنت يطبيعة الحال ميعدة عن كل متعنة ;; بل كان كل تصيني في ذَّلك السرور أن أشباهد يومياً

يضربني ، ولكني واجهته على القور وقد ثارت ثائرتي ، واندفعت بنفس شعور الحنق العميق وبنفس القرد الذي أثارني من قبل، فجرى من أماى وهو يردد السياب واللعنات » مقسماً أنني جدعت أنفه . والواقع أنني هويت على هذا الجزء الناتئ من وجهه بضرية تجمع فيها كل ما كان في يدى من قوة : ولما رأيت أن هذه الضربة، أو ما بدا في عيني من نظرة، قد أخافته ، وجدت بي ميلا شديداً إلى المضي في تأديبه ، ولكنه كان قد وصل إلى أمه وسمعته يروى لها ــ بصدوت ينشج بالبكاء - كيف اتقضت عليه جين القلوة ، انقضاض القطة المتوحشة !.. ومنعته أمه من الاسترسال قائلة : ٥ لا تحدثني عنهـــا يا جون ، فقد حذرتك من أن تقترب منها لأنها لا تستأهل أية عناية . ولا أرضي اك أو لأختيك أن تكونوا رفاقاً لها ؛ !..

وعندثل اتكأت على سياج الدرج ، وصحت فجأة ودون أى تفكير في كالتي : " بل هم الذين لا يستأهاون أن يكونوا رفاقاً لي ه !

وكانت مسز (ريد) قوية البنيان نوعاً ما ، فلما سمعت منى ذلك التصريح العجيب ، الوقح ، جوت في خفة ترقى الدرج ، ثم دفعتني كالإعصار إلى غرفة الأطفال ، حيث سمقت أحد ضلوعي ، وأمرتني يصوت متوعد بألا أنهض من ذلك المكان ، أو أنبس بينت شفة ،

ووجدتني أسألها ، عن إرادة تقريباً : ، ترى ما الذي كان خالي يقوله لك ، لو أنه كان على قيد الحياة ؟ ٢ م وأقول : ١ عن إرادة البرد والظلام . وإلى هذا المهد كنت آخذ دميتى دائماً ، إذ يجسلو بالخلوقات الآدمية أن تحب شيئاً ما ! . وكنت فى أثناء افتقادى أتفه ما أودعه حبى ، قد رضت نفسى على أن أجد متعة فى حب صورة محفورة باهتة اللون ، فى قذارة (خيال المقانة) ! . . ولكم أعجب الآن إذ أتذكر كيف كنت مشخوفة ، كل ذلك الشخف السخيف الحار ، بمثل هذه اللجة الصغيرة ، وكيف كنت أتوهمها حية وقادرة على الإحساس ! . كنت لا أقوى على النوم ما لم أطو عليها منامتى ، حتى إذا رقدت هكذا سالمة دافئة " شعرت بالسعادة ، اعتقاداً منى بأنها سعيدة بدورها !

وكانت الساعات تبدو طويلة ، وأنا أترقب رحيل المدعورين ، وأصفى إلى وقع أقدام بيسى على الدرج ، إذ كانت تصعد في بعض الاحيان لتبحث عن (كستبانها) أو مقصها ، أو ربما لتأتيق بشى الحشائي - كقطعة من الفعائر أو قرص من الجبن - ثم تبلس على الفراش إلى أن آكل ، فإذا انتهيت من ذلك ، لفتنى في غطائي ، وقبلتني مرتبن عالمة : « طابت ليلتك بامس جين ! ٥ . . وكانت بيسى تبدو لى أجمل وأرحم علموقة في العالم : حين تكون رقبقة بهذا الشكل ، فكنت أتوق إلى أن تظل هكذا دائماً : غاية في الظرف والإبناس ، فلا تنهرني أو يعنفي أو تكلفني بواجب شاق لا بتصوره عقل ، كما كانت تفعل في أحيان كثيرة ، وما أرى إلا أن (بيسي لى ) كانت - بلا شك - فتاة على جانب موفور من القدرة العقلية ، لأنها كانت تشن كل ما تعمله ، وكانت ذات مهارة ملحوظة في روافية القصص . أو هكذا حكمت عليها

(إليزا) و (يَجورجيانا) وهما تتخذان زينتهما ، ثم وهما تهبطـان إلى حجرة الاستقبال في ثياب حريرية تزينها أحزمة قرمزية اللون ، وقد بدا شعرهما في حلقات محكمة : كما كنت \_ فها بعد ذلك \_ أصغى إلى صوت البيانو أو القيئار يعزفان في الطابق الأسفل ، وإلى وقع أنسدام الساقى والخدم ، وإلى صلصلة الأكواب والأوانى الخزفية عند تنــاول المأكولات والمشروبات المرطبة ، وإلى همهمة الأصوات المتكسرة عندما تنفتح أبواب حجرة الجلوس لتغلق ثانية . حتى إذا تعبت من هذه المهمة ... مهمة التسمع .. عدت من رأس السلم إلى حجرة الأطفال المنعزلة الصامنة . وهناك ، ثم أكن أشعر ... برغم كأبة المكان ... بالتعس والشقاء ، لأنتي لم أكن في الحقيقة أحس أدنى رغبة في أن أنضم إلى تلك الجماعة ، إذ قلما كان أحد يفطن إلى وجودى في الجماعات . ولو أن (بيسي )كانت رقيقة ، رفيقة ، لوجدت لذة في أن أقضي معهــــا الأمسيات في هدوم ، بدلا من قضائها تحت عيني مسز ( ريد ) المخيفتين . وفي حجرة تزخر بالسيدات والسادة ! ولمكن بيسي كانت تهادر - يمجرد الفراغ من معاونة سيدتيها في ارتداء ملايسهما ــ فتهبط كعادتها إلى مواطن النشاط والمرح فى المطبخ وخجرة مدبرة شئون المنزل ، وهي تحمل معها شمعة . لذلك كنت أجلس ودميتي على ركبتي . إلى أن تخفت نيران المدفأة ، فآخـذ أتلفت حــولى من حين إلى آخر لأستوثق من أن لا شيء أسوأ مني يعمر الغرفة المليثة بالظلال 1.. حثى إذا أصبح لون الجمرات أحمر معتماً ، خلمت ملابسي على عجــل وأنا أشد كل أنشوطة وخيط كأفضل ما ينبغي ، ثم لذت بمهدى من

كترها الغالى . ومن ثم رضبت بأن تعهدبه إلى والمدتها ، وفرضت عليه (ربحًاً) فاحشاً بلغ حوالى الخمسين أو السنين فى المائة ، كانت تتفاضاه كل ثلاثة أشهر ، وتقيد حساباتها فى دفتر صغير بكل دقة بالفة !

أما ﴿ جُورِ جِيانًا ﴾ فكانت في ذلك الصباح تجلس على منعد عال ، تصفف شعرها أمام المرآة ، وتزين خصلاته بزهور صناعية وبعض ريش الطيور الذي كانت تجده بوفرة في أحد الأدراج بالطابق العلوي . وأما أنا فكنت أسوى فراشي امتثالا لأوامر (بيسي ) المشددة بأن أرتبه قبل عودتها .. فقد أصبحت تستخدمني كليرًا كساعدة للخادم خجرة الأطفال ، لتنظيف الغرفة وإزالة الغبار عن مقاعدها.. إلخ . فلما فرغت من فرش اللحاف ، وطويت منامتي ، مضيت إلى قاعدة النافذة لأرتب ما تنائر عليها من كتب مصورة وأثاث منزل اللمية . ولكن ( جورجيانا) فاجأتني آمرة بأن أثرك أدوات لعبها : إذ كانت تملك كل المقاعد والمرايا والصحاف والأكواب الصغيرة . ومن ثم توقفت عن مهمتي . ولكى أشغل نفسي بعمل آخر ، أخذتأشم زهور الشتاء التي كانت تزين التأفذة . مفسحة بذلك فراغاً أمام زجاج النافذة أرى خلاله الأراضي الخارجية : حيث كان كل شيء هادئاً ، جامداً ، بفعل الصفيع القاسي .

وكانت هذه الثاقذة تطل على مسكن البواب وطريق العربات : وما أن أذبت الكثير من القناع الفضى اللون (الصقيع) - الذي كان يغطى ألواح الزجاج – لكى أطل على الملاحل الخارجي : على شاهدت البوابة تفتح على مصراعيها ، ورأيت غربة تشطع والملائدة في طويق من تأثرى بالقصص التي كانت تحكيها في غرقة الأطفال ! .. وكانت كذلك جميلة إذا صح ما أذكره عن وجهها وشخصها ، لأنني أتذكرها شابة ناحلة الخصر ، سوداء الشعر والعينين ، ذات ملامح جميلة ، ويشرة صافية لطيفة ، ولكنها كانت سريعة الانفعال ، لا تكثرت لمبدأ أوعدالة ، وبرغم ذلك ، فإنني كنت أفضلها على كل من عداها في قصر (جيتسهيد) !

#### 非 圖 圖

■ وحوالى الساعة الناسعة من الصباح الخامس عشر من فبراير ، نرُلت(بيسي) إلى الطابق الأرضى لتناول الإفطار ، ولم تكن ابنتا خال قد استدعيتا بعد للقاء أمهما ، فمضت ( إليزًا ) ترتدى قبعتها الصغيرة ومعطفها الثقيل ؛ استعداداً لللـهاب إلى الحديقة لإطعام دجاجها .. وهو عمل كان حبيباً إلى نفسها ۽ ولم تكن أقل غراماً به منها ببيع البيض لمديرة المنزل ، وتوفير ما تحصل عليه من نقود من وراه ذلك ! .. فقد كانت تميل للنجارة ، وبها نزعة ملحوظة للادخار، لا تظهر في بيع البيض والفراريج فحسب ، وإنما تتجلي كذلك في عقد المساومات القاسية مع البستاني بشأن جذور الأزهار والبذور والشتلات . إذ كانت لدى هذا العامل أو امر من مسر (ريد) بأن يشترى من سيدته الصغيرة كل ما ترغب في بيعه من منتجات حديقتها .. يل إن ( إليزا ) لم تكن لتتردد في بيع شعر وأسها إذا وجدت في ذلك ربحًا طيبًا 1 . . أما نقو دها ، فقد كانت تخفيها في أول الأمر في أركان غير مطروقة بالمترل ، بعد أن تلفها في خرقة أو في ورقة قديمة محواة . غير أن الخادم ما لبثت أن اكتشفت بعض هـذه المحَانُ ، فخشيت ( إليزًا ) أن تفقد ذات يوم المربات. وأخذت أرقبها في غير اكتراث .. إذ أن كثيراً من العربات كانت تفد إلى القصر دون أن تأتى واحدة منها يزوار يهمونني في شيء ! .. ووقفت العربة أمام مدخل البيت ، ثم دوى جرس الباب عالباً ، وأدخل الزائر . وإذ لم يكن في كل ذلك ما يعنيني مطلقاً ، فإن انتباهي سرعان ما وجد حركة شغلته ، وتمثلت في هزار صغير جائع ، قدم يشقشق فوق غصول شجرة الكرز غير مورقة ، سمرت إلى الجدار ، على مقربة من الإفريز . وكانت بقابا إفطارى من الخبز واللبن ما زالت على المائدة ، فقتت جزءاً من رغبف .. وفياكنت أحاول فتح النافذة خضع الفتات على إفريزها الخارجي ، صعدت (بيسي ) مسرعة إلى غرقة الأطفال لتهبب في: « اخامي مرولتك يا مس جين ، ماذا تعملين غرفة الأطفال لتبيب في : « اخامي مرولتك يا مس جين ، ماذا تعملين هذا الصباح ؟ »

فنددت إطار الناقذة مرة أخرى ، قبل أن أجيب ، لأننى كنت راخبة فى أن أومن الطائر على خبزه . واستسلم الإطار، فانفتحت النافذة، ونثرت الفتات على إفريزها ، كما نثرت بعضه على أحد غصون شجرة الكرز ، ثم أغلقت النافذة وأجبت : «كالا با بيسى . . إنما فرغت لترى من النغيض » .

 يالك من فتاة منعبة مهملة إ.. وماذا تعملين الآن؟.. إن وجهك يتضرج بالدماء ، كما لو كنت منهمكة فى ارتكاب نوع من الأذى ؟ لماذا كنت تفتحين النافذة ؟

ولكنها وفرت على عناء الرد ، إذ كانت فى عجلة شديدة من أمرها ، مما منعها من الإصغاء إلى أي شرح . وجذبتني إلى حوض



ورأيت عربة تدخل وتدلف في طريق العربات ، وأخذت أرقيها

المعتاد بجانب المدفأة ، فأشارت لى أن أقترب , وإذ فعلت قدمتنى إلى الغريب الشبيه بالتخال ، قائلة : ، هذه هى البغت الصغيرة التى كتبت إليك بشأنها ، ث

وحوّل الرجل - إذ كان رجالا ! ــ وأسه ببطء نحو المكان الذي وقفت فيه : وبعد أن تفحصني بعينين سوداوين ، فضوليتين ، تلتمعان نحت حاجبين كثين ، قال بصوت رزين خافت : ١ إن حجمها ضئيل ، قما عمرها ؟ ٥ . . فقالت : ١ عشر سنوات ١ .

ورفعت نظرى إليه وأنا أجيبه ، فبدا لى سيداً فارها ، إذ كنت وقتذاك صغيرة جداً . وكانت ملامحه ضخمة « تنم – ككل هيئنه على السواء – عن فظاظة ووقار متكلف . وعاد يقول: «حسناً با جين إير . . وهل أنت طفلة طيبة ؟ ه .

وكان من المستحيل أن أرد على ذلك بالإيجاب ، لأن عالمي الصغير كان يرى في رأيًا مخالفاً : ومن ثم أخلدت إلى الصمت ، وتولت عني مستر (ريد) الرد بهزة مغيرة من رأسها ، ثم استرسلت على الفور قائلة : « ربحا يحسن الإقلال من الحكلام في هذا الموضوع يامستر يوكلهيرست ! ٤ . فقال : ه يؤسفني حمّاً أن أسمع ذلك ، إذ لابد لها ولى من أن نتحدث معاً قليلا ٤ . وتشحى من وقفته المنتصبة . ثم جلس على المقعد ذي المسندين المقابل لمسز (ريد ) ه وقال من العالمة هنا اله ٤

الاغتسال حيث انهمكت في تدليك وجهى ويدى تدليكاً قاساً بالماء وللصابون وفوطة خشنة . ولكن هذا التدليك كان قصير الأمد لحسن الحظ ۾ وصففت بيسي شعري بفرشاة خشنة ، وخلعت عني مرولتي ، تِّم أسرعت بي إلى قمة الدرج ، فأمر تني أن أهبط مباشرة إلى حيث كانوا يريدونني بغرفة الإفطار . ووددت أن أسألها عمن يريدني ، وعما إذا كانت مسز (ريد) هنالك . ولكن بيسى كانت قد ذهبت وأغلقت خلني باب حجرة الأطفال ، فتوقفت مخلوعة القلب ، أرتعد . لشد مَا كُنْتُ إِذْ ذَاكَ طَفَلَةً بَائْسَةً جَيَانَةً ، بِتَأْثَيْرِ الخَوْفِ المُنْبِعِثُ مِن العَقْوِياتِ الظالمة الجائرة ! .. لقد خفت أن أعود إلى حجرة الأطفال . كما خفت أن أتقدم إلى حجرة الاستقبال . وظللت عشر دقائق واقفة في تردد والفعال ۽ حتى حزم رأتي رنين جرس دوى في غرفة الإقطار في قوة وعنف يهيب بي أن أدخل .. وتساءلت وأنا أدير بكلتا يدي مثمبض الباب الجامد ، الذي قاوم جهودي لحظة أو اثنتين : ء من ذا الذي پريدني ؟ ومن عساي أري في الحجرة غير الخالة (ربد) ؟ .. رجلا أو امرأة ؟ ٤ .

### 静 操 前

■ ودار مقبض الباب فانفتح الباب . و دخلت ، ثم انحنيت في أدب، ورفعت نظرى إلى عمود أسود ! . . أو هكذا على الأقل بدا لى لأول وهذه ذلك الشبح الفاتم الناحل ، في ردائه الأسود ، وقد وقت منتصب الفامة على البساط ! . . وكان يعلو هامته وجه متجهم يشبه قناعاً منحوتاً ، مصوباً على أحد الأعمدة كأنه تاج ! . . وكانت مسز ربد تشغل مقعدها

تكون هذه الزفرة من التلب وأن تكونى قد ثامت على أن كنت السبب في مضايقة ولية تعمثك العظيمة 1 ء ;

فقلت فى نفسى : « ولية نعمى ؛ ولية نعمى ! .. إنهم جميعاً يدعون مسز (ريد) ولية نعملى .. وإذا كان الأمر كذلك ، فلابد أن ولية النعمة شيء بغيض ! » .

واسترسل مستجوبي يقول: ﴿ أَتَصَلَّيْنَ فِي الْمُسَاءُ وَالْصَبَّاحِ ؟ ١ .

نعم یاسیدی!

وهل تقرئين الإنجيل ؟

\_ أحاناً !

بغبطة وسرور ؟ .. هل أنت مشغوفة به ؟

أنتى أحب سفر الرؤيا ، وكتاب دانيال ، وسفر التكوين ،
 وصمويل ، وقسطاً بسيطاً من سفر الخروج ، وبعض أجزاء من سفر الملوك ، وأخبار الأيام ، وقصتى أيوب وبونان !

والمرامير ؟ أرجو أن تحبيها كذلك !

ــ کلا یا سیدی .

- كلا؟ أوه .. أمر مؤلم ! إن لى ولداً صغيراً - أصغر منك - يخفظ ستة مزامير عن ظهر قلب ، وإذا سألته هل يفضل أن بأكل قطعة من كمك الزنجبيل بالبندق ، أو أن يحفظ بيئاً من المزامير ، لقال : وأوه ! بيناً من المزامير ، لأن الملائكة تترنم وتسبح بها ! ، .. وهو يقول : ، أتحنى أن أكون أحد الملائكة الصغار هنا على الأرض » .. وعدادند يظفر بكمكين مكافأة له على تأم المناسفات هنا على الأرض » ..

وتقدمت عبر السجادة ، فأوقفنى وجهاً لوجه أمامه .. ويا للرجه الذى أوتيه ! .. لقد كان إذ ذاك فى مستوى نظرى .. فيا لأنفه الضخم . ويا لفمه ! .. ويا لأسنانه الكبيرة البارزة ! .. وأردف يقول : « لا شى " أدعى للحزن من منظر طفل شقى .. لاسها إذا كان بنناً صغيرة شقية ! .. أتمر فين أين يذهب الأشقياء بعد الموت ؟ = ،

فكان جوابي السريع ، الصحيح : ﴿ إِنَّهُمْ يَدْهُونَ إِلَى الْجَحْمُ ١٠٠

وما هو الجحيم ؟ .. هل فى وسعك إخبار ى ؟

ــ حفرة مليثة بالتار !

وهل تحبين السقوط في تلك الحفرة والاحتراق منالك إلى الأبد؟!

\_ كلا ياسيدي !

ــ وماذا يجدر أن تفعليه لتتني ذلك ؟

ففكرت لحظة . وعندما أسعفني الرد ، لم يكن مقبولا إذ قلت : ه يجب أن أحافظ على صنى حتى لا أموت لـ » .

.. وكيف تحافظين على صحتك ؟.. إن أطقالا يصغرونك فى السن يموتون فى كل يوم ، ولقد دفنت أنا طفلا فى الخامسة من عمره منذ يوم أو اثنين .. طفلا صغيراً لطيقاً ، صعدت روحه إلى السهاء ، وأخشى ألا نستطيع قول ذلك عنك إذا أنت مت !

ولم أكن فى حالة تمكننى من تبليد شكه هذا ، فاكتفيت بأن أرخيت نظرى نحو قدميه الضخمتين المزروعتين فى السجادة ، ثم تنهدت متلهفة على أن أكون بعيدة عن هذا المكان , وقال : ٥ أرجو أن

esse de leanabean

جسسے ایسر

- ۷۸

قلت : « إن المرامير ليست مشوقة ! » .

 هذا يؤكد أن لك قلباً شريراً ، وأنك يجب أن تدعى الله أن يغير لك قلبك هذا ، ويمنحك قلبًا جديدًا نظيفًا .. أي أن ينتزع منك قابًا من حجر ، ويمتحك قلباً من لحم !

وهممت بأن أطرح مؤالا عن كيفية إجراء عملية تغيير قلبي ، لولا أن تدخلت مسز (ريد) في الحديث ، فسألتني أن أجلس ، ثم تولت زمام الحديث بنفسها قائلة : ٥ أُظنني يامستر ( بروكلهيرست ) قد أشرت في خطابي إليك ــ منذ ثلاثة أسابيع ــ إلى أن هذه البنت الصغيرة ليست كما أود من حيث الخلق والميول، فإذا أنت قبلتها ق مدرسة (لوود) ، فإنه ليسرقي أن تطلب إلى المشرفة والمعلمات أن يشددن الرقابة عليها ، وأن يدرأن عنها \_ قبل كل شيء \_ أسوأ عبويها، وهو الميل إلى الغش والخداع 1 .. وأنا أقول ذلك على مسمع منك يا (جين) ، حتى لا تحاولي غش مستر بروكلهيرست ! يا .

لا عجب إذن في أن أخشى وأن أكره مسز (ريد) ! فقد جِبلت بطبيعتما على أن تجرحني بقسوة . بل إنني لم أذق السعادة قط في حضرتها ! . وقد كنت أحرص على طاعتها ، وأحاول جهدى أن أرضيها ، ومع ذلك كانت جهودي تمني بالفشل ، ولا ألثي عنها جزاء سوى أمثال العبارات السالفة الذكر 1.. والآن، وقد فاهت بذلك أمام رجل غريب فقد مزق الاثبام نياط قلى ، وأوحى إلى بأنها كانت تمحو الأمل المرجو من المرحلة الجديدة في حياتي .. المرحلة التي قضت علي هي بأن أنتقل إليها 1 .. وشعرت ــ وإن لم أقو على الإفصاح عن مشاعري –

بأنها تبذر في طريق مستقبلي بذور الكراهية والقسوة . ثم رأيت تفسى وقد انقلبت في نظر مستر ( بروكليبرست) إلى طفلة مخادعة ، مؤذية، فماذا كان في وسعى أن أعمله لعلاج هذا الإنساد ، ودفع هذا الأذى ؟ ... و لا شيء ! ٨ .. وجاهدت لكي أكظم شهقة باكية ، ثم كفكفت في الحال بعض العبرات التي كانت أدلة قوية قاطعة على آلامي !

وقال مستر بروكلهيرست: ﴿ إِنَّ الْمُكُو لِـ فِي الْحَقِّيقَةُ لِـ عَيْبٍ مُحْزُنَّ في الطفل ، وهو والزور والبهنان سواء ! وسبلتي كل الكدابين عقابهم فى البحيرة التي تتقد بالنار والكبريت !.. وعلى أية حال ، سوف نحكم عليها الرقاية يامسز ريد ، وسأتحدث في ذلك مع مس تمبل والمعلمات ٥ .

وعادت ولية نعمتي تقول : ﴿ أُرِيدُ أَنْ تَنْشَأَ تَنْشَتُهُ تَنْفَقَ مَعَ مَا يُرْجَعِي لها من آمال ، لتغلمو نافعة ، ولتحافظ على التواضع . أما عن الأجازات فسوف تقضيها \_ إذا سمحتم \_ في المدرسة على الدوام 1 ه .. فأجابها مستر (بروكلهيرست) : ٥ إن قراراتك غاية في الحكمة ياسيدتي ، فإن النواضع من نع المسيح وشمائله . وهو من أليق الفضائل وأنسبها لتلميذات ( لوود) . وثذلك فأنا آمر بتوجيه عناية خاصة إلى غرس هذه الفضيلة ش التلميذات . ولقد درست خير الوسائل التي تقتل فيهن غرور الحياة ، وروح الكبرياء . وتجمعت لدى الأدلة على مبلغ نجاحي فى ذلك . إذ ذهبت ابنتي الثانية (أوجستا) مع والدثما لزيارة المدرسة، وعند عودتها هنفت قائلة : ٥ أواه يا أبي العزيز ، كم تبدو جميع الفتيات في (لوود) هادئات بسيطمات ، بشعرهن الممثط خلف آذانهن ، ومراولهن الطويلة ، وتلك الأكياس الصغيرة الهولندية فوق صدورهن ا ( تمبل ) أبلغها نبأ قدوم فتاة جديدة لبتسنى استقبالها : أستودعك الله 1 ـ رافقتك السلامة يامستر بروكلهبرست ، وأبلغ تحياتى إلى مسز ومس (بروكلهبرست) ، وإلى (أوجستا) و(تيودور) والسيد ( بروتون بروكلهبرست ) .

- شكراً يأسيدتى .. وأنت أيتها الطفلة الصغيرة . ها هو ذاكتاب عنوانه (مرشد الطفل) ، قاقر ثيه مع صلواتك ، لاسيا الجزء الخاص بالموفاة المباغتة ، الأبحة ، التي كانت من نصيب (مارتا ج . ) .. وهي طفلة شقية انقست في المهتان والحداع !

وفيها كان ينطق بتلك الكلمات ، وضع في بدى كراسة نحيفة مخاطة فى غلاف ، ثم دق الجرس لأستدعاء عربته ، ورحل ليتركني ومسز (ريد) على انفراد .

### 图 排 常

■ وانقضت بضع دقائق في صحت وسكون: هي تعمل بإبرتها ، وأنا أوقها . ولعلها كانت في ذلك الوقت قد بلغت السادسة أو السابعة وللاثين من عمرها . وكانت امرأة قوية البنية ، معدلة الكنفين ، مدينة الأطراف ، غير فارعة الطول ، وإن كانت ممنائة في غير بدانة ، وكان لحا وجه ضخم ، أما فكها الأسفل فكان شديد البروز والصلابة ، في حين كان جبيها عريضاً ، وذقنها كبيرة وبارزة ، كما كان لها فم وأنف عاديان . وتحت حاجبيها الخفيفين ، كانت تأتلق عينان في غير رأقة أو حنان . وكان جلدها قائمً محتماً ، وشعرها كتانياً ، وجسمها في قوة الجرس ، إذ أن المرض لم يكن يقترب منها على الإطلاق ! ثن وكانت قوة الجرس ، إذ أن المرض لم يكن يقترب منها على الإطلاق ! ثن وكانت

إنهن أشبه ببنات الفقراء ، فقد أخذن يتطلعن إلى ثوبى وثوب والدتى ، وكانهن لم يشاهدن فى حياتهن رداء حريرياً من قبل ، !

فقالت مسز ريد: x هذه هي الأمور التي تروق لي تماماً. ولو أنني نقبت في جميع أنحاء انجلترا ، لما وجدت نظاماً خيراً من هذا مواءمة لطفلة مثل جين إبرا.. الشدة يامستر بروكلهيرست العزيز .. إنني أوصى بالشدة في كل شيء ! r :

— إن الشدة ياسيدتى أول واجبات الرجل المتدين = وهي تراعى فى كل نظام أو إجراء يتعلق بمدرسة (لموود) = فالمصروفات معتدلة ، والأزياء بسيطة = ووسائل الراحة عادية فى غير مبالغة ، والطباع تتسم بالصلابة والنشاط : هذا هو النظام اليوى فى المدرسة وبين ساكناتها ! — حسن جداً ياسيدى : فى وسعى إذن أن أطمئن إلى قبول هذه العظملة تلميذة فى (لموود) ، وإلى أنها سوف تتعلم مايتسق مع مركزها وما يرجى لها !

 لك ذلك ياسيدتى ، فسوف ندخلها فى فصل الحضانة الخاص بالمختارات من الصغيرات .. وهذه ميزة لا تقدر ، وأرجو أن تقابلها الطفلة بالشكر والامتنان !

- إذن سأرسلها لك بأسرع ما أستطيع بالمستر بروكلهبرست ا إذ أؤكد لك أننى أتلهف على التخلص من تبعة أصبحت شاقة متعبة ! - بلا شك باسيدتى .. بلا شك . والآن طاب صباحك . سوف

أعود إلى قصر بهروكلهيرست فى مدى أسبوع أو اثنين ، لأن صديقى الطيب (الأرشيدوق) لن يدعنى أثركه قبلذلك . . وسأرسل إلى مس

بأتنى لا أحبك ، وأثنى أكرهك ، أكثر ثما أكره أى إنسان في العالم عدا جون ريد .. وهذا الكتاب عن (الكاذبة ) يحسن أن تعطيه لفناتك (جورجيانا) ، لأنها هي – ولست أنا – التي تروى الأكاذيب!

وظائت بدا مسز (ريد) ساكتين\لاتعملان - في التطريز - كما ظلت عيناها كالثلج ، تنظران إلى عيني في برود ، ثم سألتني بلهجة من يخاطب خصماً في سنه ، لا باللهجة التي يخاطب بها الطفل عادة : ﴿ وَمَاذَا تبقى لديك من أقوال ؟ ٤ . . وأثارت نظرتها وصوتها كل كراهية لها في نفسى ، فاسترسلت أقول وأنا أهتز من مفرق إلى أخمص قدمى ، وقد استولى على هياج لا أقوى على كبح جماحه :

... يسعدني ألا رابطة من القرابة بيني وبينك ، ولن أدعوك خالتي مرة أخرى ما حييت ، ولن أجيء لزيارتك عندما أكبر . وإذا سألني سائل كيف كنت أشعر نحوك ، وكيف كنت تعامليني ، فسأخبره بأن مجرد التفكير فيك يسقمني ، وأنك عاملتني بقسوة دنيثة ا وكيف تجرؤين على تأكيد ذلك يا جبن إير ؟!

\_ كيف أجرؤ يا مسز (ريد) ؟ . كيف أجرؤ؟.. لأنه الحق ا إنك تنصبينني بلا مشاعر أو إحساسات، وتحسبين أنني أقوى على العيش دون بصيص من الحب والحنان ، ولكنني لا أستطيع الحياة هكذا ، وأنت لاشفقة ولا رحمة في قلبك . وسأظل أذكر – ما حييت – كيف دفعتبي بفظاظة وعنف إلى الحجرة الحمراء، ثم أغلقت الباب بالمفتاح، بالرغم من أتني كنت أتألم ، وبالرغم من أنني كثت أصرخ وأنا أختنق بالضيق والأسى : ٥ ارحميني ! ارحميني بالخالبي ويد ! ٤ : وما جعسي

فى تدبير المنزل دقيقة ماهرة ، تسيطر على شئون منزلمًا وعلى مستأجرى المزرعة سيطرة نامة ۽ وإن كان أطفالها ــ وحدهم ــ هم الذين كانوا يتحدونها أحياناً ويسخرون من هذه السيطرة ! .. كما كانت تنخير ملابسها ، ولها من سياها وقوامها ما يتيح لها المنظر الأنيق!

أما أنا فكنت جالمة على مقعد خفيض ، على مسافة بضع ياردات من مقعدها الكبير ، أتأمل قوامها ، وأتصفح قسيات وجهها . بينا أمسكت في يدي الكراسة التي تحوى قصة موت ( الكاذبة ) المفاجئ ﴿ وهي القصة التي وجه نظري إليها كإنذار قبل فوات الأوان . وكان كل ها در بی منذ قلیل ، وما قالته مسر رید عنی لمستر بروکلهیرست ــ بل كل ما حواه حديثهما ــ ما يزال طازجاً يخز ذهني ! .. أجل ، شعرت بأن كل كلمة كانت ما تزال لاذعة، حادة ، كما سعنها من قبل .. وجاشت في أعماقي ثورة امتعاض ، ورفعت مسز ريد عينيها عن عملها . فاستقر تا على عيني ، بينها توقفت أصابعها عن حركاتها الرشيقة . وقالت : ه غادري الغرفة ، وعودي إلى حجرة الأطفال ! . . .

ولا شك في أن نظراني أو شيئاً آخر في قد ضابقها . لأنها كانت تتكلم في الفعال بالغ وإن حاولت كظمه جرَّ فنهضت ومضيت إلى الباب . ولكني عدت مرة أخرى ، واجتزت الغرفة إلى النَّافذة ، ثم اقتربت منها .. كان لابد من أن أتكلم ، فقد داستني بشدة ويَجب أن أرد لما الكيل .. ولكن كيف ؟ ٣٠ أي حول لي حتى أثأر من غريمتي ؟ ! .. على ألني ما لبثت أن استجمعت قواي في هذه الجملة الكليلة :

الني لست مخادعة ، وإلا لنّف لك إنني أحبك ، ولكني أصرح

 ولكنك مربعة الانفعال. ياجين .. يجب أن تعترف بذلك , والآن عيا ارجعي إلى حجرة الأطفال وارقدي بها قليلا باعزيزتي !

 لست عزيزتك ، ولست أقوى على الرقاد . ابعثى بي إلى المدرسة قوراً يامسز (ريد) ، لأنني أكره العيش هنا !

قفيغمت هامسة : • حقًّا يجب أن أعجل بإرسالها إلى المدرسة » .. ثم جمعت شغل الإبرة ، وغادرت الغرفة فجأة .

 ■ وبقیت وحدی هنانث .. وقد ربحت المعركة !. كانت أعنف معركة خضتها ، وهذا أول نصر ظفرت به، نوقفت لحظة على السجادة ـ حيث كان مستر ( بروكلهيرست ) واقفأ من قبـل ... لأنعم بخلوة المنتصر د. وابتسمت لنفسي ، وشعرت بالزهو والفرح في أول الأمر. ولكن هذا السرور الوحشي مالبث أن تبدد ، كما خفتت دقات قلبي المتسارعة : فإن الطفل لا يستطيع أن ينازل من يكبر و نه سناً حكما فعلت --ولا يستطيع أن يترك الزمام لمشاعره الصاخبة، كما تركت زمام مشاعري : دون أن يشعر فيما بعد بوخز الندم ، ورعشة رد الفعل !.. ولقد كانت نفسي – عندما اتهمت مسر رباد وتوعدتها - أشبه ببركان يفيض وهجأ وحيوية ، وتلميراً ، ثم ما لبثت ، بعد قليل ، أن غدت أشبه بهذا للبركان ذاته ، وقد أصبح أسود هامداً ، بعد أن خمدت نير انه ولهبه . . فإن انقضاء تصف ساعة في سكون وتفكير ، أظهرني على جنون مسلكي ، وعلى بشاعة موقفي للزرى البغيض 🗓

لقد ذقت شيئاً من الانتقام لأول أُرقِي فيا إلى عند تجرُّعه أَسْبِه

أقاسى ذلك العبذاب إلا لأن وللك الشرير ضربني وصرعني لغمير ما سبب 1 هُ: سوف أخبر كل إنسان يسألني بهذه القصة نفسها ، لأن الناس يحسبونك امرأة طيبة ، ولكنك شريرة جامدة القلب .. إنك مفادعة غشاشة !!

وقبل أن أفرغ من هذا الرد ، كانت روحي قد بدأت ترفرف منتشية بأغرب شعور خامرتى بالحرية والنصر ء وكأنما تحطير تبد غير مرئى ، فالطلقت نحو حرية لم أكن قوية الأمل فيها !.. وما كان هذا الإحساس دون ما سبب، فقد تجلي الذعر على مسرّ ريد ، وسقط شغل الإبرة من فوق ركبتيها، ورفعت يديها ثم راحت تلتفض، وهي تنرنح يمنة ويسرة .. بل إن أسارير وجهها أخذت تتلوى، وكأنها توشك على اللِّكَاء وهي تقول : ﴿ إِنْكَ يَا جَيْنَ مُخْطَئَةً ، مَاذًا بِكُ ؟ . . لَمَاذَا تَرْتَعَامِينَ هكذا بشدة ؟ . هل لك أن تشربي بعض الماء ؟ . .

کلایا مسز(رید):

 أثريدين شيئاً آخر يا جين ؟.. ثنى من أننى أرغب في أن أكون صديقة لك 1

 إنك لاتريدين شيئاً من هذا .. لقد أخيرت مستر يروكنهيرست بأن سلوكي سيء ، وأنني مخادعة بطبعي ، وسوف أخبركل من في (لوود) بحقيقتك ، وبما فعلته !

-- أنت باجين لاتلىركين هذه الأشياء .. يجب أن يصلح كل عيب في الأطفال [

قصر بحث بصوت وحشى مرتفع : 1 ليس الخداع من عيوبي ! 1 .

الأشيب ، دون أن يذوب، فوقفت كطفلة غاية في التعس والشقاء ، لأهمس إلى نفسي بين حين وآخر : ، ماذا أعمل ؟ . . ماذا أعمل ؟ » .

وفجأة ، سمعت صوتاً واضحاً يناديني : « يا آنسة جين .. أين أنت ؟.. تعالى لتتناولي غداءك ! ٨ .. وأدركت تماماً أن بيسي هي صاحبة الصوت ، ولكنني لم أخرك ، فما لبث وقع قدميها الخفيف أن اقترب في وشاقة ثم قالت: « أيها الشقية الصغيرة .. لماذا لا تأتين عندما ينادونك؟ ». وفي غمرة الأفكار التي كنت أهم فيها ، لاح لى أن وجود بيسي يبعث السرور والاغتباط ، على الرغم من عبوسها المعتاد . والواقع أنني بعد مشاحتي مع مسرّ ربد وانتصاري عليها ، لم أعد أحفل كثيراً بغضب المربية أو رضاها . غير أتني نقت إلى أن أنجم بنفة روحها الشابة ، فطوقتها بلواعي الاثنتين ، وقلت : « تعالى يابيسي ! لا تلتهري ولا تزجري ! ٣٠ وكان تصرفي هذا أكثر ضراحة وأقل خوفاً وجبناً عما عهدتني ، ولكنه أرضاها إلى حد ما ، فقالت وهي نتأماني : ه يالك من طفلة عجيبة يا جين ! .. يالك من مخلوقة صغيرة هائمة في العزلة ! .. أظنك ستذهبين إلى المدرسة ؟ ٩ تَـز فأومأت برأسي ﴿ وَعَادَتَ تَقُولُ ﴿

ــ وهلا تأسقين لترك ( بيسي ) المسكينة ؟

وماذا يهم بيسي من أ رى ، وهى لا تني تعنفني وتنهرني ؟
 لانك مخلوقة صغيرة غاية في الغرابة . شديدة الذعر والحياء .;

يجب أن تكونى أكثر جرأة وإقداماً !

ماذا ! لكى أضرب أكثر من هذا ؟

حراء 1. ولكنك بلا ريب تتكلفين من أمرك عسراً : ولقه

بخمر معطرة ، منعشة ، منشطة ، ثم ما لبث طعمها أن أصبح كطعم معلن أكله الصدأ ، مما جعلني أحس أنني تناولت سماً زعافاً . حتى لقد وددت أن أذهب إلى مسز ريد ، لأسألها - عن طيب خاطر - أن تسامحني وتغفر لى ، ولكنى كنت أعلم ــ سواء من تجاربي أو بغريزنى ــ أن ذلك المسلك سيحملها على طردي باحتقار بالغ ، ويذلك تثير كل لاعجة في نفسي من جديد . لذلك آثرت أن أتجنب الكلام القلوص ، وأن أبحث عما أذكى به شعورى الحبيث ، غير السخط والحنق ، ومن ثم تناولت كتاباً -- وكان يضم بعض قصص عربية - وجلست أحاول القراءة : ولكني لم أفهم دوضوعاً للكتاب ؛ لأن أفكاري كانت تسبح بيني وبين الصفحة التي كنت أجدها - في الأوقات العادية - شائقة للبيذة . وفتحت الباب الزجاجي المفضى من حجرة الإفطار إلى الحديقة ، فإذا بها ساكنة صامتة ، وقد كسا أرضها صقيع حالث ، لم تفلح في إذايته شمس أو رياح فغطیت رأسی وذراعی بطرف معطنی ، ثم خرجت لأتمشی فی ناحیة من المزارع تكاد تكون منعزلة كل الانعزال ، ولكني لم أجد أية يهجة في الغصون الصامنة ، أو الكيران المتساقطة من أشجار الشربين، أو آثار الخريف المتجمدة ، أو الأوراق الحمراء التي اكتسحبها الأنواء ، فتجمعت أكواماً على الأرض وقد تيبست بفعل الجليد . واتكأت إلى إحملى البوابات ، ورحت أسرح النظر في حقل خاو، ليست فيه أغنام ترعى ، وقد لفحت الرباح حشائشه وصقلتها : كان يوماً جد حالك ، والسياء جمد معتمة ، والجليد يقطى كل شيء : وما لبث البرد أن أخذ يتساقط في فترات متقطعة ، ليتكدس على الأرض الجامدة ، والمرج A٩

ـــ إنك لا تظهرين لي ذلك !

يالك من صغيرة الازعة! لقد اتخدت النفسك طريقة جديدة تماماً
 في الكلام :: فما الذي أحالك جريئة جسورة بهذا الشكل ؟

\_ أُسوف أقارقكم عما قليل .. هذا فضلا عن ...

وهممت بأن أحدثها عن بعض ما وقع بينى وبين مسز ريد، ولكنى ترويث ، ورأيث أنه من الخبر أن أخلد إلى الصمت فيما يتعلق بهذا الموضوع : وعادت تقول :

ـــ أذن فأنت مغتبطة لتركى ؟

کلا ، مطلقاً .. بل إننى أشعر الآن بشيء من الأسف !
 الآن فقط .. وبشيء من الأسف!.. كم تنطن سيدتى الصغيرة بهذه الكلمات في برود وفتور .. بل إننى أجرؤ فأقول : لو طلبت منك أن تمنحينى قبلة ، فسوف ثرفضين وتفولين إنك تؤثرين ألا أقبلك!

ـ سوف أقبلك عن طيب خاطر .. أحنى رأسك .

فأحث بيسى وأسها ، وتبادلنا العناق . ثم تبعثها إلى المنزل وأنا مرتاحة للقلب ، واضية . وانقضى عصر ذلك اليوم في هدوء وانسجام . وفي المساه ، روت لى بيسى بعض قصصها الساحرة ، وغنت لى بعض أغنياتها الحلوة .

وهكذا لم تبخل الحياة ـــ على فناة مثلى ـــ ببعض ومضات من ضياء الشمس 1

roolog \*

قالت أمى بعد أن قدمت لزيارتى فى الأسبوع الماضى ، إنها لا تتمنى لأحد من أبنائها أن يكون فى موضعك .. والآن تعالى فإن لدى لك أنباء جديدة سارة 1

لا أظن لديك شيئاً من هذا يابيسي .

- بالك من طفلة 1. ماذا تعنين ۴ و لماذا تتطلعين إلى يعيين حزينتين ۴ .. إن السيدة وأبناءها سيخرجون بعد ظهر اليوم لتناول الشاى ، وسوف تتناولينه معى . وسأطلب إلى الطاهية أن تخبر لك كعكة صغيرة ، وبعد ذلك سوف تعاونيني في قحص أدراجك يجب أن أعد لك حقائبك في الحال ، لأن سيدتي تريد منك أن تعادري (جيتسهيد) بعد يوم أو اثنين . وسوف تختارين من اللعب ما ترغيين في أخذه معك 1

عدینی یا بیسی ألا تسلقینی بلسانك حتی أرحل !

-- حسناً، لك هذا !.. ولكن اذكرى جيداً أنك بنت طيبة جداً، ولا تعودى تخافيننى ، ولا ترتاعى إذا حدث أن كلمتك فى شىء من الحدة ، إذ أن ذلك يغضينى منك كثيراً !

لا أقلنني سأخشاك بعد اليوم يا بيسي ، لأنتي ألفتك ، ولن ألبث
 أن ألق نوعاً آخر من الناس ، أخافه وأخشاه !

إذا خشيت أمرهم فسوف يكرهونك .

کا تکرهیتی یابیسی ؟!!

انا لا أكر هك ما آنسة ، بل أنا واثقة من أنتى أحبك أكثر مما أحب الآخر بن جميعاً !

دائمًا خیر صدیقة لی ، ومن ثم فیجب أن أنحلت عنها بكل خیر ، وأن أبدى عرفانی لصنیعها .

وماذا قلت يا آنسة ؟

لاشيء .. غطيت وجهى بغطاء السرير، وأعرضت عنها مولية
 وجهى شطر الحائط !

... كان هذا التصرف خطأ منك يامس ( جين ) .

بل هو الصواب بعینه پابیسی، فما کانت سیدتك بصدیقة لی،
 بل إنها كانت عدوتی.

ــــ أواه، يامس (جين ) ! .. لا تقولي هذا !

فصحت وقد اجتزنا البهو ووصلنا إلى الباب الخارجي : « وداعا يا جيتسهيد ! ١ :

وكان القمر قبد غرب ، واشتد الظلام .. فحملت (بيسى) مصباحاً ، وقع ضوؤه على درجات مبتلة ، وطريق مكسوة بحصباء اخصلت بمياه جليد حديث اللوبان ، وكان الصباح الشتوى بارداً ، لاذع الزمهرير ، فأخذت أسناني تصطلك وأنا أسرع في الدرب الموصل إلى السياج الخارجي . ولاح نور في غرفة حارس الباب ، فلم بلغناها ، وجدنا زوجة البواب تشعل النار في مدفأتها . وكانت حقيبة ثبابي - التي نقلت إلى هناك في الليلة السائفة - جائمة لدى الباب ، ولم يكن قد بقى على الساعة السادسة سوى بضع دقائق . وبعد أن دقت الساعة بقلبل ابعث من بعيد ضجيع عجلات ، مؤذناً بمقدم العربة .. فسرت إلى الباب ، وأخذت أرقب مصباحها وهم ينتريان حيثاً خلاله الظلام،

## www.dvd4arerb.ace

# الفصل الخامس

■ لم تكد الساعة تدق الخامسة من صباح الناسع عشر من شهر يناير ، حتى أقبلت (بيسي ) إلى حجرتي الضيقة ، وهي تحسل شمعة ، فوجدتني قد فرغت من ارتداء ثيابي تفريباً ، إذ كنت قد استيقظت قبل مقلعها بنصف ساعة ، فغسلت وجهى ، وارتديت ملابسي على ضوء التمر الجانح إلى الغروب ، والذي كان شعاعه ينساب خلال النافذة الضيقة القريبة من سريري .. وكان مقرراً أن أيرح ( جيتسهيد) في ذلك اليوم . في العربة التي كانت تمر أمام الدار في الساعة السادمة صباحاً : وكانت (بيسي) هي الشخص الوحيد الذي استيقظ إذ ذاك ، فأشعلت النار في مدفأة غرفة الأطفال ، حيث شرعت في إعداد فطور لي . وقليل من الأطفال هم الذين يستطيعون أن يأكلوا وهم تحت وطأة الانفعال الذي يبعثه التفكير في رحلة ما . . وكذلك لم أستطع أنا . وعبثاً حاولت (بيسي) إن تعملني على أن أتناول بضع ملاعق من اللبن المغلى والخبز اللذين أعلمهما لى : فلفت بعض ( البسكويت ) في ورقة دستها في حقيلتي . ثم أعانتني على ارتداء معظني وقلنسوتي ، وبعد أن تدرُّت حي بشال ۽ غادرت معي غرفة الأطفال .. فلما مرونا بمحدع مسز ( ريد ) ، قالت : « هلا دخلت فودعت السيدة ؛ » .

لا يا بيسى، فقد جاءت إلى سريرى ليلة أمس، عندها هبطت أنت لتناول العشاء ، وقالت إنه لا داعى لأن أزعجها فى الصباح ، أو أن أزعج أبناء خالى . ثم أضافت أننى يجب أن أذكر أنها كانت

الغداء .. وحملت أنا إلى فندق صغير ، حيث شجعني الحارس على أن أنناول بعض الطعام = فلما أبيت لأنني لم أكن أشعر برغبة في الأكل ، تركني في غرفة رحية ، في كل من طرفيها مدفأة ، وقد تدلت من سقفها ثرياً ، وثبت إلى جدارها – على ارتفاع – صوان أحمر حافل بالآلات الموسيقية . ورحت أطوف بالمكان فنرة طويلة ، وأنا أشعر بوحشة ضافية . وبهاجس مستبد أوحى إلى بأن ثمة من كان يوشك أن يأتى فيختطفني . إذ كنت أؤمن بوجود المختطفين ، لأن مغامراتهم كثيراً ما تحللت القصص التي كانت ( بيسي ) ترويها إلى جوار المدفأة.. وعاد الحارس أخيراً، فإذا ني أرفع مرة أخرى إلى العربة. وصعد (حارسي) إلى مفعده ، فنفخ في بوقه المدوى ، وانطلقت العربة تدرج على الطويق المرصوفة بالأحجار ، مغادرة مدينة (ل ...) .

وأقبل الأصيل مشبعًا بالرطوبة ، يشيم فيه شيء من الضباب ، حتى إذا اقترب الغسق، بدأت أحس بأننا أصبحنا حقاً على بعد كبير من (جيتسهيد) ولم نعد نمر بمدن ما . وتغير الإقليم ، فبرزت عند الأفق تلال سمراء .. فلما اشتد الغسق ، هبطنا وادياً معتماً ، من تأثير غابة انتشرت فيه . وظللت فترة طويلة أسمع الرياح الهوجاء تندفع خلال الأشجار ، بعد أن حجب الظلام الرؤية عن الأبصار .. وما لبث الحفيف الرتيب أن أسلمني في النهاية إلى النعاس .

على أنه لم يمض طويل وقت على نومى ، حتى أيقظني وقوف العربة فجأة . وفتح الباب فإذا امرأة تقف للبدر علمالهماء الخدم . ورأيت وتساءلت زوجة البواب : « أراحلة هي وحدها ؟ » : فأجابت بيسي : الأجل ه .

- وما طول المساقة التي ستقطعها ؟
  - خسون ميبلا .
- ــ يالها من مسافة طويلة ! ألا تخشى سنز ريد من أن تدعها تقطع ` مثل هذه المماقة وحدها ؟

ووقفت العمرية لمدى الأبواب الخمارجية ، نجيمادها الأربعة ، وسطحها المحمل بالركاب. وصاح الحارس والحوذي يستحثاننا بصوت عال ، فنقلت حقيبتي بسرعة ، ثم انتزعت من أحضان (بيسي ) التي كنت قد تعلقت بعنقها ورحت أقبلها .. وصاحت هي في الحارس ، وهي ترفعني إلى جوف العربة : ﴿ اعْتَنْ بَهَا وَارْعَهَا جَيْدًا ۗ هِ .. وَكَانَ الجواب : « أجل ، أجل ! » ، ثم أغلق الباب ، وصاح صوت : ه هل كل شيء على ما يرام ؟ ه ، وانطلقت بنا العربة !

وهكذا الهترقت عن ( بيسي ) وعن ( جيتسهيد ) .. وهكذا طوَّح بي القمادر إلى المجهول ، وإلى ما خلته ــ إذ ذاك ــ المناطق النائيـة .: الغامضة ا

 ولحث أذكر عن الرحلة إلا القليل . كل ما أدريه هو أن البوم لاح لی طویلا ، طولا غیر طبیعی ، وأننا ــ فیما بداـــ کنا نطوی مثات الأميال ، إذ مررنا بعدة مدن ، وقفت العربة في إحداهما ، وكاتت. مدينة جد كبيرة ، ففكت الخيل عن العربة ، وعبط الركاب ليتناولوا

وجهها وثوبها على ضوء المصباحين ، بينها تساءلت هي : • هل توجد هنا صبية تدعى جين إبر؟ ١ . فأجبتها : «أجل». وسرعان ما حملت إلى خارج العربة ، وأنزلوا حقيبتي ، ثم انطلقت العربة لتوِّها . وكانت أطراني قد تبيست لطول الجلوس، كما أن ضجة العربة وحركتها شتنتا حواسي ، فرحت أستجمعها. وتلفت حولي، فإذا المطر ،والريح، والظلمة تملأ الجو .. ولكني تبيئت ــ مع ذلك ــ جداراً أماى غير واضح المعالم ، وباباً مفتوحاً فيه . وخلال هذا الباب مررت مع مرشدتي الجديدة ، التي أغلقته وأحكمت رتاجه .. وتجلي لي إذ ذاك بيت . أو بيوت ــ إذ كان المبنى ممئداً لمسافة طويلة ــ ونوافذ كثيرة ، يتألق الضوء في بعضها . وسرنا في درب مرصوف بحصباء ، كانت مياه المطر ما تزال تجرى عليها . ثم فتح لنا باب ولجناه ، وإذ ذاك قادتني الخادم في ردهة إلى حجرة تتلظى النار في مدفأتها ، وهناك خلفتني وحيدة . . فوقفت أدفىء -- على وهج النار -- أصابعي التي جمدها البرد ، ثم تلفت حولى فلم أر شمعة موقدة ، ومع ذلك فقد كان الضوء غير المستقر ، المنبعث من المدفأة ، يكشف على النناوب عن جدر ان مكسوة بالورق ، وطنافس ، وستائر ، وقطع أثاث من خشب ( المهوجاني ) اللامع . كانت الحجرة حجرة استقبال ، لا تضارع ــ سوا، من حيث درجة اتساعها ، أو فخامتها – حجرة الجلوس في (جيتسهيد) ، وليكن بها قدراً كافياً من أسباب الراحة . وكنت أحاول جاهدة أن أستبين معالم صورة على الحائط " عندما فتح الباب ، ودخلت امرأة تحمل شعة ، وفى عقبها امرأة أخرى ت



وتنت احاول جاهدة أن أستبين أمالم صورة على الحائط عندما فتع البساب ، ودخلت السراة تعمل شسمة

أنيطت بها عدةأعمال . وكانت تبدو -كماوجدتها فعلا فيما بعد - مساعدة عدرسة .. ومروت ، وهي تتقدمني ، من قسم إلى قسم، ومن ردهة إنى ردهةً ، في مبنى كبير غير منتظم، حتى إذا تقذنا من ذلك الجزء الكتيب، المصامت، الذي اجترناه من المبني، اقتربنا من همهمة أصوات عديدة .. ولم نلبث أن ولجنا قاعة رحبة، طويلة، صفت فيها موائد كثيرة ، وفي كل من طرقي الغرفة كانت ثمة مائدتان تشتعل علىكل منهما شمعتان .. وعلى مقاعد خشبية حول الموائد، جلس جمع كبير من الفتيات من كافة الأعمار، من التاسعة أو العاشرة حتى العشرين . . وإذ رأيتهن على ضوء الشموع الخافت ، خلت أن عددهن يجل عن الحصر ، وإن لم يكن – في الواقع – قد تجاوز الثمانين فتاة ، وقد ارتدين زباً موحداً ، تألف من ثوب بني اللون ، غربب الطراز ، ومرونة من قَاشَ تَعْلَىٰ .. وَكَانْتُ تُلْكُ سَاعَةُ الاستَذْكَارِ ، وقد الْهِمَكُنْ فِي أَدَاءُ و اجبائهن للغد ، وما كانت الهمهمة التي سمعتها سـوى همـــاتهن وهن يكررن الدووس ليحفظنها عن ظهر قاب !

وأومأت لى مس (ميلر ) كي أجلس على مقعد بقرب الباب ، ثم سارت إلى رأس القاعة ، وصاحت : ٣ على العريفات (رئيسات الطالبات ) أن يجمعن الكتب ويبعدنها ! \* .. فنهضت أربع فتيات طويلات ، عن أربع مواثد متباعدة، وطفن بالطالبات بجمعن الكتب ويقصينها . وعادت مس (ميلر) تصبح بصوئها الآمر : لا لنذهب العريفات ويحضرن صحاف العشاء إ به و فغادرت الفتيات الطويلات القاعة ، وسرعان ما عدن وقد حملت كل المستخف عليها المتناثر لم William - Y

وكانت أولاهما سيدة طويلة ، ذات شعر فاحم ، وعينين سوداوين، وجبين عريض " شاحب . وكان خصرها ملتفاً ــ من جانب ــ بشال ، وقسهاتها مهيبة، وقوامها منتصباً ، مستقيماً . وقالت وهي تضع شمعتها على منضدة: ﴿ إِنَّ الطُّفَلَةُ أَصغر مِن أَنْ تُرسَلُ وَحَيَّدَةً فِيرَحَلَةً طُويِلَةً كَهَذَّهُ ! ﴿ وتأملتني باهتمام دقيقة أو اثنتين ، ثم أضافت قائلة : « يحسن وضعها في اللفراش عاجلا ، فهي تبدو متعبة .. أتشعرين بنعب ؟ . .. فأجبتها : و بعض الشيء ياسيدتي ! ، .

 وما أراك إلا جوعانة كذلك، بلا شك .. لتتناول بعض العشاء قبل أن تأوى إلى سريرها يا ( مس ميار ) .. أهذه أول مرة تتركين فيها أبويك لتاشحتي بالمدرسة يا صغيرتي ؟

· فأوضحت لها أنني بلا أبوين .. وسألتني عن الوقت الذي انقضي منذ وفاتهما ، ثم عن عمري ، وعن اسمى ، وعما إذا كنت أعرف القراءة ، والكتابة .. فأجبتها عن كل هذا ، وقلت إنني كنت أعرف أيضاً بعض مبادئ الحياكة ، فست خدى بسيابتها في لطف ، وقالت إنها ترجو أن أكون صبية طيبة ، ثم صرفتني مع مس (ميلر ) .

 ■ ولابد أن السيدة التي فارقتها كانت في حوالي الناسعة والعشرين ٤ أما التي انصرفت معي فكانت تصغرها ببضع سنوات . ولقد بهرتني الأولى بصوتها، ومظهرها ، والجو المحيطبها . أما مس (ميلر) فكانت أقرب إلى المرأة العادية ، وكانت بشرتها شديدة الاحمرار ، وإن بدا الأمبي على محياها . وكانت سريعة في حركاتها وتصرفاتها، شأن من ضوء النهار قد بزغ بعد ، بل كانت ثمة شمعة أو اثنتان من السهار المغموس في الدهن ، تضيئان الغرفة . ونهضت – بدوري – كارهة، فقــد کـان البرد قارساً ، فارتدیت ثیــایی بقدر ما سمح لی ارتعاشی ، وغسلت وجهي عندما خلا أحد الأحواض ـــ وهو ما لم يتحقق سريعًا، إذ لم يكن ثمة سموى حوض لكل ست فتيات ، وقد قامت همذه الأحواض على حوامل في وسط الغرفة ــ ودق الجوس مرة ثانية ، فاصطفت الفتيات ، كل اثنتين متجاورتين ، وهبطن السلم على هذا النسق ، فلخلن غرفة الدرس الباردة ، الخافتة الضموء . وهناك ثلت مس (ميلر) عليهن الصلاة ، ثم صاحت بعدها : ٥ انتظمن في قصول ! • .. وأعتبت ذلك جلبة عالية لبضع دقائق ، كانت مس (ميلر) تتسيح خلالها : ٥ صمتاً ! ٥ .. ٥ النظام ! ٥ .. فلما خفتت الجُلبة ، رأيت الفتيات جميعاً قد انتظمن في أربع دوائر ناقصة، أمام أربعة مقاعد وضعت أمام أربع مناضد.. وكن جميعاً يمسكن بكتب في أيليهن ، وقد استقر كتاب كبير كالتوراة على كل منضدة ، أمام المقاعد الحالية . وساد الصمت بضع ثوان ، لا تعتكره سوى همهمات، فأخذت مس (ميلر) تنتقل من (فصل) إلى آخر لتسكت صاحبات هذه الأصوات غير الجلية 1

ورن جرس على مبعدة ، فدخلت الغرفة ثلاث سيدات على الفور، سارت كُل منهن إنى منضدة ، وشغلت المقعد القائم أمامها .. وجلست مس (ميار) في المقعد الخالي الوابع ، وكان أقرب المقاعد إلى الباب وقد اجتمعت حوله أصغر الفتيات سناً .. إ - إذا الفصل المسغير الشحقت

أدر ما كان فيها ، وقد نسقت الشطائر على الصحفة يتوسطها دورق ماء وكوب .. ووزعت الشطائر على الفتيات ، وتناول من شئن منهن جرعات ماء من الكوب التي كانت مشاعاً للجميع :: فلما حان دورى شربت ، لأنني كنت ظامئة ، ولكنني لم أمس الطُّعام ، إذ أن الانفعال والتعب جعلاني أصدف عن الأكل . وتبيئت إذ ذاك أن الشطائر كانت عبارة عن قطيرة رفيعة من الشوفان ، قسمت إلى أجزاء ا

وما أن انتهى الأكل حتى أقيمت الصلاة ، وتولت مس (مينر) تلاوثها . ثم خرجت الفتيات مصطفات، كل اثنتين معاً ، وصعدن إلى الطابق العلوى . وفي همذه المرة كان الإرهاق قد غلبتي ، فلم أنبين من معالم المكان الذي أعد للنوم سوى أنه كان كحجرة الاستذَّكار ، طويلا جداً . وكان لى أن أشارك مس (ميلر) سريرها في تلك الليلة ، فساعدتني على خلع ثبابي .. حتى إذا استلقيت على السرير، القيت نظرة على صف الأمرة الطويل = فإذا كلُّ سرير قبد شغل بسرعة بفتاتين . وبعد عشر دقائق ، أطني النور الوحيد في المكان، واستسنمت للنوم وسط السكون، في غمرة الظلام الدامس .

• وانقضى الليل سريعاً ، وكنت من النعب بحيث لم يواتني أي حلم في نومي ، ولم أستيقظ خلال الليل سوى مرة واحلة ، لأسمع الريح تهب في عنف أهوج ، والمطر يهطل دافقاً .. ولأشعر بمس (ميلر) وقد انخذت مكانها إلى جانبي . وعندما فتحت عيني مرة أخرى، كان تُمة جرس بدق عالياً ، وقد نهضت القنيات وارتدين ثيابهن .. ولم يكن

إذ أنها لم تبد للأبصار . وشغلت مس (ميلر) الطرف القصيم للمائدة التي جلست إليها ، بينها شغلت الطرف القصى للمائدة الأخرى سيدة مسنة ، ذات مظهر أجنبي غريب ، أدركت فيها بعد أنها مدرسة اللغة الفرنسية . وتليت صلاة طويلة ، كما أنشدت إحمدي التراثم ، ثم أحضرت خادم بعض الشَّاي للمدرسات .. وبدأ تناول الفطور .

وتحت ضغط الجوع ، والضعف ، ازدردت ملىء ملعقة أو اثنتين من نصيبي من العصيدة . ولكن ، ما إن كسرت حدة الجوع ، حتى تبينت أن الطحام كان يثير النثيان في النفس ، فالعصيدة المحبرقة (الشايطة) كالبطاطس العفنة ، لا يلبث الجوع نفسه أن يشمئز منها !.. وكانت الملاعق تتحرك في بطء ، ورأيت كل فتاة تتذوق طعامها ثم تحاول أن تبتلعه ، ولكن المحاولة كانت ــ في معظم الأحوال ــ تنتهي إلى عزوف . والنهي وقت الإفطار ، ولما تفطر واحدة !.. وتلونا صلاة الشكر -- عن شيء لم نحظ به -- ثم أنشات ترنيمة ثانية ، وأخلى المطعم يعد ذلك ، إذ عدمًا إلى حجرة الدرس . وكنت من بين الأخيرات اللاني غادرن المطعم . وفيا كنت أجاوز المائدتين ، أبصرت بإحدى المدرسات تتناول أحد أوعية العصيدة ، فتنذوق ما كان فيه ، ثم تنظر إلى الأخريات ، فإذا الاستياء ببدو على أسارير هن .. وهمست إحداهن " وكانت ذات الصدر الضخم : ٢ شيء مقرف !.. يا للخزى ! ٩ .

وانقضى قبل أن تبدأ الدروس من جديد " ربع ساعة " كانت حجرة الدرس فيه تعج بالصخب ، إذ لاح أن من المباح الكلام بصوت عال ، ودون قبود ، في تلك الفترة .? قاستخلت النتيايت هذه الإياحة!.

أنا ، وأجلست في نهايته .. ويدأ العمل المدرسي ، فألتمت الفنيات ما وعينه من دروس اليوم السابق ، ثم تليت فصول من الإنجيل وقرأت الفتيات ــ على التوالى ــ قصولا أخرى من التوراة ، مما استغرق ساعة من الزمن . وإذ ذاك انتهت الفترة . وكان ضوء النهار قد أشرق وفاض. ودق الجرس ـــ الذي لم يكن يمل الرنين ـــ للمرة الرابعة ، فــــارت الفصول في نظام إلى حجرة أخرى للإفطار ، وشد ما كان سروري إذ سنحت الفرصة أخبراً الأصيب شيئاً من الطعمام ! . . فلقد كانت أمعاني في تلك الأثناء تتلوى جؤءاً ؛ لأنني لم آكل في اليوم السابق شيئاً يذكر .

 وكان المطعم فسيحاً ، منخقض السقف ، معتماً ، وقد صفت على ماثدتين طوياتين آنية حوت شيئاً ساخناً كان البخار يتصاعد منه. وكم كان استباق إذ ألفيت أن عبيره لايثير الشهية . ولمحت استباء عاماً عندما صافحت أبخرة الطعام الخياشيم . ومن الصف المتتابع ، كانت الطويلات - طالبات الفصل الأول - هن البادثات بالحمس: « مقرف !.. نقد حرقت العصيدة مرة أخرى ! ».. فانبعث صوت آمر : " صمناً ! " .. ولم تكن صاحبته مس (ميلر)، وإنما كانت إحدى المدرسات اللائي يعلونها .. سيدة صغيرة القد ، سمراء، أليقة الملبس ، ولكنها ذات طلعة عابسة بعض الشيء . وكانت قدوقفت عند رأس إحدى المائدتين ، بينما ترأست على المائدة الأخرى سبدة ذات صدر ناهد . وعيثاً بحثت عن تلك التي رأيتها في الليلة السابقة،

أكثر من عشرين قتاة ــ مكتملات الغو ، أو شابات ــ فكان الزى لايناسهن ، بل يضني منظراً عجيباً ، حتى على أجملهن !

\* \* \*

■ وكنت ما أزال أتأملهن ، وأنقل بصرى من آن لآخر إلى المدرسات اللاتى لم ترق لى أى منهن ، إذ كانت البيدينة منهن - ذات الصدر الضخم - فظة بعض الشيء ، ولم تكن الضئيلة القد على قدر بسيط من الشراسة . أما الأجنبية فكانت خشنة الطباع ، غريبة الأطوار .. وأما مس (ميلر) ، فيالها من مسكينة !.. كانت تبدو محتقنة اللون ، نعانى من الجو ، ومن كثرة العمل .

كنت ما أزال في تأملي هذا ، وعيناى تنتقلان من وجه إلى آخر ، حين نهضت المدرسة كلها دفعة واحمدة ، وكأنما حركها زر واحمد . ترى ما الذى جرى ؟ . إنني لم أسمع أمراً يصدر ! . وتولني الحيرة : وقبل أن أستجمع شنات ذهني ، كانت الفصول قد جلست ثانية ، ولكن : لما كأنت كل العبون متجهة نحو نقطة واحدة ، فقد اتخذت عيناى الانجاه العام ، وإذا بهما تلتنيان بالسيدة التي استقبلتني ليملة أمس : وكانت تقف في نهاية القاعة المطويلة ، تتأمل صفي الفتيات في صحت ووقار ، واقتربت منها مس (ميلر) ، وكأنما سألتها في أمر ما ، فلم تلقت جوابها ، عادت إلى مكانها وقالت بصوت مرتفع ؟ ٥ عريفة فا تأخيل الأرضية ! ٥ .

وبينها كانت العريفة تنفذ الأمر، أخلت السيدة صاحبة المشورة تلوع الحجرة في نؤدة ، وأعتقد أنني أونيت قدراً كبيرا من روح وكان الحديث كله يدور حول الفطور الذي ذمته القتيات ، فرادى ورجماعات . يا للمسكينات !.. كان هذا كل ما يتاح لهن من عزاء . وكانت مس (ميلر) هي المدرسة الوحيدة في الفصل في تلك الفترة ، فوقفت حولها الفتيات الكبيرات يتكلمن ويشرن في غضب واستياء . وسمعت اسم مستر (بروكلهيرست) ينبعث من بين بعض الشفاه ، فهزت مس (ميلر) رأسها غير عبدة ، وإن لم تبدل أي مجهود جدى في كبح الاستياء العام ، إذ كانت حون شك حتاركهن إياه !.. وما لبشت أن دقت ساعة في حجرة المدرس معلنة الناسمة ، فغادرت مس (ميلر) الحلقة التي كانت تجعط بها ، ووقفت في وسط الفصل صائحة ; ه صحتاً !.. إلى أماكنكن ! و :

وسيطر النظام ، فلم تنفض خس دقائق حتى كان الحشد المستاء قد استقر ، وساد صحت نسبي خفف من ثرثرة الألسن , وما لبشت المدرسات الكبيرات أن اتخذن مجالسهن ، ومع ذلك فقد ظل يبدو على الجميع طابع الانتظار , وجلست الفتيات الثمانون معتدلات دون حراك على المقاعد المرتبة في جانبي الحجرة .. ماكان أغربين من مجموعة ! .. كلهن قد تستمن شعورهن على نسق خال من الزخرف ، وقد رفعتها عن جهاههن ، فلم يفلنن خصلة واحدة .. وكلهن كن في ثياب ينية الدن ، تصل إلى أعلى رقابين وتلتف حولها بياقة محكمة ، وقد ربطت في صدور ثبابهن أكباس صغيرة جعلت لتكون بمثابة أكباس التطريز .. وكلهن أيضاً كن يرتدين جوارب صوفية ، وأحلية صنعت في الريف تزمها أقفال — (توكات ) — نحاسية .. وكان من لابسات هذا الزي

تلقى عليهن درساً في الجغرافيـا .. أما الفصول الصغرى ، فتولتهن الملىوسات .. ومضى (تسميع) التاريخ : والنحو ، وغيرهما ، زهاء ساعة .. ثم أعقبت ذلك دروس في الكتابة والحساب ، كما تولت مس (تمبل) تنقين بعض الفتيات الكبيرات دروساً في الموسيقي . وكانت مدة كل درس تحسب وفقاً للساعة ، التي ما لبثت أن دقت الثانية عشرة. ف النهاية ، فنهضت الناظرة قائلة : 1 لدى كاحة أقولها للتلميذات 1 .. وكان ضجيج توقف الدروس قد ارتفع ولكنه سرعان ما خفت عنــد سماع صوئها . فاستطردت تقول : « لقد قدم إليكن في هذا الصباح قطـور لم تستطعن تنــاوله ، ولابد أنكن جائعات ، لذلك أمرت بأن تفدم لكن جميعاً وجبة من الجبن والخبز 🕠

فالتنمت إليها المدرسات في عجب . فأضافت تشرح لهن : ■ سيكون ذلك على مسئوليتي ﴿ . ثم بارحت الغرفة لتوَّها . وسرعان ما جيء بالخبز والجبن ووزعا على التلميذات ، فتلقتهما المدرسة بأسرها في ابتهاج وغبطة . وما لبث أن انبعث الأمر : ﴿ إِلَّيْ الْحَدَيْقَةُ ! ﴾ ؛ فارتدت كل فتاة قيمة من القش الخشن ، ذات أشرطة من الخيش الماون ، ووشاحاً من المخمل الحفيف الرمادي الاون . وجهزت أنــا الأخرى يمثل هـ فما الزي ، ثم اتخذت طريق في أعقباب الصف إلى الحواء الطلق .

وكانت الحديقة فسيحة ، محيط بها أسوار عالية إلى درجة تجعل أية نظرة مختلسة ضرياً من المستحيل. وكانت تمند بطول أحد جوانبها شرفة مسقوفة . كما كانت ثمة ممرات عريضة بتوسط رقيعة من الأرض LOOLOO

التقدير ، فما زلت أذكر الإعجاب الممزوج بالاحترام، الذي راحت عيناي تترمان به خطواتها .. وإذ كنت أراها في وضع النهار، في هذه المرة : فقد تبينت أنها كانت تبدو طويلة ، ناصعة البياض : ممشوقة القبوام ، ذات عينين عسليتين ينبعث من إنسانيهما وميض ثاقب ، وتحيط بهما أهداب مرهفة ؛ طويلة ، منظمة، ويعلوهما جبين عريض. وعلى فوديها كان شعرها البني : الشديد الدكنة ، يتهدل في خصلات ملتفة كالحلقات ، وفقاً للنسق الذي كان شائعاً في تلك الأبام ، عندما كانت الإناث يعرضن عن الخصلات المسدلة ، وعن الحلقات الطويلة من الشعر .. كذلك كان ثوبها متسقًا مع النط الشائع إذ ذاك ، وكان من قاش قرمزي ، تخفف من استرساله حواف من المخمل الأسود . وكانت تبرق عنا خاصرتها ساعة ذهبية ــ ولم تكن الساعات إذ ذاك شمائعة كما هي الآن ! – ولاستكمال الصمورة ، ليضف القارئ إلى هذا قسهات حادة : دقيقة ، وبشرة شاحبة ولكنها صافية ، ومظهراً رصينًا مهيبًا .. فإذا جمع القارئ هذه الأوصاف ء تكونت لديه فكرة دقيقة \_ بقدر ما تماك الكليات من إيضاح - لمظهر (مس تميل) .. (ماريا تمبـل) ، إذ رأيت اسمها الكامل فيما بعـد مكتوباً على كتـاب للصلوات عهدت إلى بحمله إلى الكنيسة .

• واللهٰذَت ( ناظرة ) مدرسة ( لوود ) ــ فهكذا كانت وظيفة السيدة - مجلسها أمام زوج من الكرات الأرضية وضعتا على إحدى المناضد ، ثم دعت الفصل الأول ، فأحاطت بها التلميذات ، وشرعت

شــــارلوت برونتى A+X. أتكهن به . وأخذت أتلفت في الحديقة الشبيهة بالصومعة : ثم رحت أتأمل الدار . كانت مبني كبيراً ، بدا نصفه مغبراً ، قديماً ، بينها كان النصف الآخر جـديداً تمـاماً . وكان هـذا الشطر الجديد يضم قاعة الدرس = وقاعة النوم ، وينفذ الضوء إليه خلال نوافذ تقسمها قضبان حديلية إلى مربعات وأشياه مستطيلات منحرفة ، مما كان يطبع المبنى بطابع الكنائس . وكانت ثمة لوحة حجرية على الباب ، نقش عليها : (ناعوى بروكلهيرست)، سيدة قصر (بروكلهيرست)، في هذه المقاطعة ء . . وتحت هذه العبارة الآبة التالية من الإنجيل ( سفر القديس متى « الإصحاح ١٣ ) : ٥ دع نورك يشرق على الملأ كي يروا أعمالك الجليلة فيمجدوك ويمجدوا أباك الذي في السهاوات = .

 قرأت هذه الكلات مرارأ وتكراراً ، فشعرت بأن وراءها معنى ، ولكني لم أستطع أن أتقذ تماماً إلى ما كانت تكنه . وفيما كنت مستغرقة فى تأمل معنى العبارة الأولى، أحاول أن أوفق إلى رابطة بينها وبين الآية المقتيسة عن الإنجيل ، حملتي صوت سعال جد قريب من ظهري، إلى أَنْ أَلْتَفْت، فرأيت بِنَتَأْ تَجاس على مقعد حجرى قريب ، وكاثث منحنية على كتاب، بدا أنها كانت مهتمة بمطالعته . وكان بوسعي أن أرى عنوانه من موقفي : ( راسيلاس ) .. اسم لاح لى غريباً، وبالنالي مشوقًا . وفيم كانت تقلب إحدى الصفحات . تطلعت مصادية ع فبادرتها قائلة : ١ هل كتابك مشوق؟ ١. ا وكنت في تلك الثالاء قد

قسمت إلى عشرات من الأحواض .. وكانت هذه الأحواض حدائق مخصصة للتلميذات كي يزرعنها ، لكل تلميذة حوض : ولا مراء في أنها كانت تبدو بديعة إذا ما امتلأت بالزهور ، ولكنا كنا في أواخر يناير ، فكان كل شيء ذابلا ، يابساً . وارتجفت إذ وقفت وتلفت حولي .. كان يوماً زمهريراً لايليق للتمرين خارج الدور . صحيح أنه لم يكن يوماً ممطراً ، ولكنه كان غائماً إذ غشيته عاصفة جليدية صفراء ، وكان كل ما نحت الأقدام بنضح بالمياه المتخلفة من سيول اليوم السابق، وأخمذت القويات من الفتيمات يجرين ويقمن بمظماهر النشماط .. أما الشاحبــات ، والنحيفات ، فقــد انكمشن معاً لاثذات بالشرفة ، يلتمسن الدفء .. وبين هؤلاء ، كثيراً ما سمعت صوت سعال أجوف كلها نقذ الضباب الكثيف خلال هياكلهن المرتجفة!

وكنت حتى الآن لم أتحدث إلى واحدة ، ولابد أن منهن من كانت تحفل بوجودي ، فظلت وحيدة تقريباً ، ولكني كنت متعودة همذا الشعور بالعزلة ، فلم تكن وطأته على شديدة . ومن ثم استندت إلى أحد أعمدة الشرفة ، وشددت أطراف عباءتي الرمادية حوتي وحاولت أن أنسى البرد الذي كان يتخر عظامي ، والجوع الذي لم يحظ بإشباع ، والذي كان يقرص أمعائى ، وشخلت بالمشاهدة والتأمـل . وكانت أفكاري غير محددة المعالم ، ولا يكاد يستحق التسجيل منها إلا القليل .. كنت لا أكاد أعرف أين أصبحت ، فبدا لى أن (جيتسهيد) وحياتى الماضية كانتا تسبحان أماي في الهواء ، على مسافة لا سبيل إلى قياسها.. وكان الحـاضر مبهماً ، غريباً .. أما المستقبل ، فلم يكن بوسـعى أن

فـــــارلوث پرونتي ١٠٩ إنها مدرسة خيرية إلى حدما , فأنت وأنا وكل الباقبات ، نتمتم بالمبرات ، وأحسبك يتيمة .. ألم يمت أبوك أو أمك ؟

- ماتا ، كلاهما ، قبل أن أعي شيئاً .

- حسناً ، كل الغتيات هنـا رزئن في أحد الوالدين أو فيهما معاً ، وهذه الدار تسمى معهداً لتعليم اليتبات .

ألسنا ندفع نقوداً ؟ .. هل يستبقوننا دون مقابل ؟

 إنتا ندفع ، أو بدفع أصدقاؤنا لنا ، خسة عشر جنبها في العام عن کل فتاہ ۔

- إذن فلاذا يسموننا : أولاد المبرات ؟

 لأن خمسة عشر جنيها لا تكنى لإقامتنا وتعليمنا . ومن ثم فإن الباقي يتوفر من التيرعات .

ومن الذي يتبرع ؟

-- سيدات مختلفات ، وسادة من المناطق المجاورة ومن لندن ، جبلوا على الخير .

– ومن کانت (ناعومی بروکلهیرست) ۴

ــ السيدة التي أنشأت الشطر الجديد من هذه الدار ــ كما تذكر اللوحة ـــ والتي يشرف ابنها ويدير كل شيء هنا .

ـــ لأنه أمين صناوق ومدير المؤسسة . ◘ ◘ ♦ ◘ ♦ ◘ ♦

عقدت العزم على أن أسألها أن تعيرني إياه يوماً .. وأجابت بعد ثانية أو اثنتين كانت تتقحصني خلالها : ٤ إنني أحبه ٤ . قعدت أسألها: « وحول أي شيء يدور؟» .. ولا أكاد أدرى أين وجدت تلك الجسارة على فتح باب الحديث مع فناة غريبة . كانت الخطوة مناقضة لطبيعتي وعادتي ، ولكني أحسب أن ما كانت البقت تشغل يه نفسها ، مس وثرًا حنونًا في مكان ما من قلبي ، فقد كنت أنا الأخرى أحب القراءة ، وإن كان حبي لها فجاً ، صبيانياً، إذ لم أكن أقــوى على هضم أو فهم الكتب الجدية أو ذات الموضوع .

وأجابت الفتاة وهي تقدمه لي : « تستطيعين أن تلقي عليه نظرة ». وفعلت .. ولكن فحصاً سريعاً أفتعني بأن محتوياته كانت أقل إغراء من عنوائه . فقد بدا ( راسيلاس ) المُوقى النافه غَمًّا، إذ لم أر فيه شيئًا عن حوريات الأساطير ؛ أو الجنن ، ولا شيئًا من المتنوعات البهيجة في صفحاته التي طبعت بحروف صغيرة وسطور متقاربة .. وأعدته إلى الفتاة ، فتلقته في سكون ، ودون أن تفول شيئاً ، وهمت بأن تعود إلى انهما كها السابق في القراءة ، ولكني تجاسرت مرة أخرى على إذ عاجها ، متسائلة : ٣ مل لك أن تخبريني بما تعنيه الكنابة المنقوشة على ذلك الحجر الذي يعلو الباب ؟ .. ماهو معها لوود ؟ ، .

ـــ هذه الدار التي جنت لتقيمي فيها .

 و لاذا يسمونها معهداً ؟ .: هل تختلف عن المدارس الآخرى في أية ناحية ؟ إلى درجة لابأس بها .

هل تجين الصغيرة القد السمراء . . ومدام . . ؟ . . لستأستطيع أَنْ أَنْطَقَ بِاسْمِهِا كُمَّا تَفْعَلَينَ .

 إن مس (سكاتشيرد) سريعة الغضب ، فيجب أن تحـلـرى من أن تغضبيها :: أما مدام ( بيبرو ) فليست سيئة ج

– ولكن مس (تمبل) هي الأحسن .. أليست كذلك ؟

 إن مس (تميل) طيبة جاءاً ، وماهرة جاءاً : إنها فيوق الأخربات ، لأنها أكثر سهن معرفة .

.. مل قضيت وقتاً طويلا هنا ؟

-- سٽين !

وهل أنت يثيمة ؟

لقد مائت أى .

– وهل أنت سعيدة هنا ؟

- إنك تكثر بن جلدًا من الأسئلة القد أز جبت إليك إجابات تكفيك ف الوقت الحاضر ، أما الآن ، فأريد أن أقرأ .

ولكن الدعوة للغداء انطلقت في تلك اللحظة ، فعادت الفتيات جميعًا إلى داخل الدار : وكانت الرائحة التي ملأت جو المطعم إذ ذاك لاتكاء تكون أكثر إثارة للشهية من تلك التي انسابت إلى خياشيمنا في الإفطار . وقدم الغداء في وعاءين هائلين من الصفيح ، انساب منهما

 إذن فهذه الدار ليست ملكاً للسيدة الطويلة التي تحمل ساعة . والتي قالت إنها أمرت لنا بجبن وخبز ؟

 مس (تمبل) 1.. آه ، لا !.. ليتها !.. إنها مسئولة أمام مستر بروكلهبرست عن كل ما تفعل، ومدير بروكلهيرست هو الذي يبتاع كل غذائنا ، وكل ثيابنا .

ـــ وهل هو يقيم هنا ؟

ــ لا .. بل على ميلين من هنا ، في قصر كبير .

\_ وهل هو رجل طبيب ؟

إنه من رجال الكنيسة، ويقال إنه يقوم بكثير من أعمال الخير .

\_ هل قلت إن تلك السيدة الطويلة ثدعي مس (تميل) ؟

ــ وماذا تسمى المدرسات الأخريات ؟

.. ذات الخدين الموردين تدعى مس (سميث) ، وهي تشرف على الحيـاكة وتقوم بالتفصيل ، لأنشا تصنع ثبابنا ، وزينا المدرسي ، ومراولنا ، وكل شيء .. والضئيلة الجسم ، ذات الشعر الأسود هي مس (سكاتشيرد) ۽ وهي تلتي دروس التاريخ والنحو ، وتنصت لتلميذات الفصل الثاني عند ( تسميع ) الدروس . أما التي ترتدي شالاً ، وتحمل منديلا مربوطاً إلى جانبها بشريط أصفر فهي مدام (ببيرو) .. وهي من (ليل) يفرنسا ، وتدرس اللغة الفرنسية .

\_ عل تحيين المدرسات ؟

شــــارټوت برونتی

وسرعان ماتناولنا وجبة أخري بعد الساعة الحامسة مساء ، وكانت تتألف من ملىء قدح صغير من القهوة ، ونصف شريحة من الخبز الأسمر ، فالتهمت خبزى واحتسيت قهوتى فى تلذذ .. ولكنى كنت خليقة بأن أيتهج لو أنتى حصلت على مزيد ، إذ كنت ما أزال جائعة ! .. وأعقبت الوجبة راحة لنصف ساعة ، ثم استذكار ، ثم كوب الماء ، وقطعة فطير الشوفان « والصلاة فالفراش ..

وهكذا انقضي أول أيامي في ( لوود ) 1

\* = #

Looloo

يخار عارم مشبع بعبير الدهن المصهور . وثبيلت أن الوجبة كانت تتألف من بطاطس غير معنى بطهوها ، وشرائح غريبة المنظر من لحر معنم اللون ، وقد طبخا معاً . وقدمت لكل تلميذة من هذا الطعام كمية وفُيرة ، فأكلت بقدر ما وسعني ، وأنا أتساءل في نفسي عمـا إذا كان طعام كل يوم على هذا الغرار 1 .. وعدنا بعد الغداء مباشرة إلى قاعة الدرس -فاستؤنفت الدروس ، واستمرت إلى الساعة الخامسة . وكان الحــادث الوحيد الذي يستحق الذكر – فيا بعد الظهر – هو أنني رأيت الفتاة التي كنت قد تحدثت إليها في الشرفة ، تقصيها مس (سكاتشيرك) من درس التاريخ خزيانة ، وتأمرها بأن تقف في وسط حجرة الدرس الواسعة . ولاح لى العقاب مستهجناً إلى درجة فظيعة ، لاسيا لفتماة كبيرة مثلها ... إذ كانت تبدو في الثالثة عشرة أو أكثر ... وتوقعت أن تظهر الفتاة أسي بالغاً وخزياً ، ولكنها ــ لدهشتي ــ لم تبك ، ولم يتضرج وجهها، بل وقفت منالكة نفسها ، وإن بدت عابسة، وهي محط اللَّانظَةِ . وساءلت نفسي : ﴿ كَيْفَ تَحْتُمُلُ الْأَمْرِ بِهِذَا الْهُدُوءَ .. وَهَذَهُ الرَّزَانَةُ ؟..: لو أَنْنَى كُنْتُ فِي مَكَانُهَا لَكُنْتُ ــ فَهَا أَرِي ــ أَتَمْنِي أَنْ تَنْشَقَ الْأَرْضِ وتبتاعني ! .. إنها تلوح كما أو كانت تفكر في شيء غير عقايها .. غير موقفها .. في شيء لابوجد حولها ، ولا أمامها . لقد سمعت عن أحلام البقظة .. أفتحلم هي في يقظتها الآن ؟ .. إن نظراتها مثبتة إلى الأرض ، ولكني متأكدة من أنها لاتراها . . كأنما تحول بصرها إلى جوفها ،وغاص في قلبها .. إنها تتأمل مافي ذاكرتها ، وليس ماهو حاضر فعلا - فيما أعتقه .. ترى أي نوع من البنات هي ؟ .. أهي طيبة أم خبيثة ؟ ٠ .

وكاتت معظمِ الأخريات ينصرفن إلى الحياكة في تلك الساعة، بيد أن طالبات إحدى الفرق ظللن وقوفاً حول مس (سكاتشيرد) يطالعن . ولما كان السكون شاملاً، قان موضوع درسهن كان مسموعاً، وكذلك طريقة كل فتاة في الفراءة ، وانتقادات مس( سكاتشير د ) أو نصائحها بصدد الإلقاء .. وكان الدرس في التاريخ الإنجليزي، والاحظت بين النَّارِثَاتَ الفَّتَاةَ الَّتِي تَعْرَفَتَ إِلَيْهَا فِي الشَّرِفَةِ .. وكَانَ مَكَانَهَا فِي بِدَايَة الدرس في مقدمة الفرقة ، ولكنها ما لبثت أن أرسلت إلى آخر الصف، لخطأ ارتكبته في النطق ، أو لعدم انتباه إلى مواضع الوقوف في القراءة . وتم يعفها هذا التأخير من أن تجعلها مس (سكاتشيرد) موضع تعليقات مستمرة ، فكانت لاتفتأ تخاطبها بعبارات كهذه : « بيرنز (ويبدو أن هذا كان اسمها ، فإن البنات كن ينادين هنا بألقابهن ، كالأولاد في كل مكان) .. بيرنز ، إنك تقضين على جانبي حذاءيك ، اعدلي كعبيك في الحال ۽ . . ۽ بير نز : إنك تاوين ذقنك في أبشع منظر ، فاعدليها ! » . . و بيرنز ، إنني أصر على أن ترفعي رأسك ، ولن أقبل أن تقفي أمامي بهذا الوضع ۽ إلخ ؛ إلخ ا

وقرأت الفتيات فصلا كاملا مرتين ، ثم أغلفن الكتب ، وبدأت المعلمة نخير هن . وكان الدرس ينطوى على جزء عن عهد الملك (تشارلس الأول) ، وكانت ثمة أسئلة شتى .بصدد حولات السفن بالأطنان ، وبالأرطال ، وأسئلة أخرى عن الأجور ، فلاح أن معظم الفتيات عاجزات عن الإجابة ، ولكن كل سؤال عويص كان ينهار إذاما وصل إلى (بيرتز) ، وكأتما اللوصين في المنوس إذاما وصل إلى (بيرتز) ، وكأتما اللوصين في المنوس المنوب المنوس المنوب المنوس المنوب المنو

## القصل السادس

بدأ اليوم التالى ، كسابقه ، بالنهوض ، وارتداء الثياب على ضوء الشموع : ولكنا أعفينا فى صباحه من إجراءات الاغتسال، إذ كانت المايد متجمدة فى الأباريق، من أثر انقلاب فى الطقس حدث فى اللية السابقة ، فقد هبت ربح شمالية شرقية زمهرير ، مضت تصفر خلال ثغرات نوافذ قاعة النوم طيلة الليل، فجعلتنا ترتعد فى أسرتنا ، وأحالت عتويات الجرار إلى ثلج .. وقبل أن تنقضى الساعة ونصف الساعة الخصصة للصلوات وقراءة التوراة ، شعرت بأننى أوشك أن أهلك من البرد . وأخيراً ، حانت ساعة الإفطار ، ولم تكن العصيدة فى هذا الصباح عترقة ، بل كانت مستساغة ، وإن كانت الكمية صغيرة .. لكم بدا لى نصابي ضييلا .. ولشد ما وددت لو أنه تضاعف !

وسمل اسمى حالال النهار فى الفرقة الرابعة ، وأنبطت بى مهام وواجبات منتظمة .. فقد كنت من قبل مجرد متفرجة على الإجراءات المتبعة فى (لوود)، أما الآن فأصبح على "أن أشترك فى العمل . وبلعت لى الدروس طويلة وصعبة ، فى البداية ، إذ لم أكن قد ألفت الاستذكار عن ظهر قلب .. كذلك أربكتنى كثرة التنقل من عمل إلى عمل . واغتبطت عندما وضعت مس (سميث) بين يدى - حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر - قطعة من القياش الحريرى طولها ياردتان ، مع إيرة ووقاء للإصبع (كستبان) ، وما إليهما ، ثم أرسلتنى لأجلس فى ركن هادئ من قاعة الدرس ، بعد أن كففت طرفاً من القياش كى أعمل على نسقه .

فبادرت المعلمة المي ضربها على عنقها لمحرحة القروع الثني عشرة ضرية

كله : فكانت متأهبة للرد على كل نقطة ! .. وظللت أتوقع أن تطرى مس (سكاتشيرد) انتباهها ، ولكنها بدلا من ذلك ، صاحت بغتة : الصباح! » .. فلم تجب (بيرنز) .. وعجب لصمتها ، فساءلت نفسى: ه لماذا لاتوضح أنها لم تكن تملك أن تنظف أظفار ها . أو تقــل وجهها، لأن الماء كان متجملاً ؟ ٧ .. واجتذب انتباهي صوت مس (سميث) ترغب في أن أمسك حزمة من الخيط . بينيا انهمكت في لفها : وهي تكلمني من آن لآخر ، متسائلة عما إذا كنت قد ذهبت إلى مدرسة من قبل: وعما إذا كنت أعرف غرز الوفو واللَّقق والحبك ، وما إليها .. ولم أستطع أن أتابع ملاحظتي لحركات مس ( سكاتشير د ) .. إلى أن صرفتني مس ( سميت ) عن مساعاتها ، فلها علت إلى مقعلى .. كانت تلك السيدة تصدر أمراً لم أثبين موضوعه ، ولكن (بيرنز) غادرت غرفة الدرس في الحال ، وذهبت إنى الغرفة الداخلية الصغيرة الني كانت الكتب تعفظ فيها، أم عادت بعد نصف دقيقة تحمل حزمة الفظيعة إلى مس (سكاتشيرد) في احترام بالغ، ثم فكت مرولتها في صمت و دون أن تؤمر بذلك ، فبادرت المعلمة إلى ضربها على عنقها بحزمة الفروع اثنتي عشرة ضربة قوية ، دون أن تقفر إلى عبني (بيرنز) دمعة والحدة !.. وبينها توقفت أنا عن الحياكة -- لأن أصابعي أخذت ثر تعش تحت عاصفة من الغضب العاجز ، غير المجدى ، لهذا المنظر ـــ لم تغير قسنة من قمات وجمه (بيرنز) وضعها العادي ، فصاحت مس

وربما كانت تلك هي الساعة التي كنت قمينة بأن أحس فيها يلوعة الفراق في أشــٰد استعارها ، لو أنني اغتربت عن بيت طيب وأهل كرماء أ . . فقد كانت تلك الربح عندئذ كفيلة بأن تحزن فؤادي ، وكانت ثلث الظلمة الملطمة خليقة بأن تعكر صفوى . أما وثلك كانت حالى ، فقد استمددت من الربح والظلمة انفعالا غريباً ، مستهيئاً ، محموماً ، فوددت لو أن الربح قست في عوائها ، والظلمة تفاقمت ، والاضطراب استفحل إلى هيـاج !.. وشـققت طربتي ــ قافزة فوق المقاعد، زاحفة إلى الموائد ــ إلى إحدى المدافئ ، وهناك وجدت ( بير نز ) راكتة إلى جوار حاجز عال من السلك ، مستغرقة في صمت ، منصرفة عن كل ماحولها ، في رفقة كتاب كانت تقرؤه على وهج النار المعتم ، قَمَالُتُهَا وَأَنَا أَقْتُرَبِ مِن خَلَفُهَا ؛ \$ أَهُو رَاسِيلاسٍ فِي هَذَهُ المُرةَ أَيْضًا ؟؟ ... فقالت : ﴿ أَجِلَ .. لقد أُوشَكَتْ أَنْ أَفْرَغُ مَنْهُ ﴿ . وَإِنْ هِي إِلَّا خُسَ دَقَائِقَ حَتَّى أَعْلَمْنُهُ : فَسَرَرَتَ لَذَلِكُ ، وقلتَ لَنْفُسَى : ﴿ لَعَلَمْنِي الْآنِ مستطيعة أن أحملها على الكلام » .. وجلست على الأرض بجانبهـا : وسألتها : ٣ ما اسمك الذي يسبق بيرنز ؟ \* ، فأجابت : ﴿ هيلين ﴾ ﴿

- هل وفدت من مكان بعيد عن هنا ؟
- جئت من مكان بعيد شمالا . على حدود اسكتلندا تقريباً بـ
  - -- وهل ستعودين إليه يومأ ٦
  - آمل غلك ، ولكن أحداً لا يملك أن يطمئن للمستقبل ه
    - 🗕 لابد أنك تتمنين مفارقة ( لووم) 🕈

سكاتشيرد : « يالك من جاملة عنيلة ! .. لاشيء يقوى على تقويم عاداتك القلمرة .. اذهبي بالعصا من هنا ! ٥ :. وأطاعت (بيرنز) .: وتفرست فيها وهي تغـادر مخزن الكتب ، فإذا بها تدس منديلها في جيبها ، وعلى خدها الناحل أثر لامع خلفته دمعة !

• ووجدت أن ساعة اللعب في المساء هي أبهمج فترات الفسحـة في ( لوود ) ، في اليوم كله ، إذ تكون شريحة الخبز ؛ وقدح القهوة اللذين نتناولهما في الساعة الخامسة - قد أنعشا نفوسنا، إن لم يكونا قد أشبعا جوعنا .. كما يكون إرهاق النهّار الطويل قد خف ، وغرفة اللمرس أدفأ جواً منها في النهار ، بعد إذ أتبح لنيران مدفأتها أن تتوهج بقدر أكثر ، حتى تعوض ــ إلى حد ما ــ الحاجة إلى الشموع التي لا تكون قد جلبت بعد إلى القاعة .. فكانت الظلمة المشوبة يُتمر ة الوهيج ؛ والصخب المباح ، واختلاط الأصوات العديدة ، يوحى للواحدة منا بشعور من التحرر مستحب أ .. وفي مساء اليوم الذي ضربت فيه مس ( سكاتشيرد) تلميذتها (بيرنز ) ، رحت أهم كالعادة بين الفرق ، والمناضد، والجهاعاتالضاحكة، دون ما رفيق، ودون شعور بالعزلة مع ذلك !.. فلما مررت بالتوافذ رحت من آن إلى آخر أرفع الستار الخشبي اللين( الحصيرة)، وأطل على الخارج .: وكان الصفيع يتساقط منهمراً. وقد بدأ يتجمع خارج الألواح السفلي من زجاج النوافذ، فكنت ألصق أذنى بالنوافذ ، وأميز خلال الصخب المثابه لهدير الموج عويل الربح النكلي في الخارج !

بأنها ربما كانت مصيبة وأنا الخطئة ، ولكني لم أشأ أن أتعمق في تأمل الممألة ، بل آثرت أن أدعها جانباً إلى وقت مناسب . وتساءلت : ه تقولين إن لك أخطاء ياهيلين ؛ فما هي ؟ .. إنك تبدين لي طبية جداً ؛ .

- إذن فتعلمي مني أنه لا ينبغي أن تحكمي بالمظاهر . إنني – كماو صفتني مس سكاتشير د ــ أميل القذارة . ثم إنني نامراً ما أضع الأشياء في مكانها أو أحتفظ بها في نظام ، فأنا مهملة .. وأنا أنسني القواعد ، وأقرأ في الوقت الذي ينبغي أن أستذكر فيه دروسي .. وليس لى أسلوب معين ، وأحياناً أقــول – كما تقولين - إنني لا أســتطيع أن أكون مستعبدة لإجراءات منظمة . وكل هذا يثير مس سكاتشير د جداً ، فهي بطبعها تظيفة ، دقيقة ، ذات أسلوب معين محدد .

فأضفت : ﴿ وَسَرِيعَةَ الْغَصْبِ ﴾ وقاسية ١ . ولكن هيلين بيرنز أبت أن تقر هذه الإضافة ، فظلت صامتة . وعدت أسألها : ١ هل مس تمبل قاسية عليك مثل مس سكاتشير د ٢ ء .. وطافت يوجهها العابس ابتسامة ناعمة عند ذكر اسم ( مس تمبل ) ، وقالت : • إن مس تمبل منمعمة بالطبية ، وإنه ليؤلمها أن تقسو على أية واحدة ، ولو كانت أسموآ من في المدرسة ! إنها ترى أغلاطي ، و تبصر في بها في لطف ، وإذا فعلت شيئاً يستحق الإطراء ، فإنها توفيني حتى دون إحجام . ومن أقوى الأدلة على النقص المشين الذي جبلت عليه أن عنابها – على رقته ، وقوته المنطقية – لم يؤثر عليَّ إلى الدرجة التي تبرئتي من أغلاطي .. بل إنَّ إطراءها ، برغم أنني أعتر به إلى أسمى درجة ، لا بستطيع إن يحفرنى  لا .. ولماذا أتمنى ذلك ؟.. لقد أوفدت إلى ( لوود ) لأتعلم .. ولنَّ يكون لمرحيلي نفع ما لم أصب تلك الغاية .

– ولكن تلك المعلمة ، مس ( سكاتشير د ) ، جد قاسية عليك !

-- قاسية ؟ .. أبداً ! .. إنما هي صارمة ، تكره أخطائي .

 أما أما ، فلو كنت في مكانك لكرهتها ولقاومتها إذا هي ضربتي بتلك العصا حتى آخذها منها وأكسرها تحت بصرها .

 ما أراك تفعلين شيئاً من هذا القبيل . أما إذا فعلته ، فإن مستر بروكلهيرست يفصلك من المدرسة ، وهذا ولا بديحزن أقرباءك كثيراً . ومن الخير — كل الخير — أن يحتمل المرء بصبر عقاباً لن يحس به أحد سواه ، عن أن يرتكب تصرفاً متهوراً تمند نتائجه السيئة إلى كل من له بك علاقة . وبجانب هذا فإن التوراة تأمرنا بأن ترد السيئة بالحسنة ؛

 ولكن يلوح ، مع ذلك أن من المعبب أن يضرب المرء . وأن يؤمر بالوقوف في وسط حجرة مليئة بالناس .. ثم إنك فناة كبيرة . ومع أنني أصغرك بكثير ، إلا أنني لا أطيق احتمال هذه المعاملة !

 إن احتمالها يغملو واجباً عليك، إذا لم يكن في وسعك تقاديها . من الضعف والحاقة أن تقولي لي إنك ا لا تستطيعين احتمال ماهو مقدور عليك أن تكوني مطالبة باحتماله ؛ !

وكنت أستمع إليها في عجب ، وأنا لا أستطيم إدراك هذا المذهب الذي يدعو إلى الاحتمال .. وكنت أقل فهماً وتقديراً للتسامح الذي أفصحت عنه نحو معذبتها . ومع ذلك فقد شعرت بأن ( هيلين بيرنز ) كانت تقدر الأمور على ضوء لا تبصره عيناى . وساورنى الشعور

الملك الحسكين القتيل!.. أجل ، فإن أعداءه كانوا أسوأ منه ، إذَ أراقوا اللهم الذي لايملكون حق إراقته .. كيف تجاسروا على قتله ؟

وكانت ( هيلين ) قد انقلبت تحدث نفسها ، ونسيت أنني كنت لا أفهمها جيداً، وأنتي كنت جاهلة \_ أو ما يقرب من ذلك \_ بالموضوع الذي كانت تتحدث عنه . ورددتها إلى مستواي ، إذ سألتها : ﴿ وعندما تتولى مس تمبل التدريس لك ، مل تشرد أفكارك ؟ ه .

 لا ، بالثأكيد . . لا تشردكثيراً ، لأن مس تمبل أوتيت ـ بوجه عام ــ مادة جديدة ، أطرف من تأملاتي . .ولغتها تروق لي بدرجة فذة ، والمعرفة التي تاقيها هي في الغالب الشيء الذي أنوق إلى تحصيله !

إذن ، فأنت مع مس تمبل تلميذة طبية ؟

 أجل ، بطريقة سابية ، إذ أننى لا أبادل جهدا ، وإنما أتبــم ميلا بهديتي . . وليس لى أي فضل في مثل هذه الطيبة 1

 بل اك فضل كبير ، الأنك تكونين طيبة مع الذين يبدون طيبة في معاملتك . إن هذا كل ١٠ أصبو إليه . أما 'لو ظل الناس مهذبين ومطيعين لأولئك القساة الظالمين ، لسدر اللثام في غيهم ، ولما شعروا بخوف على الإطلاق، ومن ثم لما تغيرت حالهم، بل لاز دادت سوءًا ! .. فنحن عندما نصفع دون مبرر ، يجب أن نرد الصفعة بقسوة بالغة .. أجل : إنني واثقة من أنّ هذا واجب .. ولتكن الصفعة من القسوة بحيث تعلم من يصفعنا ألا يعود إلى ذلك قط!

لسوف تغیرین رأیك ، كما آمل، عندما تكبرین .. أما الآن،

فأنت مجرد فناة صغيرة ، غير متعلمة ا

على العناية المستمرة وعلى بعد النظر . فقلت : • هذا عجيب :: إن الاعتناء أمر سهل ، :

 لاشك عندى في أنه كذلك بالنسبة لك ، فقد لاحظتك في فرقتك هذا الصباح ، ورأيت أنك كنت شديدة الانتباه ، ولم يبد أن فكرك شرد إطلاقاً بينها كانت مس ميلر تشرح الدرس ، وتسألكن . أما عقلي ، فهو هامم دائمًا . وعندما ينبغي على أن أنصت إلى مس سكاتشير د وأن أستوعب كل ما تقول في انتباه ، كثيراً ما أفقد حتى رنة صوئها ، وأستسلم لنوع من الحلم ، فأخال نفسي أحيانًا في ( نور ثمبر لاند ) ؛ وأن الأصوات التي أسمعهما حولي هي خرير جلول صغير بجري خملال ( ديبدن ) ، بالقرب من دارنا . . فإذا جاء دورى في الرد على أسئلة الملىرسة ، اضطور ت إلى الاستيقاظ : و بما أنني لا أكون قد سمعت شيئاً مما قرئ ، لإ صغائى لجدول الأحلام ، فإنني لا أجد جواباً حاضراً !

- هذه مجرد مصادفة، فإن الموضوع الذي كنا نطالعه راق لي. وبدلا من أن أحلم بديبدن ــ بعد ظهر اليوم ــ رحت أعجب وأتساءل ، كيف يقدر لرجل كان يبغي الخير ، أن يتصرف بغير عدل ولا حكمة كما كان الملك تشارلس الأول يفعل في بعض الأحيان ! وخطر لي أنه مما يرثى له ، أنه برغم استقامته و تقوى ضميره، لم يستطع أن يمد بصره إلى أبعد من امتيازات التاج ـ ليته تمكن من أن ينظو إلى أبعد من ذلك قلبلاً ، فرأى كيف كانت تنجه روح العصر ، كما يسمونها 1 .: على آنني – برغم فلك – أحب تشارلس ، وأحترمه :: إنني أرثى لذلك

- ومع ذلك ، فقد كنت موفقة في الإجابات بعد ظهر اليوم!

ما قلت ، ولكنها لم تقل شيئاً . فسألتها نافدة الصهر : لا حسناً ، أليست (مسز ويد ) امرأة قاسية القلب ، سيئة ؟ » .

 لقد كانت غير رحيمة بك، دون شك، لأنها -كما ثرين -تكره النوع الذي قطر عليه خاقك ، كما تفعل مس سكاتشير د بالنسبة لى . ولكن ، ما أدق تذكرك لكل ما فعلت أو قالت ! .. وما أعجب وأعمق الأثر الذي خلفه ظلمها في فؤادك ا .. لم تترك أية إساءة طابعاً مثل هذا على مشاعري . ألا تكونين أسعد حالاً ؛ أو أنك حاولت أن تنسى قسوتها ، والانفعالات المشبوبة التي تثيرها في نفسك؟ . . إن الحياة تبدو لي أقصر من أن تنفق في تنمية البغضاء ، وتسجيل الأخطاء , إننا متقلون ــ ولابد من أن نكون متقلين ــ بالأخطاء في هذه الحياة الدنيا ، سواء كأفراد ، أو في مجموعنا ، ولكنا لن ثلبث - في وقت سيحين عما قريب، فيما أعتقد .. أن نتخلص من خطايانا إذا ما تخلصنا من أجسادنا المثقلة بالفساد .. سيهوي عنا كل درن وخطيئة ، مع هذا اليدن المنقل .. ولن تبتى سوى جذُّوة الروح ـــ الجوهر غير الملموس للحياة والفكر – نقية كما كانت حين غادرت الخالق التنبث في المخلوق . . ولسوف تعود من حيث أتت ، وربما أوفدت ثانية إلى لخلوق أرقى من الإنسان . ربما انتقلت في مراق المجمد ، من النفس البشرية الباهنة ، لتشرق في ملاك ! . . ولكن ، هل من المؤكد أنها لن تتعرض لعكس هذا ، فتنحط من الإنسان إلى الجن ؟ .. لا ، لا يمكن أن أومن بهذا . إنما أومن بعقيدة أخرى ، لم يعلمنها أحد ، ونادراً ما أكشف عنها لأحد ، ولكنني أجد فيها غيطة ، وأتشبث بها ، لأنها تبسط الأمل للجميع .. فهي تجعل من

 ولكن هذا شعورى باهيلين.. يجب أنا كر «أو لثك الذين يمعنون في كراهيتي مهما أفعل لإرضائهم ! .. يجب أن أقاوم أولئك الذين يعاقبونني ظلماً . . إنه أمر طبيعي . . كذلك يتبغي أن أحب أولئك الذين يبدون نحوى عطفاً ، وأنقبل العقاب عندما أشعر بأنثى أستحقه !

 إن الوثنيين والقيائل الهمجية بؤمنون بهذا الرأى ، أما المسيحيون والأمم المتمدينة ، فينكرونه .

وكيف؟ . . إنني لا أفهم لذلك سرآ !

 ليس العنف خير مايغلب الكراهية.. وليس الانتقام خير مايمحو الإساءة!

... فسادًا إذن ؟

 اقرثی التوراد، واعملی بما یقوله المسیح وانظری کیف بتصرف... اجعلي كلمته قاعدة لك ، ومسلكه مثالا تقتدين به .

وماذا يقول ؟

ـــ أحب أعداءك وبارك من يلعنك ,. افعل الخير لمن يكر هونك و بسائو ن استغلالك .

 إذن ، فعلي أن أحب (مسر ريد) ، وهو ما لا أستطيعه .. وعليٌّ أنْ أَبَارَكَ ابْنَهَا (جَونَ) ﴿ وَهُو أَمْرُ مُسْتَحِيلُ !

وسألتني هيلين بيرنز ـــ بدورها ــ عما أعنى ، فشرعت أفضفض لها بقصة آلامي وأحقادي ، كما كنت أراها . وإذ أثارتني المـرارة والشراسة ، رحت أتكلم بوحي من شعوري، دون ما تحفظ أو تلطف . وظلت هيلين تسمعني صابرة ، حتى النهاية . وتوقعت أن تعلق على ألفصل السابع

● بدا ربع العام الأول الذي قضيته في ( لوود ) دهراً ، ولكنه لم يكن دهراً ذهبياً ، وإنما اشـتمل على كفاح مضن مع العقبات التي كانت تعترض ترويض نفسي على النظم الجديدة ، والواجبات غمير المُـاْلُوفَة . وكان خوف الفشل في هذه الأمور أقسى إيلاماً لجــمي من المناعب البدنية التي كان على أن أحتملها ، وإن لم تكن بسيطة , وكان الجليد السميك يعوقنا عن أن تتحرك خطوة بعد أسوار الحديقة ــ اللهم إلا إلى الكنيسة ــ خلال يناير وفبراير وقسط من ماوس .. وظالنا على هذه الحال : حتى بعد ذوبان الجليد . ومع ذلك ، فقد كان علينا أن نقضى ساعة كل يوم في الهواء العللق ، داخل هذه الحدود . وكانت ملابسنا لا تكني لحايتنا من البرد الزمهرير ، ولم تكن لدينا أحذية ذات رقاب، فكان الثلج يدخل في أحذيتنا العادية، ويذوب فيها .. وتجمدت أيدينا العارية وكساها (القشف) ، وكذلك أرجلنا . وإني لأذكر تماماً الألم الذي كنت أعانيه في كل ليلة من جراء هذه الحال ، عندما التهبت قلماي .. والعـذاب الذي كان يتأتي من دس أصـابع قلــى المتورمة ، الخشنة ، المتييسة ، داخل الحذاءين في كل صباح . ثم إن كية الطعام الهزيلة كانت تبعث على الأسى ، إذ كنا \_ بنهم الأطفال في طــور تموهم - لا نكاد نصيب من الطعام ما يكني لبقاء مريض ، هزيل ، على قيد الحياة !.. وترتبت على هذا النقص في التغذية ، عادة سيئة اشتدت وطأتها على التلميذات الصغيرات : كانت الفنيات الكبيرات الجائعات يحرمن الصغيرات من نصيبهن من الطعام ﴾ بالإغراء أو بالوهيد . كالم الحياة الأخرى راحة .. مقر طمأنينة ، وليست موطن فزع ، أو هوة الحيلة الأخرى راحة .. مقر طمأنينة ، وليست موطن فزع ، أو هوة لحيقة .. ثم إننى بهذه العقيدة أستطيع أن أميز بين الحجرم وجريمته ، وفي وسعى أن أغفر للأول مخلصة ، بينما أستنكر الأخرى . . بهذه العقيدة لا يمكن للاهانة أن تثيرنى إثارة حميقة، ولا يمكن للظلم أن يسحقنى أبداً .. وإنما أعيش في هدوء، أرتقب النهاية » .

ومع أن رأس (هيلين) تنحنى دائماً ، إلا أنها از دادت اتحناء على صدرها ، وهي ننهي جملتها . وأدركت من نظرتها أنها لم تعد راغبة في الحديث معى ، وإنما أصبحت تؤثر أن تتحدث مع أفكارها الخاصة . على أنها لم تحظ بوقت كاف التأمل \* إذ ما لبثت أن قدمت إحدى (العريفات) ، وكانت فناة كبيرة ، خشتة ، فصاحت في لهجة أهل (كبرلاند) القاسية : ه إذا لم تذهبي ياهيلين بير نز فترتبي درجك ، وتطوى شغل الإبرة الخاص بك في هذه الدقيقة : فسأدعو (مس كاتشير د) لمكي تلتي نظرة عليه ! ع .

وتنهدت هيلين إذ تبدد خيالها ، وتهضت منصاعة لرغبة العريفة دون ما جواب أو لمرجاء .

兼 春 4

وشاء ما كان تلهفنا إلى ضوء النيرانالمستعرة وحرارتها عندما كنا نعـود !.. ولكن هـذا كان محرماً على الصنغيرات ؛ على الأقل : إذ سرعان ما كانت كل مدفأة في قاعة اللبوس تحاط بصفين من البنات الكبيرات ، وقمله انكمشت خلفهن الصغيرات وهن يجذبن أطراف مر اولحن على أفرعهن العجفاء . . وكنا نجد عزاء طفيفاً في موعد الشاي : متمثلا في نصيب مضاعف من الخبز :. شريحة كاملة بدلا من نصف شريحة ، وقد أضيفت إليها طبقة خفيفة ــ ولكنها لذيذة ــ من الزبد.. تلك كانت المنحة الأسبوعية التي نتطلع إليها من الأحد إلى الأحد . . وكنت أجبَّه عادة في أن أحتفظ بنصف هذه الوجبة السخية لنفسي ... أما الباقى ، فكنت أضطر دائمًا إلى التفريط فيه !.. وكنا نقضي مساء الأحد في (تسميع) دروس الدين والإصماحات الخامس والســـادس والسابع من أنجيل (مثي ) عن ظهر قلب ، وفي الإصغاء إلى ترنيمية طويلة تنشدها مس (ميلر) التي كان تناؤبها الملحاح يشي بتعبها .. وكثيراً ما كان يضاف إلى ذلك تمثيل جزء من (يوتيكس) ، تؤديه خمس أو ست من البنات الصغيرات ، اللاتي كن يسقطن ــ وقد غلبهن النعاس -- من ثالث أو رابع طبقة من المقاعد المصفوفة بعضها فوق بعض ، فيحملن شبه أموات .. وكان العلاج يتمثل في دفعهن إلى وسط حجرة الدرس ، وإجبارهن على أن يقفن هناك إلى أن تنتهي الصلاة ! وكانت أقدامهن تخونهن أحيـاناً " فيتهـالكن على الأرض " وإذ ذاك تخف الدريفات إلى استحثاثهن على النهوض! صنحت لهن الفرصة 1 وكم من مرة اقتسمت مع اثنتين من المغتصيات شريحة الخبر الأسمر الغالية التي توزع في الساعة الخامسة مساء ، وبعمد أن أقسم كتوبات قدح القهوة إلى تصفين ، ثم أقسم النصف الذي يبقى لى يصفين آخرين ، كنت أزدرد ما بتى لى مع النموع المستقرة ، التي ينتزعها الجوع من مقلني 1

وكانت أيام الأحد أياماً بغيضة في ذلك الشتاء ، إذ كان علينا أن نسير مسافة ميلين إلى كنيسة ( بروكلبريدج ) ، حيث يؤدي راعينا الطقوس الدينية : وكنا نبدأ الرحلة ونحن نشعر بالبرد ، فنصل إلى الكنيسة وقد اشتدت علينا وطأته؛ ولا نلبث أن نصبح شبه مشلولات خلال قاءاس الصباح. وكانت المسافة أبعاء من أن نتمكن من قطعهـــا والعودة إلى المدرسة قبل موعد الغداء ، ومن ثم كانت توزع علينا بين الطقوس وجبة من اللحم البارد والحبز، بنفس التقتير الذي كان يراعي في وجباتنا العادية ! وكنا نعود ــ بعد قداس بعد الظهر ــ خــلال طريق جبلية مكشوفة ، تهب عليها رياح الشتاء القارسة ، التي نطوف بسسلة من القمم الجليدية في اتجاهها نحو الشمال، فتهدأ جلود وجوهنا .. وما زلت أذكر مس (تمبل) وهي تسير في خطي خفيفة سريعة ، بجو ار صفنا المتداعي ، ضامة حول جسمها عباءتها التي كانت الريح الجليدية تداعبها ... وقد مضت تشجعنا وتضرب لنا المثل عملياً . حتى تحفظ بروحنا المعنوية ونسير قدماً ، مثل (الجنود البواسل) ، كما كانت تقول ! أما المفرسات الأخربات ، فيالهن من مسكينات !.. كن من التداعي والغم بحيث لا يقوين على محاولة إدخال البهجة على الآخرين إ

بأن ينبه مس تمبل والممرسات إلى خبث طبيعتي !.. وكنت طبلة الوقت أخشى تنفيذ هذا الوعد .. كنت أرتقب في كل يوم مجيء الرجل الذي كانت بياناته عن ماضي حياتي كفيلة بأن تصمني إلى الأبد بأنني فتاة سيئة الخلق !.. وها هو ذا قد جاء ، ووقف إلى جوار مس (تمبل) ، وراح يتكلم في أذنها بصوت خفيض ! ولم أرتب في أنه كان يفضي إليها بَخَبِّي ﴿. ورحت أَرقب عينها في قلق ألم ؛ متوقعة في كل لحظة أن أرى إنسائها الأسود يتجه أنوى في نظرة مستهجنة، مزدرية . ورحت أنصت !.. ولما كنت أجلس في مقدمة الحجرة ، فقد التقطُّت معظم ما قاله : فسرعان ما تبددت هو اجسى . إذ كان يقول : ﴿ أَظُنْ يَا مَسَ تميل أن الخيط الذي ابتعته من ﴿ لُوتُونَ ﴾ سيصلح . فقد خطر لى أنسه الصنف الذي يلائم الأقصة الدمور ، كما عثرت على إير مناسبة . ولك أن تذكري لمس سميث أنني نسبت أن أذكر إبر الرفو ، ولكنها لن تابث أن تتسلم كمية في الأسبوع القادم » وليس لهـا أن تعطى كل تلميذة أكثر من إبرة واحدة : في أي وقت ، مهما يكن الداعي ، فهن إذا وجدن أكثر من إبرة ، ملن إلى الإهمال ، وبددنها . ثم ، آه يا سيدتي ! . كتت أتمنى لو أن الجوارب الصوفية كانت أحسن منظراً !.. فعلدما كنت هنا آخر مرة ، ذهبت إلى حديقة المطبخ ، وفحصت المـلابس التي كانت منشورة على الحبل , كانت أنمة كمية من الجوارب السوداء فى أشد الحاجة إلى رتق ، وقد تأكدت من حجم الثغرات أنها لم نكن ترتق جيداً بين آن وآخر ۽ . . وأمسك عن الكلام ، فقالت مس تمبل ﴿ ه سأعنى بنوجيهاتك يا سيدى . . و سنطر ديمائلي : و و لقد أخبر تني

 ولم أشر بعد إلى زيارات ممتر ( بروكلهبرست ) . فالواقع أن هذا السيد كان بعيداً عن المنطقة خلال النسط الأكبر من الشهر الأول الذي أعقب وصنولي ، ولعله كان يطيل إقامته متعمداً مع صنديقه ( الأرشيدوق ) . وكان غيابه مبعث راحة لى ، وما أرانى بحاجة إلى أن أذكر أسباب إجفالي من مقدمه .. ولكنه قدم في النهاية !.. فبعد ظهو ذات يوم ـــ وكنت قد قضيت ثلاثة أسابيع في ( لوو د ) ـــ كنت أجلس وبين يدى لوح من الاردواز ، أعالج حل مسألة في القسمة المطبولة ، و فيها كنت أرفع رأسي ، اتجه بصرى في شرود نحو التافذة ، وإذا ي ألمح شخصاً بمر ، وعرفت – بالغريزة -- صاحب ذلك القوام الطويل-النحيل .. فلما وقفت المدرسة كلها ــ بمــا في ذلك المدرسات ــ بعـــد دقيقتين . لم يكن ثمة ما يدعوني إلى التطلع كي أستوثق من الشخص الذي نهضن نحية لمقدمه . . فقد طوت خطوة طويلة عرض حجرة الدرس. وسرعان ما انتصب إلى جوار مس تمبل ــ التي نهضت هي الآخري . . نفس (العمود الأسود) الذيأطل على في نذير من فوق سجادة حجرة الإفطار في (جيئسهيد) !.. وأخذت أوجه نظرات مختلسة ... من جوانب عيني ــ نحو هذا النصب !.. أجل ، كنت على حق ، فقد كان الزائر هو مستر ( بروكلهيرست ) ، وقد غاب جسمه في معطف ربلنا أطول قامة ، وأقل عرضاً ، وأصلب عوداً من ذى قبل !

وكان لى من الأسباب ما يبرر استيائى من هذه الزيارة ، إذ ما زلت أذكر الملاحظات المفتراة التى صدرت عن مسنر ريد ، حول مسلكى وخلق ... إلخ .. والوعد الذى قطعه مستر بروكلهبرست على نفسه

الغاسلة ما سيدتى ، أن بعض البنات يحصلن على ثوبين تظيفين ي الأسبوع الواحد ، وهذا كثير جداً ، إذ أن الأصول تحدد ذلك بثوب واحداه.

ـ أظنني أستطيع أن أشرح لك ذلك الظرف يا سيدي ، فقسد دعیت (آجنس) و (کاثرین) و (جونستون) لتنــاول الشـــای لدی بعض الصديقات في ( لوتون ) في يوم الخميس الماضي ، فسمحت لهن بأن يرتدين ثياباً نظيفة في هذه المناسبة .

فهز مستر بروكلهبرست رأسه ، وقال : ٨ حسنًا ، يمكن التجاوز مرة ، ولكني أرجـو ألا تدعى الظروف تنكرر كثيراً . وهناك شيء آخر أدهشني : لقد وجدت عند تسوية الحسابات مع مدبرة الدار ، أن وجبـة من الخبز والجبن قدمت مرتين للبنات خـــلال الأسبوعين الماضيين . فكيف كان ذلك ؟.. إنني أرجع إلى اللوائح ، فلا أجــد ذكراً لمثل هذه الوجبة . من الذي أدخل هذا التجديد ، وبأي حتى ٢ ۽ فأجابت مس تمبل : ١ أنا المسئولة عن هذا التصرف يا سيدي . فقمه كان الفطور سني، الطهو ، حتى إن التلميذات لم يستطعن تناوله ، ولم أقو على أن أدعهن يمكنن صائمات إلى موعد الغداء ! ه .

 اسمحى لى بملاحظة يا سيدتى : إنك ولابد تدركين أن فكرتى في تربية هؤلاء البنات تقوم على عدم تعويدهن عادات الترف والبذخ، بل ترويضهن على الخشونة ، والصبر ، وإنكار الذات . فإذا حـدث شيء تافه طارئ يذهب برغبتهن في الأكل ــ كإفسادالطعام أو التقتير

أو الإسراف في (تسبيك) صنف - قلا ينبغي أن يعالج الحادث بإبدال الشيء الحضيع بشيء سرفه ، وإلا أفسدنا الجسد ، وحدنا عن هــــــف هذا المعيد ! بجب أن يعمل على تحدين البنيان الروحي للتلميذات ، يتشجيعهن على أن يتذرعن بقوة التفس على تحمل الحرمان الموقوت . وإن محاضرة موجزة في أمثال هــذه الظروف لن تكون في غير وقتهــا المنساسب ، فإن المربية العاقلة تنتهز القرصة لتشير إلى آلام المسيحيين الأوائل . وإنَّى عذاب الشهداء ، وإلى نصائح السيد المسيح نفسه ، وهو يدعو رسله لأن يحملوا صليبهم ويتبعوه .. وإلى قوله : إن الإنسان لن يعيش على الخبز وحده . و إنما على كل كلمة تتبعث من فم الله ، و إلى مواساته القـــلسبة : ﴿ إِذَا عَانِيتَ الجَّــوعَ أَوَ العَطْشُ مِنْ أَجِلَى ﴿ فَمَا أسعدك ، ر. أو اه يا سيدتى ! . . إنك حين تضعين الخبز والجبن ، بذلًا من العصيدة المُحترقة ، في أفواه هؤلاء الأطفال ، إنما تغذين في الواقع أجسادهم الخسيسة ، ولكنك لا تفكرين كثيرًا في أنك تجيعين تقوسهم الخائدة!

و صمت مستر ( پروکلهیرست ) مرة أخرى ، ولعله کان يقلوم مشاعره . وكانت مس تمبل قد غضت بصرها حين شرع يتحدث إليها ولكنها الآن أخذت تحدق فيما أمامها بنظرة ساكنة ، وقد بدا أن وجهها – الشَّاحب في لون المرمر عادة – قد انخبذ من همذا الحجر بروده ، وجموده .. لا سما فمها الذي انطبق فكأنما كان بحتاج إلى إزميل تحـات ليقتحمه ، وجبيتهما الذي انعقسد على عبوس قساس .. وكان مسستر يروكنهيرست في هذه الأثناء يتأمل المدرسة بأسرها فيه حادل وعظمة.

ومرت مس تمبل بمنديلها على فمها وكأنها تمحو الابتسامة التي ارتسمت على الرغم منها عليه، ثم أصدرت الأمر .. فلما أدركت بنات الفرقة الأولى ما يراد منهن: أطعن . وإذ ملت قليلا إلى الوراء ـــ في مجلسي -- استطعت أن أرى الغمز ات والابتسامات الساخرة التي عقبن بها على هذا العمل .. ومن المؤسف أن مستر (بروكلهيرست) لم يكن يستطيع أن يرى ذلك ۽ هو الآخر ، وإلا فلعله كان يدرك أنه مهسا يفعل بالمظهر الخارجي للكوب والطبق .. فإن الجوف بعيد عن متناوله بأكثر تماكان يخال!.. وراح يتمعن في ظهور تلك التماثيل الحية زهاء غمس دقائق . ثم نطق بحكمه . ووقعت كلماته كالصماعقة : ﴿ يَجِبُ أَنْ تَقْصَ كُلِّ فَتَاةً هَذَّهِ الْخِصَلاتِ العليا ؛ .. ولاح على مس (تُعبل) الانز عاج ﴿ فَقَالَ : ٥ إِنْ لَى سَيْدًا يَا سَيْدَتَى ، بِحْبِ أَنْ أَحَدْمُهُ ، وَلَيْسَتُ عملكته في هذه الدنيا .. إن رسالتي هي أن أقتل في هؤلاء الفتيات كل شهوات الجمد ، وأن أعلمهن كيف يكسين أجسادهن في حشمة واعتدال . قال يظهر ل بشعور مشقة ، وثباب فخمة . ما من فتاة من هؤلاء الصغيرات إلا ولديها خصلة من شعر مجعدة في زينة ، ولعمل الغرور نفـه هو الذي عقصها !.. إنني أكرر أن كل هذا يجب أن يقص .. فكرى في الوقت الذي تبدد في ... . . وقطع عليه حديثه دخول ثلاث زائرات ، كان خليقاً بهن أن يصلن قبل تلك الخطبة ، ليسمعن محاضرته عن المظهر ، إذ كن متسربلات بثياب فخمة من المخمل والحرير والفراء !.. وكانت أصغر اثنتين من الثلاث ، وهمما فتاتان رقيقتان في السادسة عشرة والسابعة عشرة . ترتذبان قبعتين من

وقد وقت عند المدفأة ويداه خلف ظهره . وفيجأة ، طرفت عيشه ، وكأنها وقعت على شيء بهر مقلتها أو صدمها ، ثم التخت قائلا في لهجة متسارعة أكثر من ذي قبل : « مس تمبل . مس تمبل ، ما هدف . ما هدف النتاة ذات الشعر المجعد ؟ . شعر أحمر با سيدتى . . ومجعد . . هجعد من أوله إلى آخره ؟ ١١ . . ومد عصاد مشيراً إلى الشيء الذي أزعجه ، وقد أخذت يده ترتبف . فقالت مس تمبل في حدوء : إنها جوليا سيفيرن ١١ .

— (جوليا سيفيرن) يا سيائي ؛.. ولماذا يكون لها أو لسواها شعر مجمعا. ؟.. لماذا تساير الحياة الدنيا علناً بهذا الشكل ، يرغم كل مبدأ وخطة لهذه الدار - وهي مؤسسة إنجيلية ، خيرية - فتجعد شعرها من أوله إلى آخره ؟

فقالت من تمبل ، وهي أهداً من ذي قبل : « إن شعر جوليها بحدا، بطبيعته ! » .. فهنف : « بطبيعته ! .. ولكنا نجب ألا نرضخ للطبيعته ! . ولكنا نجب ألا نرضخ للطبيعته . إنني أرغب في أن تكون هؤلاء الفنيات متابينات ، فلإذا التساهل لا. لقيد نبهت مراراً وتكراراً إلى أنني أريد الشهر منسقاً في استرسال، وبساطة ، وخلو من الزخوف .. يجب أن يقص شعر هذه البنت عن آخره با مس تمبل، وسأرسل غداً حلاقاً .. ثم إنني أرى فتبات لخريات خوالت شعور نامية أكثر مما ينبغي .. قوني لهذه الفناة الطويلة أن تعض ، فنولى وجوهها شطر الحائط ! » .

فانحنبت ألتقط حطام اللوح ، واستجمعت قواى لأسبوأ ما يأتى به الظرف.. وسرعان ما أتى إ.. فقد قال مستر بروكلهيرست : « يا فنا من بنت مهملة ! » .. ثم أردف فى الحيال : « أرى أنها التلميذة الجديدة ، .. وقبل أن أتمالك نفسى - قال : « يجب ألا أنسى أن لدى كلمة بشأنها » .. ثم استطرد بصوت أعلى – وأيما علو ! – : « لتأت الطفلة التى كسرت اللوح إلى هنا ! » .

وما كنت لأتوى على الحراك من تلقاء نفسي، إذَّ شل حراكي، ولكن البنتين الكبيرثين ، اللتين كانتا تجلسان إلى جانبي ــ من الناحيتين – أوفَّنانَى على سافى، ودفعتاني تحو القاضي الرهيب. وإذ ذاك ساعدتني مس تحبل في رفق لأقف أمامه، وسمعتها تهمس مسرية عني : الا تخافي يا جين، لئند رأيت أن الأمركان عفواً .. لن تعافيم ! ١ .. وغاصت الهمسة اللطيفة في قلبي كالخنجر ! . . وجال يخاطري : a أنها لن تلبث بعد دقيقة أن تحتقرني كفتاة غشاشة ! ٣ .. وانسابت في عروقي نفثة من حقد نعو ( ريد) ، و (بروكلهيرست) ، وشركائهما ، إذ ذاك ، فقلت لنفسي إنني لست على غرار (هيلين بيرنز) .. بينها قال مستر بروكلهيرست، مشيراً إلى مقعد مرتفع ، غير ذي ظهر أو مسندين ، نهنست عنه إحمدي العريفات : ٥ أحضرن هـذا المقعد ، . . فجيء بالمقعد !.. وقال: ﴿ أَجِلَسِنَ الطَّفَلَةُ عَلَيْهِ ! » .. فرفَعَتْ إليه، وإنَّ لم أدر من التي رفعتني ، فما كنت في حال ألاحظ معهما مثل هــذه التفصيلات . وغاية ما هنالك أثني أحسب بنفسي أرفع إلى ارتضاع أنف مستر بروكلهيرمت ، وأبصرت أنه على قبل المؤتني . وأن الفراء الرمادى حَمَّا كان الطراز الشائع إذ ذاك وقد زانهما ريش الطاووس. ومن تحت حواف هاتين التيعتين الأنيقتين كانت تنسل خصل من الشعر الخفيف، مجعدة في عناية بديعة . أما السيدة الكبيرة ، فكانت منشحة بشيال مخملي ثمين ، زركشت أطرافه ، وقيد ارتدت فلكنوة من شعر مستعار ، نسق على النظ الفرنسي !

奉 恭 告

 استقبات مس (تمبل) السيدات باحترام - بوصفهن مسز بروكلهيرست وابنتيها ــ ورافقتهن إلى مقاعد الشرف في صدر الحجرة. ويدًا أنهن جُمَّن في العربة مع قريبهن الموقر ، فاقتدن في جـوالة لتفقد حجوات الطابق الثاني ، بينها كان هو يحسب مديرة الدار ، ويسأل الغامسلة ، ويلتى محاضرته على الناظرة . ولم يلبثن أن شرعن في إبداء مختلف الملاحظات والانتقادات لمس (سميث) التي كانت موكلة بالعنماية بالبياضات ، وبتفقد حجرات النوم . ولكني لم أجــد وقتاً للإنصات إلى ماكن يقلن ، إذ أسرت انتباهي شئون أخرى . كنت أثناء الثقاط حديث مستر بروكلهيرست ومس تمبل – من قبل – لم أغفل اتخاذ الحيطة لصان سلامتي الشخصية ؛ التي خيل إلى أنها تغملو معرضة للخطر إذا أنا استلفت الانتباه | ومن أجل هذه الغاية انكشت في المقعد، وبينها كنت أتظاهر بالانهماك في مسألتي الحسابية . أمسكت لوحي الاردوازي بطريقة تخني وجهي. ولعلني كنت أفلت من الانتياه اجتذبت الأنظار تحوى مباشرة ! . . وأدركت أن كل شيء قد انتهى ، تصرفاتها ، وأن تعاقبن جسدها ، لإنقاذ روحها .. إذا كان مثل هذا الإنقاذ ممكناً حقاً الخان مثل هذا الإنقاذ ممكناً حقاً ، لأن ـ وكم يتلعثم لسائى إذ أقولها ـ لأن هذه اللبت، هذه الطفلة . المواطنة فى أرض مسيحية ، أسوأ بكثير من أية كافرة صغيرة ترفع صلاتها إلى ( يراهما ) ، وتركع أمام ( جودجرناوت ) .. هذه البنت .. كذالة ! ه .

وأعنب ذلك صمت دام عشر دقائق ، رحت أتأمل خلالها – وقاء استعدت كل حواسي - جميع إناث أسرة بروكلهبرست الموجودات ، وهن يخرجن مناديلهن الصغيرة ، فيرفعتها إلى عيونهن ، وقد أخملت السيدة الكبيرة تهتر إلى الأمام وإلى الخلف ، والصغيرتان تتهامسان : » ما أغرب هذا 1 » . . واستأنف مستر بروكلهيرست قائلا ; « هــذا ما علمته من ولية تعملها .. من السيدة النقية ، البارَّة ، التي كفاتهما في تينسيا . فربتها كاينتها .. والتي قابلت الفتاة النعسة كرمها وسخاءهـــا بعقوق يلغ من السوء والبشاعة أن اضطرت ولية نعمتها النبيلة - . في آخر الأمر – إلى قصلها عن أبنائها ، خشية أن يلوث مسلكها الفساسد طهرهم ونقاءهم . ولقد أرسلتها إلى هنا لتعالج ، تماماً كنا كان اليهـود في المناضى يرسلون الموبوئين إلى بحيرة (بتيسما) الجارية المياه .. وإني لأرجوكن أينها المدرسات ، وأيتها الناظرة ، ألا تسمحن للمياه بأن تركد حولها . . ومع هذه الخاتمة الرائعة ، أصلح مستر بروكلهيرست وضع الزر العلوى لمعطفه ، وعمغم بكايات إلى أسرته ، فنهضن وأومأن برموسهن تحية لمس تمبل ، ثم خرج علية القوم في جلال من الغرقة. وإذ بلغ ( قاضي ) الباب ، النفت قائلا : عارَجَنَا تَقَعْ دَنْصَافِ سَاعَةُ

مساحة من أقشة حريرية برنفالية وقرمزية انتشرت أماى، وتحامة من ريش فضى امتدت مرفرفة تحتى .. وقال مستر بروكلهيرست وهو يلفت لأسرته : « أيتها السيدات ، ويا مس تحبل ، وأيتها المدرسات والتلميذات : هل تبصرن جميعاً هذه البنت ؟ ٤ .. وكن يبصرنني بالطبع إذ كنت أشعر بأعينهن موجهة نحوى ، وكأنها عنسات حارقة تكوى جلدى 1 .. واستطرد يقول : « إنكن ثرين أنها ما تزال صغيرة بوتلاحظن أن لها شكل الطفولة العادى ، إذ أنع الله عليها بنفس الشكل اللدى أضفاه علينا جميعاً - فليس هناك عبب واحد يميزها عنا يميزة ملحوظة . فمنذا الذي ينصور أن الشرقد وجد فيها خادماً ومعناً ٢٠. ومع ذلك ، فشاء ما يحزنني أن أقول إن هذا هو الواقع ! ) .

وسكت هنيهة ، رحت خلالها أثأمل نبض عروق ، وأنا أشعر بأن الخطوة الحاسمة قد تمت ، وأنه ما دام لم يعدد تمة سبيل لتفادى المخاكة ، فن الواجب أن أصمد لها ! . وعاد رجل الدين الرخساس الاسود ، يقول فى تحمس : ه يا بناقى العزيزات ، إن هذه مناسبة عزنة ، مؤلمة ، إذ أصبح من واجبى أن أندركن بأن هذه البنت ، التي كان من الممكن أن تكون واحدة من حملان الله . ليست سوى مارقة صغيرة . ليست من القطيع الإلهى الحقيق، وإثما هى فى الواقع دخيلة وأجنية عنه . . فعليكن أن تحدرنها ، وأن تعرضن عن مثلها ، وإذا دعت الضرورة ، فتحاشين صبها ، واقصيها عن ألعابكن ، واحرمها من أحاديثكن ، وأنن أيتها المدرسات : يجب أن تراقيتها ، وأن تجعلن مؤن تعنين بوزن كاياتها ، وأن تفحصن يدقة أعينكن على حركائها ، وأن تعنين بوزن كاياتها ، وأن تفحصن يدقة

ساعات اليوم 🛚 .

أسقطت المداد على الكراسة وهي تنقل أحد الدروس ? هكذا هي طبيعة البشر :: طبيعة ناقصة ! .: إن مثل هذه العيوب التافية لأشبه بالبقـم التي ترى على وجه أنصع الكواكب صفاء ج: ولكن عينين كعيني مس سكاتشبرد ، لا تربان سوى تلك العبوب البسيطة على وجه الكوكب ، وتعميان عن تألقه الكامل ا

وهكذا أصبحت أقف عالياً ، أنا التي قلت من قبل إنني لا أنوى على أن أحتمل الوقوف العادي على قدى في وسط الحجرة .. أصبحت عرضة لأنظار الجميع : على منصة الخزى !.. أما كيف كانت مشاعري ، فهـذا ما لا قبل للغة بوصفه ، ولكن .. بينها جاشت هـذه المشاعر تخنق أنفاسي وتسد حلتي ، أقبلت فناة فمرت ي . ورفعت في مرورها عينيها ، فما كان أغرب الضوء الذي أومض فيهما !.. وأى شعور خارق بعثه في أعماقي هذا الوميض 1.. لكيرونسي هذا الشعور الجديد عالياً ! . . كأنما مر شهيد، بطل ، بعبد مستضعف أو ضحبة . فبث فيه قوة وجلداً .. وإذا بي أتغلب على الانفعال الجنوني: فأرفع رأسي ، وأعتدل في وقفتي على المقعد . وإذ وجهت ( هبلين ببرلز ) سؤالا تافها عن شغل الإبرة إلى مس (سميث ) - كحجة لمغادرة مقعدها والمرور بموقفي – تلقت تأنيباً على تفاهة السؤال ، فعادت إلى مكانها ، وابتسمت لي في عودتها .. وأي ابتسامة !.. إنني ما زلت أذكرها ، وإنى لأدوك أنبا كانت فيض إدراك مرهف ، وشجاعة صادقة .. كانت ابتسامة أضاءت ملاعمها اللقيقة ، ووجهها الناحل ، وعينيهــا المغبرتين الغائرتين ، وكأنها انعكاس أنوار أحد الملائكة !.. ومع ذلك فقد كانت (هياين بيرنز) تحمل في ذلك الوقت شريطًا حول فراعها، يصمها بأنها مهملة .. ولم تكن قلد مضت سناعة على سماعي مس سكانشير د تقضى عليها بأن يكون غداؤها في الغد خبرًا وماء ، لأنها



## الفصل الثامن

 ما إن انتهى نصف الساعة ، حتى دقت الساعة معلنة الخامسة ، فانصرفت المدرسة ، وذهب الجميع إلى المطعم لتناول الخبز والقهوة . وجسرت إذ ذاك على الهبوط عن المقعد , وكانت العنمة تشتد: فأويت إلى ركن ، وجلست على الأرض .. كانت نوية الشجاعة التي لأزمتني حتى ذلك الوقت قد يدأت تنصهر وتذوب ، فحل محلها رد الفعـل ، وسرعان ما دفعني الأسي الجائح الذي استبد ني ، إلى أن أنكني، على الأرض.. ورحت أبكي !.. ولم تكن هيلين بيرنز موجودة ، فلم يكن أنملة ما يكبحني عن البكاء ، فأسلمت نفسي له ، وراحث دمـوعي تروى أخشاب الأرض . لفد كنت أعترم ألا أكون صالحة ، طيبة ، وأن أعوض في ( لوود ) الكثير تما فاتني ، فأنخذ كثيراً من الصديقات وأظفر بالاحترام، وأكسب العطف . ولقاء أحوزت بالفعل تقدماً ملجوظاً في هذا الصدد، واستطعت في صباح هذا اليوم بالذات أن أغدو على رأس فوقتي، فأطرتني مس ميلر بحرارة، وابتسمت مس تمبل مكافأة لى ووعدت بأن تعلمني الرسم، وأن تسمح لى بتعلم اللغة الفرنسية ، إذا ظللت أحرز مثل ذلك التقدم لمدة شهرين ... وإذ ذلك ، أحسلت زميلائي استقبالي، فعاملتني قريناتي في السن معاملة الند ناند . ولم تتحرش بى أية فتاة . أما الآن، فها أنذا أرتمي مرة أخرى، مهانة، محطمة ، أفأملك أن أنهض مرة أخرى ؟.. وهمس خاطر في نفسي : 

الرغبة باكية : يصوت مهلج ، اقترب منى شخص ما، فأجفلت .. ومرة أخرى ، وجلت (هيلين بيرنز) قريبة منى .. وكشفتها السار المحتضرة فى الملفأة وهى تقترب خلال الغرقة الخالية، وقد حملت إلى قهوتى وخبزى ، وقالت : « هيا ، كلى ! » .. ولكنى أقصيتهما معا عنى ، وأنا أشعر بأن قطعة و احدة من فتات الخبز كفيلة بأن تخنقنى فى حال تلك ، و تأملتني هيلين : ولعلها كانت في عجب من أمرى .. ولم أعد أتمالك انفعالى ، برغم أنى حاولت جاهدة ، فواصلت البكاء بحيشة . وجاست هي على الأرض بجوارى، محتضنة ركبتيها بلراعيها مستدة وأسها إليهما، وظلت على هذا الوضع صامنة ، كهندية مستغرقة في التأمل!

وكنت البادئة بالكلام ، فقلت : « لمباذا تحكثين يا هيلين مع فتاة يعتقاد كل امرئ أنها كذابة ؟ »

.. كل امرئ يا جين ؟.. كيف ، وفيس هناك سوى تمسانين شخصاً سمعوا هذا الوصف يطلق عليك .. في حين أن الدنيــا تسسع مثات الملايين ؟

ــ وما شأفي بالملايين ٢.. إن التمانين اللائي أعرفهن يحتقرنني ؟

\_ أنت مخطئة يا (جين) .. بلى من المحتمل أن ليس فى المدرسة واحدة تزدريك أو تكرهك .. إننى والثمة من أن كثيرات يرئين لك كنعراً .

- وكيف يرثين لى بعد اللَّمَى أُولُهُ مَا مُرَّا مُرَوَّاتُونِ تُ

 صه ياجين!.. إنك تبالين بحب البشر أكثر مما ينبغي!.. إنك مندفعة في عواطفك وتحممك كثيراً .. إن اليد العليا التي خلقت هيكلك، وأودعته الحياة ، قد أمدتك بموارد أخرى غير نفسك الضعيفة ، وغير المخلوقات الضعيفة مثلث .. إن هناك – إلى جانب هذه الأرض ، وإلى جانب الجنس الإنساني ــ دنيا أخرى غير منظورة ، ومملكة للأرواح .. وهــذه الدَّنيا تخيط بنــا ، لأنها في كل مكان . . وتلك الأرواح ترقبنا ، لآنها موكلة بحراستنا ، فإذا كنا نموت من الألم والخزى ، وإذا كان الازدراء يصفعنا على كل جانب ، والحقد يسحقنا ، فإن الملائكة تشهد عذاينا ، وتلوك براءتنا ، إذا كنا أبرياء ، وإنى لأعرف أنك براء من ذلك الاتهام الذي ردده مستر بروكالهيرست ــ في ضعف وزهو -- نقلاً عن مسز ريد ، إذ أنني أرى في عينيك المتألقتين،وعلى جبيتك الناصم ، طبيعة مخلصة و فطرة صادقة . . ولا ينتظر الله إلا انفصال الروح عن البدن ، لكي يتوجنا بالجزاء الكامل .. فلهاذا ، إذن ، ننهار تحت وطأة الأسي ۽ إذا كانت الحياة لا تلبث سراعاً أن تنقضي ، وإذا كان الموت ملخلا أكيداً إلى السعادة .. إلى المجد ؟

於 恭 恭

■ وكنت صامنة ، فقد هدأت هيلين نفسى ، غير أن نوعاً من الأسى الذي لا يوصف ، كان يرين على الطمأنينة التى بسطتها ، وكنت أحس يللم خلال كلامها ، ولكنى لم أك أدرى مأتاه .. فلم فرغت من حديثها ، تسارعت أنفاسها قليلا ، ثم أرسلت معالا قصيراً ، فنسيت فى تلك للخطة هموى . لأستغرق فى قلق مبهم من أجُنها ، وأسلات رأسي إلى

ان مستر بروكله پرست ليس إلها، بل إنه ليس رجلا عظيماً، موضع إعجاب وفخر .. إنه لا يحظي بكثير حب هنا ، فهو لا يتخذ قط أيت تعبه إلينا . ولو أنه عاملك في إيثار خاص ، لوجدت عداء سافراً أو مستراً يحيط بك من كل جانب .. أما وهذه هي الحال فإن أكثرهن لن يحجمن عن إبداء العطف لك ، إذا استطعن .. لقد ترمقك المدرسات والناميذات في فتور ليوم أو اثنين ، ولكن في فلوبهن ود مستر ، ولو آنك واظبت على التحسن ، فإن هذه العواطف لن تلبث حتى تظهر، وستكون أكثر جلاء بقدر ما هي مكبوتة في الوقت الحاضر . وبجانب هذا يا (جين) ..

وأمسكت ، فوضعت يدى في يدها متسائلة : ٥ ماذا يا هيلين ٢ ٥.. فأخذت تدلك أصابعي في رفق لندفتها ، ثم قالت : ١ مهما كرهتـك الدنيا بأسرها ، واعتقدت أنك خييثة ، فلن تعدى الأصدقاء طالمــا كان ضميرك يقر مسلكك ، ويعفيك من الذنب ! ٨.

## أحقاً يامس تمبل ؟

فقالت وهي تحيطني بذراعها : « لسوف توفقين ., والآن ، أخبريني : من هي السيلة التي دعاها مستر بروكلهيرست ولية نعمتك ؟ « .. فقلت : «مسز ريد ، زوجة خالي .. لقد مات خالي وتركني لرعايتها » .

إذن فهي لم تكفلك من تلقاء نفسها ؟

لا یاسیدنی، بل إنهاکانت آسفة لأن تفعل ذلك، ولكن خالی
 کما سمعت الخدم یقولون کثیر آ مد حملها علی أن تقسم له قبل وفاته ،
 بأن تكفلنی دائماً .

- حسناً با جين ، إنك لتعرفين ، أو بالأحرى لسوف أخبرك أنه عندما يتهم بحرم بذنب ، فإنه يحظى دائماً بحق الكلام للدفاع عن نفسك أماى بقدر ما يسعك نفسه . ولقد الهمت بالكذب، قدافعي عن نفسك أماى بقدر ما يسعك الدفاع . . قولى كل مانوحى إليك ذاكرتك بأنه حقيقة ، ولكن لاتضيني من عندك شبئاً ، ولا تبائني في شيء .

وعزمت - في قرارة نفسى - أن أكون معتدلة ، وصادقة ما استطعت : وبعد أن فكرت ليضع دقائق ، لكي أرتب ما كان لدى من تول - رويت لها كل فصة طفولتي الحزينة . وكانت لحجتي - وقد أو هقني الانفعال - أقل استعاراً مما يحدث عادة كلما شرعت في سرد هذه القصة الحزينة . وحشوت القصة بأقل مما اعتدت من مظاهر السخط والكراهية ، وأنا مليئة الذهن بتخدرات علين المستسلام

كتف هيلين ، وأحطت وسطها بذراعي ، وجنسها إلى .. وم يطل جلوسنا كذلك ، إذ لم بلبث أن أقبل شخص آخر .. وكانت بعض السحب المثقلة قد انقشمت عن السهاء تحت دفع الربح التي هبت إذ ذلك ، فكشفت وجه القمر ، وإذا ضوؤه ينساب خلال نافذة قريبة ، ويشع علينا معاً ، وعلى الشبح الذي كان يقترب ، قمرقنا فيه على الغور مس تمبل . وقالت : « جثت أبحث عنك خصيصاً باجين إير .. إنى أريدك في غرفتي ، وما دامت هيلين بيراز معنك . فلها أن نأتي هي الأخرى » .

و ذهبنا . في إثر الناظرة ، مجتازات بعض الردهات المتشايكة ، ثم صعدنا سلماً ، قبل أن نصل إلى الحجرة . وكانت تضم تاراً مستعرة في المدفأة ، تلوح بهيجة للعين . وطلبت مس تمبل من هيلين بيرنز أن تجلس في مقعد منخفض ذى ذراعين ، إلى أحد جانبي المحدفاة ، ثم المخذت لنفسها مقعداً آخر ، وسألتني أن أقف إلى جوارها ، ثم سألتني وهي تتأمل وجهي : « هل انتهت الفورة ؟ . . هل سكبت حزنك في الدموع ؟ » .

\_ أخشى ألا يقدر لى ذلك أبدأ .

\_ ولماذا؟

لأننى انهمت ظلماً ، وأنت ياسيانى وكل امرئ آخر يظنى
 الآن خبيثة ,

لن نظن بك إلا ما تبينينه بنفسك عن نفسك ياطفلتي .. استحرى
 في التصرف كينت صالحة ، وبهذا ترضيننا .

للبغضاء ، فجاءت قصتى فى مظهرها المبسط أفرب إذالعقل والإقناع ، وشعرت وأنا أمضى فيها أن مس تمبل كانت تصدقنى كل التصديق . وكنت فى سياق القصة قد ذكرت مستر ( لوبد ) وكيف جاء يعودنى بعد النوبة ، لأننى لم أنس إطلاقاً الفترة الرهية — آما كنت أراها — التى قضيتها فى الغرقة الحدواء ، حتى أننى إذ وحت أروبها ، شعرت بأن انفعالى يوشك أن يحطم الحدود — التى تقيدت بها — إلى حد ما ، فليس ثمة شيء يقوى على تخفيف وطأة العذاب الذي اعتصر قلبى عندما نانية فى الحجرة المظلمة ، الحفيفة ! . . وإذ انتهت ، تأملتنى مس تمبل فى صمت لبضع دقائق ، ثم قالت : « إنهى أعرف شيئاً عن مستر ( لويد ) ، وسوف أكتب إليه ، فإذا جاء رده مصداقاً لروايتك ، فأعلن للجميع وسوف أكتب إليه ، فإذا جاء رده مصداقاً لروايتك ، فأعلن للجميع براءتك من كل وصقة . أما بالنسبة لى : فأنت الآن بريئة باجين ه .

وقبلتني ، وهي ما نزال تستبقيني إلى جوارها ، حيث كنت سعيدة بالوقوف ، إذ كنت أستمد من تأمل وجهها ، وثوبها ، وحليها القليلة ، وجبينها الناصع ، وخصلاتها المنسقة ، الملامعة ، وعبنيها السوداوين البراقتين : متعة صبيانية .. وما لبثت أن تحولت تخاطب هيلين بيرنز قائلة : « كيف أنت الليلة ياهيلين ؟ .. هل سعلت كثيراً اليوم ؟ • .

أظننى لم أسعل كثيراً جداً باسيدتى .

ـــ والألم الذي في صدرك ؟

ــ لقد تحسن قلبلا .

فنهضت مس تمبل ، وتناولت بد هيلين تتفقد نبضها ، ثم عادت إلى مقعدها : وفيا هي تجلس : سمعتها تتنهد في خفوت ، واستغرقت في التفكير لبضع دقائق ، ثم تهضت قائلة في ابتهاج : ٥ ولكنكما ضيفتاي الليلة ، فيجب أن أعاملكما كضيفتين ! » .. ودقت الجرس ، ثم قالت للخادم التي لبت النداء : ﴿ إِنْنِي لَمُ أَتْنَاوِلَ الشَّايُ بِعَدْيًا بِرِبَّارِا ، فأحضريه ؛ وضعي قلحين لهاتين السيدتين الشابنين ٥ .. وسرعان ما جيء بالشاي .. وما أبدع ما بدت الأقداح الصينية وإبريق الشاي اللاسم لعيني : وهي مستمرة على منضدة مستديرة صغيرة ، بجوار المدفأة ! .. وما كان أجمل شذى يخار الشاى ، وعبير الخبر المحمص ، الذى لم أصب منه سوى نصيب صغير جداً : الحيبة أملي : إذ كنت تمد بادأت أشعر بالجوع . وكذلك لم تصب منه مس تميل ما كان يرضيها ﴿ فقالتُ : ﴿ هَلَ لَكُ فَي أن تحضري مزيداً من الخبر والزبد يا بربارا، فليس هنا ما يكني لثلاثة ٢٪. فخرجت برباراً ، وسرعان ما عادت تقول : ﴿ إِنَّ مُسْرُ هَارُدُنْ تَقُولُ ياسيدتي إنها قد أرسلت الكمية المعتادة ٪ . وكانت سنز هاردن مدبرة الدار ، المقربة إلى مستر بروكلهبرست له إذ كانت مثله ، من عظام وحديد ! . . فتحولت مس تمبل قائلة : ١ حسناً جداً ، يجب أن نقنع يهذا يا بربارا . فيا أرى ! ه . . ثم أضافت مبتسمة : عناما انسحبت الفتاة : ٥ إن في وسعى لحسن الحظ أن أعوض النقص في هذه المرة ٢.. ودعتني وهبلين كي نقترب من المنضاة ، ووضعت أمام كل منا قدح شاي ، وقطعة من الخبر شهية وإن كانت تحيلة . ثم نهضت ففتحت درجاً ، وأخرجت منه لفافة من الولوق . كففت لأعباننا –حين العينين اللتين اكتسبتا فجأة جمالا أكثر روعة من جمال مس تمبل نفسها .. جمال لايعتماد على لون البشرة ، ولا على أهداب طويلة ، أو حاجبين رشيقين كأتهما قلد خطا بالقلم ، وإنما كان جمالا يعتماد على المعنى ، والحركة ، والإشراق .. إذ ذاك قفزت نفسها إلى شفتيها ، فندفق الكلام من نبع لم أكن أدريه .. فهل لفتاة في الرابعة عشرة قلب من الكبر ومن القوة ، جيث يتسم لاستيعاب النبع المتدفق بالعلهر ، والصفاء ، واللباقة السلسة ؟ .. مكنا كان طابع حديث هباين في تلك الليلة المشهودة ، في رأي .. كانت روحها تباد وكأنها تنعجل الحياة في فترة جد قصيرة ، كما ينعل الكثيرون خلال وجودهم في مواقف تعوقهم عن المغيى

و تحدثت الاثنتان عن أشياء لم أسمع بهاء ن قبل قط إ .. عن أمم وعن عصور ماضية . وعن بلاد بعيدة . وعن أسرار الطبيعة كشفت أو كانت محور حدس وتحمين .. تحدثنا عن الكتب . وما أكثر ما قرأتا منها ! . . أية كنوز من المه فقة كانتا تمتلكان ! .. لقد لاحتا إذ ذاك على دراية بالأسماء الفرنسية و المؤلفين الفرنسيين .. على أن عجبى بلغ فروته عندما سألت مس تمبل ( هيلين ) مما إذا كانت تنزع من وقتها لحظات .. في يعض الأحيان .. لتستعيد اللغة اللاتينية التي لقنها إياها أبي ها ؟ . ثم تناولت كتاباً من أحد الأرفف ، و دعنها نقر اهذ ، وهي تعين لها صفحة من شعر ( فيرجيل ) ، فأطاعت هيلين ، وشعورى بالتقدير والتوفير يزداد مع كل سطر تقرؤه .. ولم تكد تنتهى حتى أعلن الجرس موعد النوم، مع كل سطر تقرؤه .. ولم تكد تنتهى حتى أعلن الجرس موعد النوم، ولم يكن ثمة بجال لأى تأخر ، فاحتضائنا في المنا المجرس موعد النوم،

فضنها ــ عن كعكة من القسح .. لا يأس بججمها . وقالت : «كنت أعتزم أن أعطى كلا منكما جزءً من هذه تأخذانه معكما . ولكن ، لما كان الخبز المحمص قليلا ، قلابد لكما من التهامها هنا » .. وشرعت تقسمها إلى شرائح ، في سخاء !

وأكلنا في ذلك المساء . وكأننا كنا تجلس إلى مائدة حاقلة ، ولم تكن ابتسامة الرضى التي راحت مضيفتنا ترمقنا بها ، ونحن نشبع نهمنا بالوائِمة البسيطة التي تطوعت لدعوتنا إليها ، بأقل المياهج التي آثرتنا بها .. فمحين فرغنا من الشاي ، ونقلت أدواته من الغرفة ، دعتنا مرة أخرى إلى جوار المدفأة ، فجلستا - كل منا إلى أحد جانبيها - ثم دار حديث بينها وبين هيلين ، كان من الحظوة حقاً أن يسمح لي بسياعه . لقد كانت مس تميل دائمًا محوطة بنجو من الوقار ، وكانت على قدر من الجلال في طلعتها ، ومن الأسلوب الراقي في لغتها ، مما كان يحول دون شرود ذهن الشخص التواق المتلهف إلى مجالستها .. كان لها شيء مأ يحد من منعة أولئك الذين يتأملونها ، وينصنون إليها : إذ يوحى إليهم بشعور من التوقير .. وهكذا كان إحساسي إذ ذاك ، أما إحساسي تحو هيلين بير نز فقد تمثل في أنني رحت أعجب لها 1 .. فإن الأكل المنعش ، والنار المتأججة ، ووجود أستاذتها المحبوبة وما حظيت به من كرمها .. أو ريمًا كان هناك فوق كل ذلك شيء ما في عقلها الفذ ، أوقظ مواهبها في أعماقها ، فإذا بها تذكو وتستعر ، فتتألق – في بداية الأمر – في حمرة خديها اللذين لم أكن حتى الساعة قد عهدتهما إلا شاحبين - غائضي الدم .. ثم شع ذلك الاستعار في البريق الرجر اج الذي تبدي في عينيها .:

■ بعد حوالى أسبوع من الحوادث السالف ذكرها ، تلقت مس تمبل رداً من مستر (لويد) – وكانت قدكتبت له – ولاح أن ما قاله عزز روايتى ؛ إذ جمعت مس تمبل المدرسة ، وأعلنت أن تحريات أجويت بصدد الاتهامات التي عزيت إلى جين إبر ، وأنها أشد ما تكون سعادة إذ أصبح في مقدورها أن تعلن براءة (جين) التامة من كل وصمة . وإذ ذلك صافحتني المدرسات وقبلتني ، وسرت في صفوف زميلاتي ضعفة راضية !

وإذ تخلصت من العبء المحزن ، بهذا الشكل ، شرعت منذ تلك الساعة في العمل من جديد ، وقد عقدنت العزم على أن أتغلب على كل عقبة . واجنهدت ، فإذا نجاحي يأتي متناسباً مع جهودي .. وأخذت ذاكرتي - التي لم تكن يوماً جامدة - تتحسن بالمران ، كما أن الواجبات أرهفت ذكائى .. وإن هي إلا أسابيع حتى نفلت إلى فرقة أعلى . وفي أقل من شهرين : سمح لى بأن أبدأ فى تعلم الفرنسية والرسم . وحفظت التصريفين الأولين لفعل الكينونة (ETRE) ، ورسمت في اليوم ذاته أولُ كوخ صوره قلمي . وكانت جلرانه ــ بهذه المناسبة ــ تنافس جدران برج (بيزا) في الميل ! .. وفي ذلك المماء ، نسبت ــ وأنا آوي إِنَّى مُحَدَّعِي – أَنْ أَعِدْ فِي خَيِانِي العِشَاءِ الوَّهِي الذِّي كَانَ يِتَّالُفُ مِنْ يطاطس محمرة ساخنة ، أو من خبر أبيض ولبن حليب ، والذي كنت أتخيله لأرضى النروات التي كانت تراود نفسي . وإنما استمرأت - بدلًا منه - منظر وسومات مثالية ، تراءت لي في الظلام ، وكلها من رسم يدى : بيوت ، وأشجار ، وصخور لهائلة، وأطاراك ، ووقطمان من تضمنا إلى صدرها: « ليبارككما الله يا ابنتي ! » . . وظلت معانقة هيلين فترة أطول مما عانقتني ، ولم تخليها إلا كارهة : وظلت هيلين محط بصرها حتى بلغنا الباب ، ومن أجالها أرسلت للمرة الثانية زفرة محزونة، ومن أجلها مسحت عن خدها دمعة !

وإذ بلغنا غرفة النوم سمعنا صوت مس سكاتشررد ، فقد كانت تتفقد الأدراج ، وكانت قد جذبت درج هيلين لتوَّها ، فلم دخلتا ، قوبلت هيلين بنأنيب حاد ، وأنبئت بأن الني عشر شريطاً من أشرطة الإهمال ستعلق على كتفها في البوم التالى . وغمغمت هيلين تقول لى في صوت خافت : « لقد كانت أمتعتى غير منسقة بشكل معبب ، فعلا ، وكنت أعتزم ترتيبها ، ولكنى نسيت ! » .

وفى الصباح التالى ، كتبت مس سكاتشير د بحروف كبيرة ، على قطعة من الورق المقرى المصمغ ، كلمة (مهملة) ، ولفتها كاللافقة حول جين هيلين العريض ، الناعم ، الناعلق بالذكاء والدعة . وظلت هذه ترتديها حتى المساء صابرة ، غير متذموة ، وهي تعتبرها عقاية نستحقه . وما إن انسحبت مس سكاتشير د بعد دروس ما بعد الظهر -أى في الساعة الخامسة - حتى هرعت أنا إلى هيلين ، فانترعت الورقة ، يألفيت بها في النار . كان الغضب - الذي لم يتملكها - يحتدم في نفسى أنا طوال اليوم . والدموع الساخنة ، الكبيرة ، تكوى خدى باستمرار ، فإن مظهر استسلاميا الخزين بعث في قلبي ألماً لا يطاقى !

## القصل التاسع

 على أن الحرمان ، أو بالأحرى الصعاب ، التي كانت في ( لوود ) لم تلبث أن تضاءلت . إذ اقترب الربيع ، بل إنه كان قد أقبل فعلا ، قاتقطع صقيع الشتاء ، وذايت ثلوجه، وخفت رياحه القاسية . وبلمأت قلماى البائستان – اللنــان تورمنا وتشققنا بفعل جــو يناير الرطب ، القارس - تندملان وتشفيان ، نحت هبات نسائم أبريل اللطيفة . ولم تعبد الليالي وساعات الصباح ، بزمهريرها الشديد ، تجميد الدم في عروتنا .. بل أصبح في طاقتنا أن تعتمل ساعة الترويح في الحديثة . بل يدأت هذه الساعة تبدو بهيجة ، ممنعة . في يعض الأيام المشمسة ع ودبت الخضرة في تلك الأحواض السمراء ، التي كانت بترعرعهــا اليوى توحى بأن ( الأمل) كان يمر بها في الليل ، ويترك في كل صباح آثاراً أكثر وضوحاً لقدميه . وأطلت الزهور من خلال أوراق الشجر . وبدأنا تقوم في أصيل أيام الخميس - وكانت لدينا عطلة لنصف اليوم-بنزهات شيَّى . فكنا نصادف زهوراً أجمل تنفتح تحت الحواجز النبائية على جانب الطريق.

واكتشقت كالمك أن ثمة مسرة ، بل منعة لا يعدها سوى الأفق ، تقوم خارج جدران حديقتنا . الجدران العالية التي تحرسها أسسنان شائكة 1. تلك المنعة كانت تتمثل فى منظر القم السامقة التي تعملو منخفصاً كبيراً تحف به تلال غنية وحواف براقة . ما أبعد هده الصورة البهيجة عن المنظر الذي أبصرت عليه ذلك المنخفض نقسه عن قبل ، ممثلاً تحت سماء الشناء التي كانت تبدل من المنظر الذي أبصرت عليه ذلك المنخفض نقسه عن قبل ، ممثلاً تحت سماء الشناء التي كانت تبدل من المنظر الذي أبصرت عليه ذلك المنخفض نقسه عن

الماشية ، ورسومات بديعة بالألوان تمثل فراشات تحوم فوق ورود فم تغتج أكمامها ، وطيور تنقر للكريز الناضج ، وأعشاش تضم بيضاً كأنه اللآلئ ، وقد لفتها فروع يافعة من الليلاب .: كذلك فحصت – فى الخيال - إمكانيات توفيق يوماً فى ترجمة كتاب معين من كتب القصص الفرنسية ، أرتنى إياه مدام ( بيرو ) فى ذلك اليوم .. ولم تكن هذه المسألة قد سويت بالشكل الذى يرضينى ، عندما رحت فى سبات عذب !

ما كان أحكم (سليان) إذ قال : « لئن أتقدى على الأعشاب حيثها يتوفر الحب ، خير من أن أتفدى بثور مشوى مع الكراهية ! ٥ . . فما كتت لأرتضي فى تلك الفترة أن أستبدل بـ ( لوود ) – مع كل ما فيها من حرمان - قصر (جيتسهيد) يفخفخنه اليومية !

\* \*

أقلم أصف موقعاً بهيجاً للسكني بحديثي عن هذا المكان القابع بين التل والغاية والذي يقوم على حافة جدول ؟.. إنه بهيج إلى حد كبير ، ولاشك ؛ إما أنه صحى ؛ فهذه مسألة أخرى .. كان المنخفض الذي تحف به الغابة ، والذي تقوم فيه ( لوود ) ، مهدأ للضباب ، وللوباء الذي ينمو في الضباب والذي أسرع مع الربيع الذي كان يسابق موعده فرحف على ملجأ البِتهات : ونفث (التيفوس) في غرفة اللموس وغرفة النوم المزدحمنين ، فما أن حل شهر مايو ، حتى تحولت المدرســــة إلى مستشنى .. إذ أن شبه الجوع ، ونزلات البرد التي أهملت ، هيأت معظم التلميذات لتقبل العدوى ، فإذا خمس وأربعون من الثمانين فتاة ، يرقدن مريضات في آن واحد !.. وانفرط عقد الفرق الدراسية ، وأهملت القواعد واللواقح ، وأتيحت للقليلات اللاتي ظللن سليات ، حرية مطاقة تقريباً ، لأن الطبيب أصر على ضرورة الإكثار من الرياضة للاحتفاظ بصحتهن . وحتى لو أنه لم يصر ، لما أتيح لأحد من الفراغ ما يمكنه من مراقبتهن أو صدهن .. فقد استغرقت المريضات اللباه مس (تمبل) بأكنه ، وأصبحت تقم في الحجرة التي أفردت لهن، لا تغادرها إلا لسويعات قلائل تلتمس فيها الراحة أثناء الليل. وانهمكت المدرسات في حزم الأمتمة و انخاذ الاستعدادات اللازمة لترحيل الفتيات اللائي كن مجدودات بحيث وجدن أفارب وأصدقاء يستطيعون ، عن رغبة ، أن يقصوهن عن موطن الوباء . وذهبت كثيرات ممن أصابهن الداء إلى بلادهن ليلفظن آخر أنفـامهن ، ومات البعض في المدرسـة فدفن في صحت وعجلة ، إذ كانت طبيعة الداء تحول أون أي إرجاء ...

جمله الصقيع ، وكسنه الناوج !.. عندما كانت الرطوبة التي تشبه المرت في قسوة زمهر برها ، تحوم بدفع الرياح الشرقية : مطوقة يتلك التمم المحمرة ، ثم تتحدر هابطة حتى تمتزج بالقساب الجليدى الحيم على الوادى ، فلا يلبث أن يتحول إلى تيار بارد ، لا يقيده شيء ، ينلفع مجتاحاً الغابة ، وهو يرسل أنيناً محموماً في الهواء ، وكثيراً ما يثقله المطر الدافق ، أو المصحوب بالبرد المنهم : فيحجب كل شيء عن الأنظار ، اللهم إلا أشجار الغابة التي تقوم كصفوف من هياكل عجفاء!

واكثهل شهر أبريل ، ثم خلفه شهر مايو .. وكان مايو مشرقًا ، بهياً ، تألف من أيام زرقاء الساء : ذات شمس ساطعة لطيقة الأشعة ، تتخللها رياح غربية أو جنوبية خفيفة .. وكنانت الخضرة إذ ذاك تطرد في نموها بقوة ونشاط ، وتخلصت ( لوود ) من قيود الشتاء، فأصبحت خضرة شاملة ، وأزهاراً سابغة ، وارتدت أشجار الغرغار والدردار والبلوط إلى حياتها المهيبة ، الجليلة .. وانبثقت النباتات البرية بغزارة في أطرافها القصوي ، وملأت ثغرات أرضها أشكال لاحصر لهـا من الأعشاب الفطرية ॥ وغدت النَّروة التي أوتيتها من النباتات ذات الزُّهور المصفراء ، أشبه بأشعة شمسية عجيبة تنبعث من الأرض .. لقمد شهدت وميضها الذهبي الباهت في بقاع ظليلة متناثرة ، فكانت تبدو كأجمل الثريات المتلألثة ، المتنائرة .. كل هذا كنت أستمتع به كثيراً ..كنت أستمتع به كامل الاستمتاع ، بحرية ، وأنا أكاد أكون وحيدة ، دون ما رقيب . وكان لهذه الحرية ولهذا الاستمتاع سبب، أن لي أن أذكره :

(لُوتُونَ) – فقد تُركت مُنا حرية نسيبة . يضاف إلى هنذا قلة عدد من صرف يحظين بالغذاء ، كما أن المريضات لم يكن يكثرن من الأكل ومن نم كانت أطباق فطورنا مليئة أكثر من ذي قبل . وكانت المديرة تعمد إذا لم تَجد وقتاً لإعداد غداء ــ وهو ما كان كثير الحدوث ــ إلى إعطائنا قطعاً كبيرة من الفطير ، أو شرائح سميكة من الخبز والجبن ، فكنا تحمل هذه معنا إلى الغابة ، حيث تختار كل منا أحب بقعة إليها ، ونتناول غداءنا (الفخم) !.. وكان مقعدى المفضل قطعة من الحجر العريض الناعم . تنهض من منتصف الغابة بيضاء ، جافة ، ولا سبيل إلى الوصول إليها إلا بالخوض في ماه الجلمول ، وهو ما كنت أفعـله وأنا حافية القدمين . وكان الحجر من الانساع بنعيث ينفسح لإيواء فتاة أخرى . براحة ثامة .. وكنت في تلك الفترة قد اتخذت لي زميلة مفضلة » فناة تدعى ( مارى آن ويلسون ) ، كانت أرببة ، تقيـــة ، وجدت في صحبتها منعة ، يرجع شبطر منها إلى أنهما كانت حاضرة البديهة ، فذة في طابعها : ويرجع الباقي إلى أنها كانت ذات أخلاق تربحني .. وإذ كانت تكبرني ببضع سنوات . فإنها كانت أكثر مني معرفة بالدنيا . وفي وسعها أن تحدثني عن أشياء كثيرة كان يروق لي مماعها . ومن ثم فإن فضولي وجد في صحبتها ما يشبعه ، كما أنها أظهرت نحو أخطاني تساعةً كريمًا ، فلم تحاول قط أن تراجعني أو تلومني بشأن شيء قلته . وكانت ذات موهبة قصصية ، في حين أنني كثت موهوبة فى النحليل . فكانت نحب أن تروى ، وكلُّت أحب أن أسألهم، إدمن

 وبینها کان المرض قد أصبح من سکان (اوود)؛ وا أوت زائرها الكثير التردد عليها ، وبيتما كان ثمة ومبض وخوف بين جدراتها، وبينما كانت تفوح في غرفها وردهاتها روائح المستشفيات ، وكانت العقاقير والأقراص تجاهد عبثاً لتقاوم اطراد الوقيات .. بينها كان يحدث كل هذا ، كان شهر مايو الصحو يشرق دون ما حجب على الثلال المنيعة . والغابة الجميلة ، خارج جدران المدرسة .. كما تألقت حديقة المدرسة بالورود وانبلت الزهور في قم الأشجار العالية . وتفتحت أزهـــار السوسن ، وترعرع (التيوليب) والورود ، ووشيت حواف أحواض فلاحة البساتين بالزنابق البهيجسة ذات الألوان الوردية والقرءزية .. وأخذت زهور نبات العليق تنفث في الصباح والمساء عبيرها التفساحي النفاذ .. وكانت كل هذه الكنوز العبقة غير ذات نفع لأكثر أهـــل (لوود) : اللهم إلا كمورد لحفنة من الأعشاب والبراع تقتطف من آن إلى آخر لتوضع على أحد التوابيت !

ولكننى - وكل من بقين في حال طبية - كنا نستمتع أكل متعة بمفاتن المنظر والفصل ، وقد تركنا نهم في الغابة كالنوريات ، من الصباح حتى المساء ، نفعل ما يعاو لنا ، ونذهب أني شئنا ، ونعيش في خير حال كذلك ، إذ أن مستر (بروكلهيرست) وأسرته لم يعودوا يفدون على مقربة من (لوود) إطلاقاً ، ولم تعد شئون اللهار موضع نقاش ومراجعة ، وغادرتنا مدبرة الدار الشحيحة وقد حملها خسوف العدوى على الفرار .. ولما كانت خطيفها لا تعرف شيئاً عن أصول ونطاق عملها الجديد - إذ كانت من قبل رئيسة محرضات في مستوصف

ثم كنا ننسجم معاً « وتستمد من حديثنا المتبادل تسلية كنبرة ، إن لم يكن نفعاً كبيراً .

وأين كانت (هيلين بيرنز) في ذلك الوقت؟..لم لم أقض أيام الحرية العذبة هذه معها ؟.. هل نسيتها ؛ أو أنني كنت خسيسة فسئمت عشرتها النقيــة ؟.. الواقع أن ( مارى آن وبلسون ) هذه كانت أقل قدراً من صديقتي الأولى ، فلم تكن تملك سوى أن تروى القصص الممتعة ، وأن تشاركني النرئرة المتهورة ، اللاذعة ، التي كان يحلو لي الانتهاس فيها .. في حين أن (هياين) ــ إذا صدق ما أعتقاءه عنها ــ كانت قاءبرة على أن تمنح أولئك الذين يستمنعون بحديثها ، قبماً من أمــور أسمى وأرفع .. حقاً أيها القارئ ، فإنى أعرف هذا وأحسه !.. ومع أنني مخلوقة ذات معايب ، كثيرة الأخطاء ، قليلة التكفير عنها ، إلا أنني لم أسأم قط (هيلين بيرنز)، ولم أكت عن أن أكن لها شعوراً من الإعزاز والإيثار ، قوياً ، حنوناً ، يفوق في انزانه كل ما عمر به قلبي في أي وقت . وكيف لا يكون ذلك، وقد كانت (هيلين) – في جميع الأوقات وفي كل الظروف ــ تكن لى وداً صافياً ، وفياً ، لم يعكره قط أي امتعاض ، ولا خالطه أي توثر ؟.. ولكن ( هبلين ) كانت مريضة في تلك الآونة ، وقد أقصيت عن نظرى قبل أسابيع إلى حجرة لم أهر موقعها ، في الطابق العلوى ، فلم تكن ــ كما قبل لي ــ في القسم الذي أعـد من الدار ليكون مستشنى للمريضات بالحمي ، لأن داءها كان التلون الرئوي لا التيفوس . وكان جهلي يوحي إلى بأن التلون الرئوي شيء بسيط لن تلبث العناية والزمن أن يبدداه . وقد عزز هذه الفكرة



ام كنا ننسجم مما ، ونستمد من حديثنا المبادل شبكة كبيرة ...

ببالى فكرة لم تواتني من قبل قط : ﴿ مَا أَقْسَى الرقاد الآن في فراش المرض ، وخطر الموت يحوم 1.. إن هذه الدنيا جبيجة، وما أبشع أن ينتزع المرء منها ، ويضطر إلىالذهاب إلى ما لا أدرى ؟؛ .. وإذ ذاك، بَلَاعَقَلِي أُولَ مجهود صادق لتفهم ما حشر فيه عن الجنة والجحم ! . . وللمرة الأولى ، تراجع هذا العقل حائراً ، وللمرة الأولى تلفت وراءه وإلى جانبيه ، وأمامه ، فرأى هوة لا قرار لهـا تحيط به .. ولم يشـعر بغير النقطة التي كان يقف عندها فحسب . لم يشعر بغير الحاضر !.. أما ما عداه ، فكلها سحب غير واضحة ، وأعماق خاوية !.. وارتجف عَتْلَى إِذْ تَصُورُ التَّخْبِطُ وَالصَّلَالُ وَسَطَّ الْفُوضَى الْمُبْهَةُ 1.. وَفَهَا كُنْتُ مستغرقة في فكرتى الجديدة ، سمعت الباب الأماى يفتح ، وخرج مستر (بيئس) ومعه إحدى الممرضات. وبعد أن ترينت الممرضة إلى أن امتطى جواده ورحل . همت بأن تغلق الباب لولا أن جريث تحوها وسألتها : ة كيف حال ( هيلين بيرنز ) ؟ ة . فكان جوابها : ٥ أسوأ حال ٥ .

- أهى التي جاء مستر ( بيتس ) من أجلها ؟
  - نحم -
  - ــ وماذا قال عنها ؟
  - قال إنها لن تمكث هنا طويلا .

ولو أن هذه العبارة طرقت سمعي أمس ، لما أوحت إلى ذهني بأكثر من أن صديقتي ستنقل إلى ( نور ثمبر لاند ) موطنها ، ولما حدست أنها ممتى أن الفتاة تحتضر . أما الآن ، فقد أدركت للفور ، وتجلى لإدراكي أن (هيلين بيرنز)كانت تعد آخر أبامها في هذه الدنيا ، وأنها

www.ds IAmerb.com

أنها هبطت مرة أو مرتبن ، فى فئرة من بعد الظهر كانت الشمس فيها دافئة الأشعة ، ولكننى فى هاتبن دافئة الأشعة ، ولكننى فى هاتبن المناسبتين لم أترك كى أقترب منها وأنحدث إليها .. كل ما هنالك أننى رأيتها من نافذة حجرة اللدرس ، ولم أتبينها تماماً ، إذ كانت ملتفة من رأسها إلى قدمها ، وقد جلست فى الشرفة على مسافة بعيدة من مكانى .

班班米

 وفى ذات مساء فى أو ائل يونية ، جلست مع (مارى آن) فى الغابة إلى وقت جد متأخر ، وكنا قد اعتزلنا الأخريات ــكعادتنا ــ وهممنا بعيداً عنهن ، وأوغلنا في البعد حتى ضللنا طريقنا ، واضطررنا إلى أن نلجأ إلى كوخ منعزل كنان بعيش فيه رجل وامرأة يرعيان قطيعاً من الخنازير يتغذى على أعثاب الغابة ، فسألناهما عن الطربق .. وعنــنـــما عدنا ، كان القدر قد بزغ ، وكان تمة جواد ــ عوفنا فيه مطية الجراح ــ رابضًا لدى باب الحديقة ، فتكهنت (مارى آن) بأن لابد من وجود شخص برح به المرض ، وإلا لما استدعى مستر (بيتس) في مشل تلك الساعة من المساء . و دخلت هي الدار ، بينما تخلفت أنا عنها قليلا ربيًّا أغرس في حوضي بعض (شنل) انتزعتها من الغابة ، وخشبت أن تذوى إذا تركتها إلى الصباح . وإذ فرغت من هـذا ، تلكأت فترة أخرى . كان شذى الزهور يفوح والطل بتساقط ، وكانت الليسلة بهيجة ، بديعة ، دافئة ، والوهج الذي ظل باديًّا في الغرب يبشر بيوم لطيف آخر في الغد ؛ وقد يزع القمر وراح يرقى من الشرق في جلال. وفيها كنت أرقب هذه الأشياء وأسعد يها كما تفعل أية طفلة ، خطوت

عترق ، فررت ببابها متعجلة ، خشية أن تفطن إلى المسرضـة التي كانت تقضى الليل ساهرة ، فقد كرهت أنّ اكتشف فأرد إلى مخدعي، إذكان لابد لى من أنّ أرى (هيلين) .. من أن أحتضنها قبلأن تموت .. يجب أن أقبلها القبلة الأخبرة ، وأتبادل معها كلمة أخيرة !

وبعد أن هبطت سلماً ، واجتزت شطراً من الطابق الأرضى ، ووفقت إلى فتح وإغلاق بابين ــ دون ما ضجيج ــ وصلت إلى ســـلم آخر، صعدت درجانه، فإذا حجرة مس (تمبل) أماى مباشرة . وكان لمَّة صَوَّءً يَنْسَابُ خَلَالُ ثُقِبِ المُفْتَاحِ ، وَمَنْ تَحْتُ طُرِفُ البَّابِ ،وقَال ساد المكان كله سكون شامل . وإذ اقتربت : وجدت الباب موارباً قليلاً . ولعله ترك كذلك ليسمح بدخول بعض الحواء إلى مخدع المريضة المنلق النوافذ . ولم أثر ده ، فقد كنت مفعمة بالحوافز ؛ وكانت روحي وحواسي تنبض بالقلق والغصص ، فأطللت خلال الباب ، وعيناي تبحان عن (هيلين) . خشية أن أجدها ميتة ! . . وإذا بي أرى - لصق سرير مس (تمبل) : وتحت أستاره – سريراً صغيراً، بدا تحت أغطيته شكل جسم ، ولكن الوجه احتجب عني وراء الستر : وكانت الممرضة التي تحدثت إليها في الحديقة تجلس في مقعد مربح ، وقد غشيها النعاس . . وعلى المنضاءة ، كانت ثمة شمعة مشتعلة ، ترسل ضوءًا خافتًا . ولم يلح لبصري أثر لمس تحبل : وعرفت - فها بعد - أنها كانت قد استدعيت إلى جوار مريضة اشتدت بها الحمى في غرفة المحمومات . وتقلمت ، ثم وقفت إلى جوار السرير الصغير ، ووضعت يدى على الستار ، ولكني آثرت أن أنكل قبل أن أزيحها وأنا لا أزال أوجس عيفة من أن أرى

ستنقل إلى عالم الأرواح ، إذا كان لمثل هذا العالم وجود .. فشعرت برجة فزع ، ثم بنوبة قوية من الأسمى ، ثم يرغبة .. يحاجة ضرورية إلى أن أراها . فسألت عن غرقتها ، فقالت الممرضة : • إنها في غرفة مس (تميل) ال .

\_ عل لي أن أصعد فأتحدث إليها ؟

آه ، لا يا صغيرتى !.. هذا غير ممكن ولا مستحب . والآن ،
 حان الوقت كي تدخلي الدار ، وإلا أصبت بالحمي إذا وقفت أثناء هبوط الليل .

وأغلقت الممرضة الباب الأمادى ، فدخلت من الباب الجمانبي - الذى يفضى إلى غرفة الدرس – فى اللحظة المناسبة ، إذ كانت مس ( ميلر ) تدعو التلميذات إلى الصعود للمخادع .

ور بما كانت قد انقضت ساعتان ... ولعل الساعة كانت تفتر ب من الحادية عشرة ... عندما نهضت في سفة ، إذ لم أستطع النوم ، وضايقي السكون العميق الذي شمل الحجرة ، ورؤية زميلاتي في نوم عين = فارتديث ثوبي فوقي قميص النوم ، وتسللت من الحجرة حافية القدمين ، وشرعت أسعى إلى غرفة مس (تمبل) . وكان الهلوء مسيطراً على الطرف الآخر من الدار ، ولكني كنت أعرف طريقي ، وقسد مكنني ضوء قر الصيف ... الذي لا تحجبه السحب ، والذي كان ينساب خلال توافذ الردعة ... من أن أهتدي إلى بنتين دون ما عناء . وطالعتني ، حين اقتربت من غرفة المجمومات ، رائحة كافور وخل

بلحاقی ه .. ففعلت ، وبسطت ذراعها فوقی ، فالتصفت بها : وبعد صحت طویل ، استأنفت الحدیث هامسة : ه اینی جد سعیدة یاجین ، فإذا سمعت آننی مت ، فلا تفکری ، ولا تحزنی ، إذ لیس تمة ما یدعو الی الحزن . لاید لنا من أن نموت جمیعاً یوماً ما ، ولیس الداء الذی ینقانی من هذه الدنیا بمؤلم ، وایما هو لطیف ، ومتدرج .. ثم ان بایل مرتاح ، فلست أثرك ورائی أحداً یأسف كثیراً لفرائی : لیس لی سوی أنی ، فهو قد تزوج أخیراً ، ولن یفتقدنی .: ولسوف أنجو من آلام كثیرة اذ أموت صغیرة ، كما أنبی لم أوت من المواهب والصفات ما كان یكفل لی أن أعیش بخیر فی هذه الدئیا :: لو أنبی عشت ، لظللت دائماً أرتكب الأخطاء » .

ولكن إلى أن تذهبين ياهيلين ؟ :: هل ترين الطريق أمامك ؟ .:
 هل تعرفينه ؟

- إننى أو بن .. إننى مؤمنة .. سأذهب إلى الله !
  - وأين هو الله ٢ .: ماهو الله ٢
- إنه خالق وخالقك الذى لايدمو إطلاقاً خلقه . إنني أركن ركوناً مطلقاً إلى قدرته : وأومن كل الإيمان بكرمه ، وأعد الساعات ربيما تحل الساعة التي تردني إليه ، وتكشفه ليصيرتي !
- إذن فأنت واثقة يا هيلين بأن ثمة مكاناً في السهاء، وأن أرواحنا
   تصعد إليه عندما نموت .
- إننى موقنة من أن ثمة عالمًا آخـر، وإني لأسكر مأن الله فيب،

جئة هامدة ! فهمست في رفق : « هبلين ! .. هل أنت مستيقظة ؟ « .. وتحركت ، وأزاحت الستار ، فرأيت وجهها شاحياً ، هزيلا ، ولكنه كان منبسط الأسارير : وبلت منغيرة بعض الشيء .. على أن خوفي سرعان ماتبدد , وتساءلت هي في صوتها اللطيف : « أحتاً هذه أنت يا جين ؟ « .. فهتفت لنفسي : « أواه ! .. إنها لن تموت .. لقد أخطأوا الظن .. لو أنها كانت وشبيكة الموت ما تكلمت ولا نظرت بهسذا الهدوء ! » .

وانحنيت على سريرها ، فقبلتها .. كان جبينها باردة ، وخدها باردة ونحيلا .. وكذلك كانت يداها ، ورسخاها ، ولكنها كانت تبتسم كمهدها فها مضى ! .. وسألتنى : « لماذا جنت إلى هنا يا جين ؟ .. لقد نجاوزنا الساعة الحادية عشرة ، إذ سمعت دقات الساعة منذ دقائق » . . جنت لأراك يا هيلين ، فقد سمعت أنك مريضة ، فلم أستطع أن أنام قبل أن أتحدث إليك .

- إذن فقاء جثت تودعينني ٢ .. لعلك جئت في الوقت المناسب.

ـ. أمسافرة أنت با هيلين ؟ .. هل ستعودين إلي بلدك ؟

.. أجل .. مسافرة إلى الموطن الذي سأقع فيه طويلا.. إلى مقرى الأخير .

فشهقت جزعة : «لا » لا يا هيلين! » .. وبينها كنت أحاول أن أكبح دموعي ، استولت على لهيلين نوبة سعال ، ولكنها مع ذلك لم توقظ الممرضة . فلها زايلتها النوبة ، ظلت بضع دقائق منهوكة القوى ، ثم همست : « إن قدميك الصغير تين حافيتان ياجين .. ناى ، وتغطى

جسيتين ايسسر

1.17

كان لدى القوم ما يشغلهم عن ذلك . ولم يقدم جواب واحد عن أسئلتى العديدة . ولكنى علست بعد يوم أو اثنين – أن مس تمبل وجدتنى في السرير الصغير . حين عادت إلى غرفتها مع الفجر ، ووجهى ملتصق بكتف هيلين ، وكنت نائمة ! . . أما هيلين ، فكانت . . ميئة !

إن قبر ها يؤوم فى ساحة كنيسة ( بروكابريدج) . وقد ظل خمس عشرة سنة لا يعلوه شىء سوى أعشاب متكالفة .. أما الآن ، ققد صارت تعين المرقع لوحة من رخام رمادى ، نقش عليها اسمها .. أسلمه الجزء الذي لا يغنى من كيانى دون خوف .. إن الله هو أبي .. الله صديتي .. إنني أحبه ، وأومن بأنه يحبني !

ــ وهل سأراك مرة أخرى ياهيلين : عندما أموت ﴿

لسوف تفدين إلى نفس منطقة السعادة التي سأذهب إليها وتنعمين بلقاء نفس الأب القدير للكون . بلا شك ياجين .

وعدت أتساءل ، ولكن فى نفسى ، فى هذه المرة : ، وأبن تلك المنطقة ؟ .. هل لها وجود ؟ » .. وشادت ذراعي حول هيلين ، وقاد شعرت بأنها أعز على مما كانت فى أى وقت مضى .. وبأن لا قدرة لم على أن أدعها ترحل .. وظللت راقدة وقد دفنت وجهى فى عنقها . فما لبثت أن قالت فى أحلى لهجة : « ما أكثر ارتياحى ! .. لقد أتعبتنى نوبة السعال الأخيرة ، بعض الشيء .. أشعر برغبة فى النوم ، ولكن ،. لا تفارقيني ياجين ، فإنى أحب أن تكونى بقرنى ،

ــــا سأمكث معك ياهيلين العزيزة .. أن يبعدني أحد عنك .

ـــ هل أنت مستدفئة باحبيتي ؟ ــــ

– أجل .

ــ عمى مساء ياجين .

... عمى مساء باهيلين !

وقبلتنى ، فقبلتها ، واستسلمنا معاً للنعاس ، وعندما استيقظت ، كان النهار قد طلع ، وثبهتنى حركة غير عادية ، فرفعت رأسي ، وإذا أنا فى أحضان شخص ما ا . . كانت المعرضة تحملنى ، لتتقلقى خلال الردهات إلى حجرة النوم . . ولم يؤنينى أحد لمغادرتى سريرى ، فقد



﴿ بِرُوكُلْهِيرُ سُتَ ﴾ – الذي لم يكن من سبيل إلى إغفاله ؛ نظراً لنفوذه المالى والعائلي – أميناً للصندوق ، ولكنه كان يجد في أداء واجباته معونة من رجال دّوي عقول أكثر انساعاً وعطفاً من عقله . كذلك شاركه مركزه - كفتش – أفراد كانوا بعرفون كيف بجمعون بين العقل والحزم . وبهذا الإصلاح = لم يلبث المعهد أن أصبح معهداً جَلْبِلا ، نَافَعًا حَقًا ﴿ وَظُلَّكَ بِينَ جَدَرَانَهُ بِعَدْ تَجَدِّيدُهُ ، زَهَاءُ ثُمَانَى صنوات ، قضيت منها ستاً كتلميذة ، والنتين كمدرسة .. وفي الحالين ، أشهد صادقة بقيمة المعهد وأهميته .

وكانت حياتي خلال هذه السنوات النماني ، رتيبة ، ولكتما لم تكن تعسة ، لأنها لم تكن خاملة ، فقد كانت في متناولي أسباب الإفادة من تعليم رائع . وكان لدى شغف بيعض ما كنت أدرس « ورغبة في أن أبرز فى كلى دروسي ، مع اغتباط شديد بإرضاء مدرساتي ، لاسبا أولئك اللائي كنت أحب أن أحظى بحسن ظنهن . وأفدت إلى أقسى حد من كل الميزات التي كانت مناحة لي ۽ فما لبثت أن أصبحت كمدوسة ، فقمت بهذا العمل في تحسن « لمدة عامين . . ولكني لم ألبث في نهاية فلك الوقت أن غيرت منهج حياتي .

وكانت مس (تميل) قد ظلت - خلال كل التغييرات التي طرأت على المعهد ـ ناظرة له ، وإنى لأدين لها بالشطر الأكبر مما حصلت : وكان ودها وصحبتها هما عزائي دائماً ، فقد قامت مني بقام الأم والمربية ، والزميــلة فيا بعد ; ثم تزوجت هي ، فم الله وحلت مع زوجها

## الفصل العاشر

 ■ لقد سجلت بالتفصيل حتى الآن، أحداث وجودى الذي لا قيمة له . فقد أفردت من الفصول أكثر مما ينيغي للسنوات العشر الأولى من حياتى . ولكن هذا الكتاب لأبعاءً ليكون سيرة منتظمة ، وإنما أنا أستحث الذاكرة فى المواطن التي أعرف أن استجابتها عندها تنطوى على قدر من المعلومات ذات القيمة , ومن ثم فسوف أجتاز الآن في صمت فترة مداها تمانى سنوات ، ولن أشير إليها بأكثر من سطور قلائل لازمة لربط الحوادث بعضها إلى بعض :

بعد أن أدي (التيفوس) رسالته المهلكة في (الوود) اختفي رويداً. من هناك ، ولكن .. بعد أن كانت حدثه وعدد ضحاياه قد استلفتا أنظار الرأى العام إلى المنوسة ، فأجريت التحريات عن أصل الداء ، ولم تلبث أن ظهرت ثباعاً عدة حقائق أثارت سخط الرأى العام إلى درجة كبيرة : كان الموقم غير الصحى بطبيعته : وكية طعام الأطقال ونوعه ، والماء الآسن الكربه الرائحة الذي كان يستخدم في إعداده ، وسنوء حال ثياب للتلميذات ومراقدهن . كل هذه الأمور تكشفت ، فأدى كشفها إلى نتيجة كانت صدمة لمستر( بروكلهيرست ) ، ولكنها كانت خيراً بالنسبة للمعهد : إذ تبرع يسخاء عدة أفراد من أهل المقاطعة الموسرين ، المحبين للخبير ، لإنشاء مبنى أكثر صلاحبة ، وموقم أفضل .. ووضعت لواثح جديدة : وأدخلت التحسينات على نظام للتغلية والكشاء ، وعهد بأموال الملوسة إلى لجنة : وظل مستحر

 وكان رجلا ألمعياً من رجال الكنيسة ، جديراً بزوجة مثلها -- إلى متماطعة نائية ، وسرعان ما تقطعت بيننا الأسياب .. على أنني منذ يوم رحيلها لم أعد كما كنت ، فقد ذهب معها كل شعور بالطمأنينة . وكل رابطة جعلت من ( لوود ) داراً لى ، إلى درجة ما . وكنت قد أخذت عنها بعض طبيعتها ، وكثيراً من عاداتها ، وما يفوق ذلك من أفكارها المنسقة ، فانصحت للواجب والنظام . وهدأت نفسي . وآمنت بأنثي هانئة .. وكنت أبدو في أعين الأخربات . بل وفي عيني نفسي ، شخصية عبة للنظام والهدوء . ولكن القدر قرق بيني وبين مس (تمبل) . ممثلا فی الآب الموقر المستر ( ناسمایت ) ، الذی تزوج منها . ویومئذ رأیتها وقد ارتدت ثياب السفر ، وصعدت إلى عربة لتقلها ، بعد حفلة الزواج بفترة قصيرة .. وراقبت العربة وهي ترفى التل . ثم تتوارى خلف حافته ، وأويت بعد ذلك إلى غرفتي . فقضيت فيها الشطر الآكبر من نصف يوم تعطلت فيه اللنواسة ، إكراماً للمناسبة .

ورحت أذرع الغرفة معظم الوقت . وقد خلت أن شعورى اقتصر على الأسف لما منيت به من فقدانها ، والنفكير في تعويض هذه الحسارة . حتى إذا فرغت من تأملاتي ، وتطلعت فوجدت النهار قدوتي ، والمساء قد أقبل ، اكتشفت في نفسي شيئاً جديداً : فلك هو أنني في تلك الفترة اجتزت مرحلة انقلاب ، فإذا عقلي يطرح عنه كل ما استعرت من أساليب مس (تميل) .. أو بالأحرى، أنها أخذت معها الجو الهادئ الرصين الذي كنت أنع باستنشاقه في قربها، وعدت إلى أصلي الطبيعي، فبدأت أشعر بالأحاسيس القديمة تتحرك في صدري .. لم يكن الأمر

يلوح كما لو أن دعامة انتزعت ، وإنما بدا كأن حافزاً غاب عني ! .. لم تكن القدرة على الهدوء والطمأنينة هي التي زايلتني ، وإنما سبب الطمأنينة هو الذي لم يعد قائماً! كانت دنياي قد انحصرت لبضعة أعوام في ( نوود ) ، وكانت خبرتي تتألف قواعدها ونظمها , أما الآن ، فقد تذكرت أن الدنبا الحقيقية أوسع نطاقاً ، وأن ميداناً حافلا بمختلف الآمال والمخاوف ، والأحاسيس والانفعالات ، ينتظر أولئك الذين أوتوا الشجاعة على الانطلاق إلى تلك الدنيا الواسعة ، بحثاً عن المعرفة الحقيفية بالحياة ، بين أخطار ها !

 و ذهبت إلى نافذتى ففتحتها وأطللت منها ، فإذا أماى جناحا المبنى ء وحديثة ، ومشارف بلدة ( لوود ) ، والأفق بما يتخلله من تلال .. وتجاوزت بعيني كل الأشياء المرئية ، لأستقر ببصرى على أقصاها .. على القمم الزرقاء . . تلك التي كنت أتوق إلى أن أتسلقها وأبلغ فروتها . كان كل ما في نطاقها من صخور ، ومروج ، يبدو كأرض سجن ، أو حامود منفي : فرحت أتتبع ببصرى الطريق البيضاء الملتوية حول قاعدة أحد الجبال ، والتي تلاشت في خور بين جبلين .. لشدما صبوت إلى أن أتبعها إلى أبعد من ذلك 1 .. وتذكرت الوقت الذي اجتزت فيه هذه انظريق بالذات ، في عربة . تذكرت هبوطي ذلك التل مع الغسق ١ فلكأتما مر دهر منذ اليوم الذي حملني نهاره إلى ( لوود ) أول مرة ، فلم أبرحها بعد ذلك ! . . لقد قضيت كل عطلاتي في المدرسة - إذلم تستدعني مـز (ربد) قط إلى (جينسهيد)، ولا زُارتلي في أن الأنون

لأفكاري ، حتى عاد ما انقطع منها إلى الانصال ، فوحت أجادل نفسي – في ذهني طبعًا ، لأنني لم أكن أتكلم بصوت مرتفع : ه عبودية جديدة ! . . هناك أمل في هذه الفكرة . . أجل ، هناك شيء غير عادي فيها .. إنها لا تبدو ، لأول وهلة ، مستمرأة .. إنها ليست كالكلمات الأخرى: الحرية .. الابتهاج .. الاستمتاع .. إن لهذه الكلمات وقعاً بهيجاً حقاً : ولكنه لايتجاوز في نظرى الوقع الصوتى ، فهو أجوف ، عابر . حتى ليعتبر الإنصات إليه مجرد تبديد للوقت .. أما العبودية ! .. لابدأن هذه الكلمة تمثل حقيقة واقعة ! .. كل إنسان يمكن أن يستعبد . لقَد استعبدت هنا المُمَانَى سنوات : أما الآن ، فإنى أرغب في أن أستعبد في مكان آخر \_ أليس بوسعي أن أختار عبوديتي وفق إرادتي ؟ أليس هذا أمراً جديراً بالتفكير ؟ .. أجل ، أجل . ليست النهاية صعبة ، إذا تيسير لى ذهن نشيط يبتكر وسيلة الوصول إلى غايتي ! » .

واستويت جالسة في فراشي لأوقظ ذلك الذهن . وكانت الليلة قر . فغطيت منكبي بالشال ، أم استأنفت التفكير بكل ما أوتيت من طَاقة : ﴿ مَا الَّذِي أَيْتَغِيهُ } مَكَانَ جِدَيْدٌ ، في بيت جِدَيْدٌ ، بين وجوه جديدة ، وتحت ظروف جديدة ؟ 1 . . إنما أريد هذا ، لأنه لاجدوى من وراء أن أريد شيئاً أفضل! .. ولكن ، كيف يظفر الناس بمكان جديد ؟ أظنهم يتصلون بالأصدقاء . ولكن هناك كثيرين غيرى لم يؤتوا أصادقاء ما ، فهم مضطرون إلى أن يبحثوا لأنفسهم ، وأن يساعلوا. أتقسهم ، فما موردهم ؟ ء . . لم يكن في وسعى أن أهتلني إلى جواب . ومن ثم طلبت إلى عقلي أن يبحث عن إجواب إ ويسرعة عن فراح

إطلاقاً ! - ولم أتصل بالرسائل أو بأية وسيلة : بالعالم الخارجي . كل ما أعرفه عن الوجود كان ينحصر في : القواعد والواجبات الدراسية ، والعادات والأهواء ، والأصوات والوجود ، والعبارات والثباب والعواطف الملوسية . أما الآن ، فقد شعرت بأن هذا لم يكن كافياً ، وأنتي سنمت – في أصيل واحد – كل الحياة الرتيبة التي عشتها ثماني سنوات .. ورغبت في الحرية ! .. ومن أجل الحرية هتفت .. ومن أجلها صليت ! .. وقد خيل إلى أنها كانت مبعثرة على أجنحة الربح التي أخذت تهب إذ ذاك في وهن ، فتخليت عن هذه الأمنية إلى أخرى أكثر منها تواضعاً : تقت إلى شيء من التغيير .. ولكن هذه الأمنية أيضاً بدت كما أو كانت قد تبددت في الفراغ المبهم .. فصحت شبه قانطة : « إذن ، امنحني يارب لوناً جديداً — على الأقل — من العبودية ! · .

وهنا دق جرس . كان جرس العشاء يدعوني للهيوط . ولم يتح لي أن أستأنف حبل تأملاتي حتى ساعة النوم .. بل : حتى في هذه الساعة . ظلت المعلمة التي كانت تشاطرني الغرفة تقصيني عن الموضوع الذي كنت مشوقة إلى العودة إليه ، بسيل من الكلام التافه 1. لكم رحت أتمني أن بخرسها النعاس ! . . كان يبدو ني أنني لو استطعت العودة إلى آخر فكرة طرأت على ذهني عندما كنت أقف لدى النافلة ، لو أناني اقتر اح مبتكر يريحني . . وسمعت - أخيراً - غطيط (مس جوايس) ، زميلتي . وكانت امرأة بدينة من (ويلز ) ، لم أر حتى ذلك اليوم في غطيطها وجيوبها الأنفية سوى مصدر للإزعاج ، أما في تلك اللينة فقد رحبت في رضي بأولى نغات هذا الغطيط! وما أن تخلصت من مقاطعتها

عامين ! ــ « ترغب في عمل في أسرة بهما أطفال دون الرابعة عشرة » ــ فقـــد خطر لى أنه لم يكن يليق بى وأنا لم أتجاوز الثامنــة عشرة ، أن أضطلع بإرشاد تلاميذ يقاربونني في الدن ـــ ﴿ وَهِي مُؤْهَلَةُ لَتَدْرِيسَ الفروع العادية لمنهج تربوي إنجليزي جيد . مع اللغة الفرنسية ، والرسم ، والموسيقي ٤ ، – وكانب هذه التمائمة المحدودة تبدو حافلة في تلك الأيام أيها القارئ ــ \* اكتبوا إلى ج . 1 ــ مكتب بريد (لوتون) بمقاطعة...\*.

وظلت هذه الرسالة مودعة في درجي طبلة النبار ، حتى إذا فرنخنا من تناول الشاي . استأذنت الناظرة الجديدة في الذهاب إلى ( لوتون ) لشراء بعض مهام لازمة لى ولواحدة أو اللتين من زميلاتي المدرسات. وسرعان ما أذنت لي، قدهيت . وكانت ( لوتون ) على بعد ميلين من المدرسة ، والأمسية رطبة ولكن النهاركان لا يزال طويلا . فعرجت على متجر أو اثنين . ثم ألقيت الخطاب في البريد ، وعــدت تحت وابل من المطر ، والماء ينصبب من ثبابي .. ولكنني كنت مر تاحةالفؤ اد .

ولاح الأسيوع النالى طويلا، ولكنه مالبث أن انتهى ــ أخيراً ــ ووجدتني مرة أخرى ، قبيل نهاية يوم مشرق من أيام الخريف أسعى على قدى إلى ( لوتون ) . وكانت الطريق .. بهده للناسبة بديعة ، تمتد على طول جانب الغابة ، وخلال أيهي منعرجات المرتفع ، ولكني في ذلك اليوم كنت منصرفة بنفكيري عن سمر الطبيعة إلى الخطابات التي ربما كانت ــ أو لم تكن ــ في انتظاري ، في الفرية الصغيرة التي كنت أقصدها . وكانت المهمة الصورية – التي تعللت بها للذهاب – هي أن أترك مقاس قلمي للإسكاق كي يصنع لي زوجاً من الأحدية , الذلك

يجتهد . ويعمل مسرعاً .. حتى أحسست من الإعباء بضريات في رأسي وصدغي . ولكنه ظل حوالي الساعة يتخبط في ظلمات ، دون أن تثمر جهوده ! .. وبعث هذا الجهدالفاشل حمى في كيائي ، فنهضت ، وجست خلال الحجرة ، وأزحت السنارة : قلمحت تجمة أو الثنين . ثم ارتجفت من البرد، فعدت إلى السرير .. وإذا بجنية وحيمة قد أسقطت الحل المنشود على وسادتي ، في غياني ! إذ لم أكد أستلقي على السرير . حتى تسلل الجواب إلى عقلي في هدوء طبيعي : ﴿ أُولَٰئِكُ الَّذِينَ بِنْتُ وَلَ مناصب ، يعلنون عن حاجتهم ، فعليك أن تنشري إعلاناً في سحيفة (شايرهيرالد) ! • .. ولكن ، كيف وأنا لا أدرى شيئاً عن الإعلان ٢ .. وفي الحال ، قفرت الإجابات إلى رأسي في لطف : « يجب أن تضمي الإعلان والأجر الذي يستحق عنه . في ظرف موجه إلى رئيس تحرير الصحيفة ، ثم أو دعيه في أول فرصة يريا. ( نوتون ) -واكتبي أن الردود يجب أن توجه إلى (ج. ١) . بمكتب البريد. رقى وسعك أن تذهبي وتسألي بعد حوالي أسبوع من إرسال الخطاب . عما إذا كان ثمة ردود و صلت، ثم تصرفي على هدى ذلك . . ور اجعت هذا الحلى مثنى وثلاثاً، حتى هضمه عقلي، فبات في شكل واضح عجملي .. وشعرت بالرضى ، فنمت !

■ ونهضت مع أولى بواكير النهار ، فكتبت إعلاني ، وأرفقته بالمبلغ ، قبل أن يدق الجرس لإيقاظ المدرسة .. وكانت هذه صيغته : \* شابة ذات خبرة بالتدريس \* – وكنت لم أعمل كمدرسة سوى

لانز ال ثمة يوصة باقية من الشمعة ، فتناولت الرسالة ، وكان الخاتم الذي أغلقت يه بحمل الحرف (ف) ، ففضضها ، ووجدت محتوياتها موجزة : اإذا كانت (ج. ا) التي نشرت إعلاناً في صحيفة (شاير هيرالد) بوم الخميس الماضي ، تتوفر لها المؤهلات المذكورة ، وإذا كانت في وضع يمكنها من أن تقدم شهادات تبعث على الرضي بشأن أخلاقها وكناءتها وفإن ثمة منصباً معروضاً عليها ، حيث لا يوجد سوى تلميذ واحد حفاة صغيرة دون العاشرة من العمر – وحيث المرتب ثلاثون جنيباً في العام . فالمرجو من (ج. ا) أن ترسيل شهاداتها ، واسمها ، وعنواتها ، وكل التفصيلات بهذا الصدد إلى : مسر (فيرفاكس) وحنواتها ، وكل التفصيلات بهذا الصدد إلى : مسر (فيرفاكس) و با (ثورنفيلد) و بالكور ، ومناكورت ، مقاطعة : . : و جو

و تأملت الرسالة طویلا ۱ کان الخط من طراز قدیم ، وینم عن ید غییر ثابته ، کما لو کانت ید سیده مسئة ، وکانت هـ ذه بادرة مرضیة ، إذ کان قد غشینی خوف من أن تتطلب منی الظروف أن أتصرف من ثلقاء نفسی ، وبوحی من فکری ، فأتعرض للتورط فی مأزق ! .. ثم اینی کنت أرجو - قبل کل شیء - أن تکون نتیجة چر آتی هیدة ، سلیمة - ا فی موضعها ۱ ، کما یقال - ومن ثم أحسست ان وجود سیدة مسئة عنصر لا بأس به فی العمل الذی کنت مقدمة علیه ،

( مسز فيرفاكس ) ! .. وتمثلتها فى الثوب الأسود والقلنسوة ، اللذين ترتديهما الأرامل .. وقد تكون باردة ، ولكنها ليست وقحة.. مثال للسيدة الإنجليزية ، المسنة الوفور ! .

و (ئورنفیلد) !.. لابدأن هذا كان چاچاچا روایر فی نفسی

بادرت بإنهاء هذه المهمة أولا .. حتى إذا فرغت منها، عبرت الشارع الصغير الهادئ ، من متجر الإستكافي إلى مكنب البريد الذي كانت تتولاه سيلة عجوز ، تلبس نظارة من (الباغة) على أنفها ، وكمين أسودين حول ذراعيها . . فسألتها : " هل هناك رسائل باسم ج . ١٠٠ . فتفرست فيَّ من فوق عدستيها ، ثم فتحت درجاً عبثت بمحتوياته وقتاً طويلا ــ بلغ من طوله أن بدأت آمالي تترنح! ــ وأخيراً ، أمسكت برسالة أمام عدستيها زهاء خس دقائق : ثم قدمتها لي ، مشفوعة بنظرة أخرى تنم عن تساؤل وعدم اطمئنان . وكانت الرسالة باسم (ج . أ) ، فعدت أسالها : « أليست هناك رسائل أخرى ؟ » ، فقالت : « لامزيا- ! ». وإذ ذاك دسست الرسالة في جيبي ، ويممت شطر المدرسة – إذ لم يكن في وسعى أن أفضها إذ ذاك ، لأن القواعد كانت تلزمني بالعودة قبل المساعة الثامنة ، وكانت وقتئذ قمد بلغت السابعة والنصف ! –وكانت في النظاري واجبات عديدة عند وصولى : إذ كان على أن أراقب البنات في ساعة الاستذكار ، ثم كان الدور دوري في ثلك الليلة كي أتلو الصلوات ، ثم أسلم التلميذات إلى مراقادهن . وبعد ذلك تناولت عشائي مع المدرسات الأخريات . يل إنني لم أجد فسحة من فراغ يعد أن أوينا إلى مخادعنا ، فإن ( مس جرايس ) - التي لامفر منها - ظلت تفرض نفسها على"! ولم تكن للبينا سوى يقية قصيرة من شمعة في الشمعدات فخشيت أن تظل زميلتي تتكلم حتى تحترق الشمعة عن آخرها . على أن العشاء التقيل الذي تناولته لم يلبث أن أحدث أثراً منوماً ، لحسن الحظ ، فسرعان ما انبعث غطيطها ، قبل أن أفرغ من خلع ثبابي . وكانت

اللَّذِي قال إنه لابد من الكتابة إلى مسز ريد ، لأنها كانت الوصية على" : ومن ثم وجهت رسالة إلى السيدة ، فأجابت بأن لى أن أفعل ما أشاء ، لأنها كفت منذ زمن طويل عن التدخل في شئوني !.. ودارت همله الرسبالة على أعضاء اللجنة . وبعد مدة خلت أنها أطول وأسوأ ما كان يعطلني ، صدر الإذن رسميًّا بأن لى أن أعمـل على تحسين حالى كيفها أستطيع . مع التأكيد بأنني كنت دائمًا حسنة السلوك والتصرف ، سواء كمدرسة أو كتلميذة في (اوود) . وأنني سأزود بشهادة عن أخلاقي وكفاءتي . يوقعها مفتشو المعهد. وفعلا تسلمت هذه الشهادة في خلال شهر . فأرسلت نسخة منها إلى (مسز فيرفاكس) ، وتلقيت ر د السيدة بأنها اقتنعت بصلاحيتي ، وحددت يوماً بعد أسبوعين لأتسلم على كمربية في دارها , ومن ثم الهمكت في اتخاذ أهبتي ، وسرعان ما انقضى الأسبوعان . ولم أكن أملك ثياباً كثيرة ، غير أن ما كنت أملكه كان يكفى حاجني . وكان اليوم الأخير كي في (لوود) كافياً لأن أرتب حقيتي – عين الحقيبة التي أحضرتها معي من (جيتسهيد) منذ تماني ستوات ! ــ ثم حزمتها ، وثبت إليها بطاقة باسمي ، ولم يبق سوى نصف ساعة حتى يفد الحال لبنقلها إلى ( لوتون ) ، حيث ألحق بِهَا فِي سَاعَة مِبَكُرَة مِنَ الصِّبَاحِ التَّالَى ، عندما أَذَهِبِ لأَنْتَظُرُ عَرِبَةُ السَّفُور

ونظفت ثوب السفر الأسود. وأعددت قبعتى وقفازى وملفحتى، وقنشت جميع أدراجى لأستوثق من أننى لم أنس شيئاً خلفى. ولما لم يتى أماى ما أفعله ، جلست وحاولت أن أحظى بقسط من الراحة .. ولكنى لم أستطع ، برغم أننى كنك قد قضت طباة اليوم واقضة على أنه مبنى أنيق ، منظم : وإن أخفقت فى أن أرسم فى خيــالى صــورة لغرفه ..

و (ميلكوت) 1.. ورحت أستحث ما علق في ذاكرتي من خويطة إنجلترا ، حتى وقعت عليها .. على اسم المدينة ، واسم المقاطعة الذي كانت أقرب إلى لندن ــ بسبعين ميلا ــ من المقاطعة النائية التي كنت أقيم فيها ، وكان هذا مشجعاً لى ! كنت أنوق إلى الذهاب إلى مكان فيه حياة وحركة ، وقد كانت (ميلكوت) مدينة صناعية كبيرة على ضفاف نهر (١٠٠٠) ، فهي مكان حافل بالحركة ولا شك . وفي هذا كل الخير ، إذ سيكون مغايراً لكل ما خيرته من قبل .. لا لأن خيالى قد افتتن بفكرة المداخن العلويلة ، وسحب الدخان ، وإنما ــ كما قلت لنفسي ــ ، وهنا كانت الشمعة قد انتهت ، فانطفأ الضياء ! .

وكان لابد من اتخاذ خطوات جديدة في اليوم النالى ، فلم يعد في الوسع كتمان خططي في صدرى ، بل لابد من أن أبوح بها لأوفق في تنفيذها : لذلك سعيت إلى الناظرة خلال فسحة الغداء ، وأنباتها بأن أماى احتمالا للحصول على منصب جديد بمرتب مضاعت \_ إذ لم أكن أتقاضى في لوود سوى خممة عشر جنبها في العام \_ وسألتها أن تنوب عني في مفاتحة مستر بروكلهيرست . أو أحد أعضاء اللجنة ، في الأمر . وأن تناكد مما إذا كانوا يسمحون لى بأن أذكر هم كمصدر يستطع وأن تناكد مما إذا كانوا يسمحون لى بأن أذكر هم كمصدر يستطع المخدوم الجديد أن يسأله عني ؟ . وقبلت الناظرة راضية أن تتومط في الأمر . فاكاكان البوم المتالى ، طرحت الموضوع على مستر يروكلهيرست الأمر . فاكاكان البوم المتالى ، طرحت الموضوع على مستر يروكلهيرست

إذن فأنت قد تزوجت يا بيسي ؟

 أجل ، منذ خس سنوات تقريباً . ، تزوجت من روبرت ليفن الحوذي . . ولى منه ابنة أخرى عدا ( بوبى ) هذا ، أسميتها ( جين ) 1 ـــ أو لا تسكنين في (جيتسهيد) ؟ ـــ

بلي ، إنني أقم في بيت البواب ، فإن البواب القديم قد رحل .

 حـــناً : وكيف حالهم جميعاً ٢٠. أنبئيني بكل شيء عنهم يا بيسي ولكن . اجلسي أولا .. وأنت يا بوبي ، ثعـال فاجلس على ركبتي :.

ولكن بول آثر أن يتمسح في أمه ,. واستأنفت ( مسز ليفن ) حديثها : ، إنك لم تزدادي في الطول كثيراً يا مس جين ، ولم تسمني بدرجة تذكر ، وما أرى إلا أنهم لم يُعسنوا تغذيتك فى المدرسـة ، إن مس ربد أطول منك بكتف ورأس ، ومس جورجيانا في عرضك مرتين ! ٨ . فقلت : ٨ أظن جورجيانا جميلة يا بيسي ٩ ٩ .

- جداً .. لقد ذهبت إلى لندن في الشتاء الماضي مع أمها ، وهناك أعجب بها كل امرىء ، ووقم لورد شاب في غرامها ، ولكن علاقتهما لم تقم على تكافؤ . فماذا تظنين ؟.. لقد دير الشاب الأمر مع مس جورجيانا على أن يفرا معاً ، ولكن أمرهما اكتشف ، فأوقفا !.. وكانت مسز ريد هي التي كشفتهما، وأعتقد أنهاكانت تحسدهما . وهي وأختها الآن تعيشان كما يعيش القط مع الكلب، فهما تلشاجران دائمًاً!

ے وما أنباء (جوڻ ريلہ) ؟

- آه ، إنه ليس كما تروم أمه . لقد ذهب إلى المدرجة الثانوية ،

قلمي .. لم أستطع أن أستريح لحظة ، فقد كنت شديدة الاتقعـــال . كانت تُمة صفحة من حياتي تغلق في تلك الليلة ، لكي تفتح صفحة جــلـيـــة في الغــد .. فلم يكن من الممكن أن يغمض لي جفن قيا بين الفترتين ، بل كان لابد من أن أظل يقظة محمومة ، أرقب الانقلاب اللي کان يجري -

وقالت خادم صادفتني في البهو حيث كنت أهم كروح قلقة : ه هناك شخص يا آنسة في الطابق الأسفل يرغب في أن يراك . . . فقلت لنفسى : « لابد أنه الحال » ، وهبطت السلم دون أن أتحرى . وفيا كنت أجتاز القاعة الخلفية ــ أو حجرة جلوس المدرسات ــ التي كان بابها موارباً ، في طريق إلى المطبخ ، إذا بامرأة تجرى خارجة منهـا .. وصاحت تلك المرأة وقد اعترضت طريقي وأمسكت بيدي : يا إنها هي .. إنتي متأكدة 1 إن بوسـعي أن أعرفها أينًا تكون ! • .. ونظرت فرأيت المرأة ترتدى ثيابًا كثياب الخادم الراقية ، وكأنها رئيسة خدم . برغم أنها كانت ما تزال شابة، مليحة جداً ، ذات شعر وعينين سوداء وبشرة لطيفة .. وعادت تهتف في صوت وابتسامة كدت أعرفهما : ه حسناً ، هل عرفتني ؟.. ما أظنك نسيتني يا مس جين ؟ ه ـ

وفي اللحظة التالية ، كنت أعانقها وأقبلها في شوق ودهشـــة : ه بیسی ۱.. بیسی ۱.. بیسی ۱ ه . ظلت أمنف مكذا ، فاستقبلت هي ندائي نصف باكية ، ونصف ضاحكة ، ثم مضينا معاً إلى حجرة الجلوس : وإلى جانب المدفأة ، كان تُمة طفل في الثالثة من عمره ، في فيص وبتطلون . وبادرت بيسي قائلة : 🛭 مذا ابني الصغير 🛊 🕏 ورسب . ثم رغب أخواله فى أن يغدو محاميًا ، فأصبح يدرمى الفانون، ولكنه شاب بالغ القساد ، وما أظهم سيخلقون منه إنسانًا ناجحاً ! . . وما شكله ؟

 إنه جد طويل .. وبعض النباس يصفونه بأنه مليح ، ولكن له شفتين غليظتين .

و فسن ريد ؟

إن السيدة قد صارت بدينة ، وما تزال مليحة الوجه ، ولكنى أن عقلها ليس متز نا . ثم إن سلوك مستر جون لا يرضيها ، فهو ينتق نقوداً كثيرة .

حل هن التي أو فدتك إلى هنا با بيسي ؟

لا . في الحق . . ولكنى طالما رغبت في أن أراك ، طالم سمعت بان خطاباً وصل منك . وأنك ذاهبة إلى بلد آخر ، رأيت أن أجيء . وأن أراك قبل أن أصل إليك .

أخشى أن يكون أطلك قد خاب في يا بيسى !!

قلت ذلك ضاحكة . إذ لاحظت أن نظرة بيسى وإن عبرت عن احترام . إلا أنبا لم تنم عن شيء من الإعجاب .. ولكنها بالدرت هاتفة: الا . با مس جين . لبس تحاماً .. إنك راقية إلى درجة كبيرة ، وإلك لتبدرن سيدة خترمة . وهمذا ما كنت أرتقبه لك ، فإنك لم تكونى جيلة في طفولنك ، .

وابتسمت لجواب بيسي الصريح ، وشعرت بأنه كان صحيحاً ، ولكني أعترف بأنني لم أتلق عبارتها المخبرة بغير اهمام ، فإن معظم



وعادت تهتف في مسلبوت والتسلبسامة الدت اعسرفهما : الرحسنا أأ هل عرفتني ؟ ما اظلك تسينني يا مس جين ا

ستصبحين هكذا ، ونسوف تمضين في الحيناة قدماً ، سواء رعاك أقاربك أو لم يرعولهُ .. ولكن : هنماك شيء كنت أود أن أسألك عنه ؟.. هل سمعت قط عن أهل أبيك .. آل إير ؟

أبدأ .. لم أسمم عنهم في حيائي على الإطلاق 1

 إنك تعرفين أن السيدة كانت تقول دائماً أنهم فقراء، جديرون بالاز دراء .. وهم قد يكونون فقراء فعلا ، ولكني أعتقد أنهم لا يقلون عراقة أصل ومحتاء عن آل (ريد) ، إذ حلث ذات يوم – منذ سبع سنوات – أن قدم إلى (جيئسهيد) سيد من آل ( إير ) ورغب في أن يراك ، فقالت السيدة إنك في مدرسة تبعد خسين ميلا ، وإذ ذاك بدا عليه الاستياء ، لأنه لم يكن يملك أن يمكث في إنجلترا حتى يزورك ، إذ كان راحلا إلى دولة خارجية ، وكانت السفينة تزمع الإقلاع من لندن بعد يوم أو اثنين ، وكانت تبدو عليه سياء السادة ، وأعتقد أنه كان أخ أبيك !

وأية دولة أجنبية كان راحلا إليها ؟

-- جزيرة على بعند آلاف الأميال ، يصنع فيها النبيند .. كما ذكر لي الساتي .

فقلت : وأهي (مادييرا) ؟ ؛

- أجل . . هي . ، هـ أ-ه نقس الكلمة !

وإذن فقيد رحل إ

- أجل .. إنه لم يمكث عندنا سبرى دقائق، إذ كانت السيدة

الناس يودون في الثامنة عشرة أن يروقوا للغير ، ومن ثم فإن اقتنـاعهم بأن منظرهم الخارجي لا يحقق شيئاً قريباً من هذه الرغبة ، لا يبعث في تفوسهم الرضي أو الاغتباط .

وثابعت بيسي قولها : 1 على أنني أومن بأنك ماهرة .. ما الذي تتقنينه ؟.. هل تجيدين العزف على البياتو ؟ ٥ :

- بقدريسط د

وكان ثمة (بيانو) في الحجرة ، فسارت (بيسي ) إليه وفتحته ، ثم دعتني إلى أن أعزف لهـا شيئاً ، فوقعت عليه لحناً أو اثنين .. وبدا الإعجاب على بيسي ، وقالت في نشوة : \* إن الآنستين (ريد) لا تجيدان العزف مثلك 1.. لقد كنت دائماً أقول إنك ستتفوقين عليهما في التعلم . وهل تجيدين الرخع ؟ ٩ . . فقلت : ٥ هذا واحد من رسوى فوق الممدفأة » :: وكان منظراً طبيعياً بالألوان المبائية ، أهـ.دينه إلى الناظرة ، اعترافاً بوساطتها الموفقة لدى اللجنة من أجلى ، فأحاطته بإطار وزجاج .. وهتفت بيسي : ١ إنه جميل يا مس جين !.. إنها صدورة بديعة لا تقل جمالا عن أية صورة يستطيع المدرس الذي يعلم مس ريد أن يرسمها ، فما بالك بالآنستين نفسيهما ؟.. ليس في وسعهما أن ترسما شيئاً قريباً منه :: وهل تعلمت الفرنسية ؟ ١

أجل يا بيسى د. أستطيع أن أقرأ وأنحدث بها .

– وهل تعرفين التطريز على الحرير والتيل ؟

ــ أجل:

إذن فأنت سيدة راقية حقاً يا مس جين !.. كنت أتوسم آنك

## الفصل الحادى عشر

و إن فصلا جليداً في رواية ليشبه منظراً جليداً في مسرحية .. ولذلك فإنني عندما أرفع الستار في هذه المرة ، أدعوك أيها القارئ إلى وقد غطى الجدران ورق مزخرف كالذي يغطى جدران حجرات الفنادق .. ومن حولى تعباد ، وأثاث ، وأدوات الزينة تعلو الموقد ، وصور عديدة : من بينها صورة الملك (جورج الثالث) ، وصبورة ولى عهد إنجلترا ، وثاللة تمثل وفاة (وولف) .. كل ذلك يبدو لك تحت نور مصباح من الزيت يمتدلى من السقف . وعلى ضوء نار قبوية بدى ومظلة المطر على منصدة . جلست أنا بجوارها . م مرتدية معطفى وقبعتى ، بعد أن وضعت فراه يدى ومظلة المطر على منصدة . جلست أدنى جسمى من البرد بعد أن تعرضت ست عشرة ساعة لرطوبة أكتوبر وبرودته ، فقد غادرت (وثون) في الرابعة صباحاً، وها هي الساعة في مبلكوت تدق الثامنة .

وإذا كنت أبدو القارئ وقد توفرت لى أسباب الراحة ، إلا أنني لم أكن مستريحة البال ، لأنني كنت أنوقع أن أجد عند وصولى أحداً في انتظارى . وتلفت حول في قلق – وأنا أهبط اللسلم الخشبي الذي وضعه خادم الفندق توفيراً لراحتي – إذ كنت أتوقع أن أسمع من ينطق باسمي . وأن أرى بعض أوصاف المربة التي تنتظرني لتحملني إلى (ثورنفيلد) .. ولكني لم أر شيئاً من ذلك ! وعندما سألت الخادم عما إذا كان تمة من سأل عن (مس إلم ) ، أجلب بالني وللذاك لم

من المحتمل جداً، أو لعله كان موظفاً أو وكيلا لأحد تجار النبيد. وتحدثت مع بيسي عن الأيام الحوالى ساعة أخرى ، ثم اضطرت. هي للانصراف .. وفي الصباح التالى رأيتها ثانية - في (لوتون) - لبضع دقائق ، وأنا أنتظر العربة .. ثم افترقنا أخيراً لدى باب فندق (بروكلهيرست) هناك ، واتخذت كل مناطريقاً غير طريق الأخرى: أما هي ، فيممت شبطر حافة هضبة (لوود) ، لتنتظر العربة التي أما هي ، فيممت شبطر حافة هضبة (لود) ، لتنتظر العربة التي العربة التي أقائق وعودتها إلى (جيتسهيد) .. وأما أنا فقد صعدت إلى العربة التي أقلني إلى مقر واجباني الجديدة ، وحياتي الجديدة . في مكان لم أكن أعرف عنه شيئاً ، بالقرب من (ميلكوت) .

告 告

فحمله إلى العربة، وعندئة ركبت . وقبل أن يغلق الباب على سألته عن المسافة إلى ( ثورنفيك ) ، فقال : ﴿ حوالي سَنَّةَ أَمِيالُ ﴾ .

\_ في كم من الزمن نصل إلى هناك ؟

\_ في حوالي ساعة ونصف .

ثم أغلق باب العربة جيداً وصعد إلى مقعده الخارجي ، وانطلق بالعربة على مهل ، ثما أناح لى وقتاً كنافياً للتأمل والتفكير : كنت مرتاحة في نهاية الأمر لأنني أقترب من نهاية رحلتي . وعندما اضطجعت في العربة المريحة ــ وإن لم تكن أنيقة ــ استرسلت كما أشاء في تأملاتي ، وقلت أحدث نفسي : ﴿ أَسْتَطْيِعِ أَنْ أَسْتَدَلُ مِنْ بِسَاطَةِ الْخَادِمِ وَالْعَرِبَةِ أن ( مسرّ فيرفاكس ) ليست على جانب كبير من النّراء ، ولكن هذا أفضل كثيرًا ، لأنني لم أعش سواي مرة و احدة بين قوم أغنياء ، وكنت معهم غاية في البؤس والشقاء ! . . وإنني لأتساءل : هل تعيش مخدومتي مع أحد غير ابنتها الصغيرة ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، وكانت البئت ظريفة أنيسة إلى حد ما ، فإنني بكل تأكيد سأقوى على الحياة معها ، وسأبذل قصارى جهـدى ــ وإن كان من المؤسف أن يبذل الإنسـان أحياناً قصاراه ، دون أن يوفق على الدوام | ــ والواقع أنني في ( لوود ) حزمت رأني على ذلك ، وحافظت على قراري ، فوفقت إلى إرضاء الجميع ! .. أما مع (مسرّ ربد) فأذكر أنني بذلت ما أستطيع ، فلم ألق سوى الامتهان والاز دراء !.. ولإذلك أَصْرِيجَ إِلَى اللهِ أَلا أَجِاء فِي

يكن أمامي من سبيل سموي أن أطلب اقتيادي إلى حجرة خاصـة .. وها أنا ذي أنتظر ، بينما تنتهب أفكاري كل ضروب الشكوك والمخاوف!

إنه لشعور جد عجيب أن يرى الشباب نفسه ــ وهو لم تصقله التجارب بعد ... وقد أصبح في معزل تام عن العالم .. وأخذ يسبح مع التيار ــ دون أن تربطه أية رابطة بإنسان! ــ والشَّك يساوره في الوصول إلى أي ميناء ، وثمة موانع جمة تعول دون عودته إلى المكان الذي غادره من قبـل .. ولكن سحر المغامرة يضني حلاوة على همذا الشعور ، كما يبعث فيه بريق الزهو والكبرياء : دفئًا .. بيد أن وجيب الخوف لا يلبث أنْ يعكر صفوه ، فقد طغي على شعور بالخوف عندما انقضى تصبف ساعة وأنا ما أزال بمفردى ! . . وحدثتني نفسي بأن أدق الجرس . ثم سألت الخادم حين لبي دعوتي : ﴿ هَلَ يُوجِدُ بِالقِرْبِ مِنْ هَنَا مُكَانَ يدعى ( ثورنفيلد ) ٢٤ .

( ئورنفیلد ) ؟ لا أدری یا سیدئی . سأسأل فی المشرب .

تم اختفی « ولکنه عاد بعما لحظات یقول : « هل اسمال ( إبر ) را آنسة ؟ »

\_ إن شخصاً هنا في انتظار ك.

فوثبت واقفة وأخذت فراء يدى ومظلتي ثم أسرعت إلى دهليز الفندق حيث كان يقف رجل عندالباب المُمْنُوح. ورأيت في نور مصباح الطريق الخافث عربة إجرها جواد واحد. وقال الرجل في اقتضاب وهو يشير إلى حقيبتي في الدهليز : ﴿ هَذَا مَنَاعَكَ عَلَى مَا أَظُنَ ؟ ﴾ .

ودخلت ، تتقدمني الخادمة إلى بهو مراج البئت في أرجائه أبواب عالمية . وأدخلت إلى حجرة بهرتني في أول الأمر بأضسواء مزدوجية ، من النيرانُ والشموع ، لا تتفق مع الظلمة التي اعتادتها عيناي طيلة أكثر من ساعتين .. فلما استطعت مع ذلك أن أتبين ما أمامي ، شاهدت منظراً أنيقاً مقبولاً : حجرة مربحة صغيرة ، بها مائلة مستديرة بالقرب من موقد تشتعل فيه النار . . ومقعد بمسئدين . عالى الظهر ، وإن كان من الطراز القديم . وقد جلست فيه ﴿ أَنْطَفَ ﴾ سيدة يمكن أن يتصورها الخيال : سيدة ضئيلة الجسم . متقدمة في السن ، ترتدي قبعة حداد وعباءة سوداء من الحرير ، ومرولة من ( الموساين ) الناصع البياض . . صورة طبق الأصل لحز فير فاكس كما تخيلتها من قبل ، وإن جاءت أقل بهاء وجمالا . وكانت منهمكة في شغل الإبرة ، وقد جلست عند قدميها قطة كبيرة في رزانة واحتشام . وقصاري القول . لم يكن ينقصها شيء لاستكمال المثل الأونى للراحة المنز لبة . والحق أنني لم أكن أتصور مقدمة مثل هذه تطمئن مربية جليلة ، ولا عظمة كهله تغمر كل شيء ، أو فحامة تربك وتذهل ؟.. وأخيراً دخلت . فلهضت السياءة العجوز وتقدمت من فورها في حنان لاستقبالي ، قائلة : ٥ كيف حالك باعزيزني ؟ أخشى أن تكون الرحلة قد أتعبتك . لأن ( جون ) يقود العربة ببطء شديد . لا بله أنك تحسين بالبرد .. تعالى افتر في من اثنار الد.

قانت : ﴿ أَظُنَاكُ وَسُرُ عَبِرُ فَاكْمُنَ ؟ ﴿ . .

ــ نعم . أنت على حق .. اجلسي . ــ

لَمْ قَادَتُنَى إِنَّ مُنْعَدُهَا وَمَضَتَ خَلِّعٌ نِنِي خَالَى دُوْتُفُكُ اللَّهِ صَهُ فَبِعْتَى الدكا بساجهه وأبروب والنجرد الأول

مسز فميرفاكس ( مستر رياد أخرى ) !.. أما إذا كانت كذلك . فلست مضطرة إلى المكث معها ، وإذا وقع أسوأ ما أثوقعه فني وسعى أن أنشر إعلاناً آخر .. ثم تساءلت : كم قطعنا من الطريق حتى الآن ؟

وأنزلت النافذة ثم أطللت برأسي : كانت (مبلكوت) خلفتا . واستالت من تعدد أنوارها على أنها مكان على جانب كبير من الانساع .. أوسع كثيراً من ( لوتون ) .. وعلى قدر ما استطعت أن أتبين وجدتني فها يشبه ساحة عامة ، ولكن كانت البيوت تتناثر بكثرة في أرجاء ذلك الإقليم . وشعرت بأنني في منطقة تختلف عن ( لوود ) .. منطقة أكثر منها سكاناً وأقل بمالاً في مناظرها . وأصحب منها حركة ، وأقل روعة .

وكانت الطريق شاقة : والليل كثير الضباب ، فترك الحوذي العنان للجواد ليسير على مهل .. وامتدت الساعة والنصف – بلا ريب – إلى ساعتين .. وأخيراً استدار في مقعده وقال : « لـــت الآن بعيدة عن ( ئورنفيلد ) ! ه .

فأطللت برأسي مرة أخرى ، ووجاءتنا نمر يكنيسة .. رأيت برجها المنخفض العريض مشرثباً إلى السهاء ، وسمعت جرسها ينق ربع الساعة . كما شاهامت كوكبة من الأضواء على جانب من التـــل. . تميز قرية أو دسكرًا , وبعد حوالي عشر دقائق ، نزل السائق وفتح بوابتين مرونا خلالها ثم سمعنا صليلهما من خلفنا . وبعد ذلك صعدنا ببطء في طريق منحدر حتى بلغنا واجهة طويلة لمتزل ينبعث ضياء شمعة من إحدى توافذه المسدولة الستائر ، بينها كانت بقية النوافذ مظلمة . وتوقفت العربة أمام الباب الخارجي الذي فتحتمه إحدى الخادمات ، فتزلت

فسسارلوت بروتتي ١٩٥ أَتَنْقِ لطفيَّة ومجاملتُها في هدوء . . ثم سألتُها ، بعد أن تناولت بعضي ما قدمته ن : ١ هل سأحظى الليلة بلقاء ( مس فير فاكس ) ١ ١ ٥٠٠

فقالت السيدة الطيبة وهي تقترب بأذنها من في : ۽ ماذا قلت يَا عَزِيزَتَى ؟ إِنِّي ثَقِيلة السمع ، . . فأعدت السؤال بصوت واضع : وكان جواجا : « مس قير فاكس ؟ أوه . إنك تعنين مس ( فارنس ) ! إن ( قارنس ) هو اسم تلميذتك الجديدة . .

- حقاً ؟ إذن فهي ليست ابنتك ؟

.. كلا ، فأنا لا عائلة لي .

وكان في وسعى أن أتابع نحرياتي الأولى فأسألها عن علاقتها بمس فارنس . ولكني أدركت أن ايس من الأدب أن أطرح كثيراً من الأسئلة .. هذا إلى أنني كنت واثقة من أنني سأسمع ما أريد ، في الوقت

وجلست أماى وأخذت قطتها على ركبتها ، ثم استرسلت تقول : ، أنا مغتبطة . . مغتبطة جداً حضورك ، لأنه مما يبهج جداً أن يعيش الإنسان هنا الآن ، بل في كل وقت ، مع رفيق يؤنسه . إن ( ثورنقيلد) قصر جميل قديم ، أهمل شأنه كثيراً في السنوات الأخيرة ولكنه ما يزال مكاناً محترياً . وأنت تعلمين أن الإنسان في الشناء يشعر بالوحدة شعوراً موحشاً ، حتى في خير الأمكنة .. أقول الوحدة لأن ( لياه ) فناة ظريفة بكل تأكيد، كما أن ( جون ) وزوجته في غاية الدمائة ، ولكن سترين أنهم جميعاً مجرد خدم .. ولا يمكن أن تخاطبهم على قدم المساواة ، بل يجب أن نقصيهم إلى الحد الذي لا تخشى عنده أن تفقد سلطانها علم و مع لحق أنه في الشواء

الصغيرة .. فتوسلت إليها ألا تحمل نفسها كثير عناء ، لكنها أجابتني : « أوه . , لاعناء في ذلك ولا تعب . أظن يديك قد خلىرهما البر د . .أعدى يا ( لياه ) شراباً ساخناً (١)، وشطيرة ( سندويتش ) أو اثنتين .. هاهي مفاتيح حجرة المؤونة ي

ثم أخرجت من جببها عنقوداً من المفاتيح يلبني برية بيت . سلمته للخادمة . . واستطر دت تعدثني : « والآن اقتر بي من النهر ان . لقد جثت بمتاعك معلث ، أليس كذلك ياعزيزتي ٢٠٠٠

\_ أجل ياسيدتي .

-- سآمر بحمله إلى غرفتك .

ثم انطاقت إلى خارج الغرفة في جلبة وضوضاء . فقلت أحدث نفسي : ﴿ إِنَّهَا تَعَامَلُنِّي كُمَّا لُو كُنْتُ زَائِرَةً ! وَمَا كُنْتُ أَتُوقَعَ مثل همه!! الاستقبال ، بل كنت أثوقع فتورآ وغلظة ! .. هـذا يخالف ما سمعته عن معاملة المربيات ، ولكن .. يجدر في ألا أيتهج بهذه السرعة ! . .

وعادت السيدة فرفعت بيديها أشغال الإبرة . كما رفعت كتاباً أو اثنين من فوق المنضدة ، لتقسع مكاناً للصينية التي جاءت بها (لياه) إذ ذاك ، ثم قدمت لي ينفسها الشراب ! . . وشعوت بالارتباك عندما وجدائتي موضع اهتمام لم ألقه من قبل ــ وبخاصة من مخدومتي ور ثيستي ــ ولكني عندما وجدتها لا تعتبر ماتفعله شيئاً ليس في موضعه ، آثِّ ت أن

<sup>(</sup>١) شراباً يتكون من مزيج من الخمر . والماء ، والسكر . وجوز الطيب ، وعصير الليمون !

الماضي - وكان شناء جد قارس إذا كنت تذكرين . . فحني عندما كان الثلج بكف عن الانهمار ، كانت السياء تعطر ، والرياح تهب وتحصف إ--لم يطرق هذا المنزل غلوق ، فيا عدا القصاب وساعي البرياء ، من أو أبر حتى فبراير ! .. بحيث استبد بي الأسى والاكتئاب لجلوسي بمفردي ليلة بعد لبلة . وكانت ( لياه ) تقرأ لى أحياناً . ولكني لا أعتقد أن الفتاة المسكينة كانت معابطة إباره المهمة ، بل كانت تعتبر نفسها في سجن ؛ أماني الربيع والصدب فنتحسن أحوال الإنسان وتتغير كثير أبفضل أشمه الشمس وطول النهار . ، ثم بعد ذلك . في يداية هذا الخريف ، قدمت الصغيرة ( آديا(غارنس ) ومعها مربيتها , . والأطفال سرعان ما بدخلون البهجة على المنزل ! .. والآن وقد جنت أنت إلى هنا . فسوف أكون أبي غاية السرور . . . .

والواقع أن قلبي انشرح لهذه السيدة الفاضلة عندما سمت حديثها . فالجربت بمقعدى منها ، وعبرت لها عن رغبتي ألمخلصة في أن تجد في وفقتي ما ترجوه من سرور .. فقالت : ، ولكني لن أبقيك الليلة إلى ساعة مناخرة ، فها هو الليل ينتصف ، كما أنك كنت في رحلة طوال اليوم ولا بد أنك تشعرين بالنعب.. فإذا كانت قدمك قد دفئتا تماماً فسأقودك إلى مخدعك , إنني أعددت اك الحمجرة الملاصقة لحجرتي وهي غرفة صغيرة « ولكني أعتقد أنك سوف تفضاينها على العرف الكبيرة الأمامية ، لأن هذه وإن كانت في الواقسع أفخر رياشاً ، إلا أنها موحشة ومنعزلة ، حتى أنى ــ أنا نفسي ... لا أنام فيها إطلاقًا ! \* .

فشكرتها على حسن اختيارها .. وكنت أشعر حقيقة بالنعب : يعد

رحلتي الطويلة ، فأبديت استعدادي للذهاب إلى مضجعي ، وعندثذ تناولت الشمعة فتبعتها . وبدأت أولا بالتأكد من أن باب الردهة مغلق ، ثم انتزعت منتاحه من القفل وقادتني إلى الطابق العلوي . وكان السلم والإفريز (النرابزين) من خشب اليلوط ، بينها كان شباك السلم عالياً ومغطى بالدانتلا .. كما كان هو والدهليز الطويل المفضى إلى أبواب مخدع النوع يبدوان كما لوكانا في كنيسة ، لا في بيت من البيوت . وكان الدرج والدهليز يتخللهما هواء بالغ البرودة ، مما يعطى فكرة غير مبهجة عن مدى اتساعهما وعزلتهما . وأخيراً فرحت بدخول مخدعي ، وبأنه مؤثث أثاثاً حاميثاً عادياً .

وعندما حيتني مسز فيرفاكس تحية المساء ، في حنان وإشفاق ، أغلقت باني ثم رحت أحملق فيا حولي .. إلى أن أنمحي بعض التأثير المروع الذي تركه في نفسي اتساع البهو وظلام الدرج الفسيح وطول الدهليز البارد ، بقضل منظر حجرتى البهيج ، ولأنى تذكرت أنني – بعد يوم من التعب الجناني والقلق النفسي \_ قد وجدت نفسي أخيراً في مأوى آمن هادئ ! . . وزخر قلبي بالشعور بالشكو والامتنان ، قركعت يجانب القراش وقلمت الحمد لمن يستحق الحمد ، دون أن أنسي ـــ قبل أنَّ أَسْضَ ... أنْ أَنْمَس منه المعونة على المضى في طريقي ، والقدرة على أنَّ أكونَ أهلا للمطف الذي أغدق عليَّ قبل أن أعمل على استحقاقه . وفي تلك الليلة خلا مضجعي من الأشواك ، كما خلت غرفثي المنعزلة من المخاوف . وسرعان ما استغرقت في النوم ، مكدودة الجميم ، راضية النفس .. فلما صحوت ، كانت الشمس في رأ المُثَمَّلُهُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ

في ضآلة الجميم . وشحوب الوجه ، وعدم أتساق الملامح ، ودمامة الخلفة . . ولكن ترى لماذا تنتهبني هذه الأماني ويستبد في هذا الندم ؟ ! يصعب أن أجيب عن ذلك " حتى لنفسى " وإن كان لدى لذلك سبب منطقی وسبب طبیعی كذلك : فما أن مشطت شعری وازتدیت معطفی الأسود الأنيق ، وسويت صداري الناصع البياض ، حتى رأيت من واجبى أنْ أظهر أمام مسز فيرفاكس بمظهر عترم ، وأن أعمل على الأقل على ألا تنفر مني تلميذتي ! .. وأخيراً فتحت النافذة ، حتى إذا وجدت كل شيء مرتباً نظيفاً في مكانه فوق منضدة الزينة ، غادرت حجرتى .. قاجتزت الردهة الطويلة المغطاة بالسجاجيد ، وهبطت درجاً من البلاط الزان . لأصل إلى البهو ، حيث توقفت لحظات لأتطلم إلى بعض الصور المعلقة على الجدران (وأذكر أن إحداها كانت تمثل رجلا منجهم الآسار پر يرتدي درعاً ، وسيدة معفرة آلشعر بالمساحيق ، تجط بجيادها قلادة من لؤلؤ ) . . كما أخذت أتأمل مصباحاً من ( البرونز ) يتالى من المقف . ومساعة كبيرة ذات إطار من خشب البلوط تعلوه نقوش عجيبة الشكل ، اسودت من طول الزمن حتى غدت في اون الأبنوس . وبدا كل شيء لعيني في منتهي الفخامة والأبهة ، على ضآلة تصيبي من اعتياد العظمة والأبهة . وكان باب البهو مفتوحاً ، وقد صنع تصفه من زجاج ، فاجتزت عنبته . كان في الخارج صباح جميل من أيام الخريف ، والشمس ترسل أشعثها الصافية على المروج الداكنة والحقول الخضراء . فتقدمت إلى المرج المعشوشب ثم رفعت عيني لأتطلع إلى واجهة القصر : كان يرتفع إلى ثلاثة طوالين غير فسيحة، ولكنها وفوري

وبدت لى حجرتى مكاناً مشرقاً كل الإشراق ، وقد سطعت الشمس خلال الأستار المصنوعة من الشيت الأزرق الزاهى ، فكشفت بضيائها عن جدران يغطيها الورق ، وأرض يكسوها السجاد . . وبالجملة . عن صورة لا تشبه مافى ( لوود ) من ألواح عارية ومصيص ملطخ متسخ ! . . وإذ ذاك سمت روحى لهذا المنظر الجميل ، وخيل إلى آنني أبدأ فى الحياة اعبداً أبحل . عهداً له زهوره ومسراته بقدر ما له من أشهاك ومتاعب عدما أجل . عهداً له زهوره ومسراته بقدر ما له من أشهاك ومتاعب من مناظر ، وبعد أن بعث فى نفسى الأمل هذا التغيير فيا عوطنى من مناظر ، وبعد أن بعث فى نفسى الأمل هذا الخليل الذي ألميني فيه - وإن لم أسطع أن أحدد بالضبط ما كنت أرجوه من المسبل وأنوقه ، فها عدا أن يكون شيئاً ساراً على أية حال . . شيئاً قد لإيضع اليوم أو فى مثل هذا اليوم من الشهر القادم - بل فى فترة مستقبلة لا سبيل إلى تحديدها !

ونهضت من فراشي قارتديت ملابسي يعناية واهتام – وكنت مكرهة على ارتداء ملابس بسيطة ، لأن أى رداء من أرديتي لم يكن إلا بسيطاً في صناعته ... وكنت بطبيعتي كثيرة العناية بنظافتي ، و لم يكن من عادتي ألا أكترث لمظهري أو الأثر الذي أثركه في الآخرين .. بل كنت على العكس دائمة الحرص على أن أبدو في أحسن رواء ، وأن أستميل من أستطيع استالته ، مادمت أفتقر إلى الجال! .. ولطالما أشقت لأنني لم أكن أحثر جمالا .. بل لطالما تمنيت أن يكون في خدان متوردان . وأنف منتقيم ، وفم صغير ، قاني اللون .. كما تمنيت أن تكون في قامة فارهة ، جليلة ، محشوقة ! وشعرت أنه من تكد طالعي أن أكون غاية فارهة ، جليلة ، محشوقة ! وشعرت أنه من تكد طالعي أن أكون غاية

مستر (روشستر ) على المجيء والإقامة هنا إقامة دائمة – أو على الأقل ما لم يكثر من التردد عليها بين حين وآخر ــ لأن المنازل الكبيرة والحقول الجميلة تحتاج إلى وجود صاحبها فيها بد .. فصحت متعجبة : « مستر روشــتر ؟ من هو ؟ ه .. فأجابت في هدوء : ه صاحب ثورنفيله ؟ أما كنت تعلمين أن اسمه روشستر ؟ ! ¤ .

ولم أكن أعلم بالطبع ، لأنني لم أسمع عنه من قبل . ولكن السيدة العجوز كانت على ما يظهر ثرى في وجوده حقيقة يعرفها العالم أجمع ، ويجب أن يعرفها كل إنسان بغريزته ! .. واسترسلت أقول : •كنت أظنك مالكة ( ثور نفيلد) ؟ ٤ .

 ( ثور نفیلد ) ملکی أنا ؟ باركات الله باطفائی ! یالها من فكرة ! ملكي أنا ؟ أنا بجود مديرة للمنزل . . مديرته . والواقع أنني أمت بصلة يعيدة من القرابة إلى آل روشستر من ناحية والدنى ، أو على الأقل كان زوجي قريبًا لهم . كان قسيساً مسئولًا عن قرية ( هاى ) الصغيرة الواقعة على ذلك التل ، وكانت تلك الكنيسة القريبة من هنا ملكاً له . وكانت أم مستر روشستر الحالى من أسرة فيرفاكس وابنة عم لزوجي ، ولكني لا أحفل قط بهذه العلاقة ولا تهمني في الحقبقة في شيء ، لأنني أعتبر نفسي مجرد مديرة منزل عادية ولا أرجو شبئاً أكثر من أن يعاملني رب الأسرة على الدوام معاملة طيبة .

– والبنت الصغيرة ، ( تلميذتى ) ؟

- إنها تحت (وصاية) مستر روشلمنر . وقد كلفني أن أبعث لها

الانساع ، بحيث تليق كمسكن لسيد يقم أن الأرياف ، لاكمقر لنبيل من النبلاء . وكانت شرفات القصر التي أحيط ببامته تضني عليه منظراً بحميلا ، وواجهته تنتهي ببرج للحام تتطاير منه حمائمه المجنحة فوق المروج وهي تهدُّل هديلها الجميل، ثم تهبط إلى مرعى كبير يفصله عنها سور غائر فَى الحقول . وفي هذا المرعى رأيت صفاً من أشجار الشوك تبدو قوية عريضة ، أشبه بأشجار البلوط ــ ولعل من هذا المنظر اشتق المنزل لقب (القصر) الذي أطلق عليه – وعلى مسافة بعيدة ، رأيت ثلالا غير شامخة الارتفاع كالجبال التي تحيط بلوود ، وليست كالحواجز الشاهقة التي تكاد تفصلها عن العالم المليء بالحركة و الحياة و لكم ١٠. كانت مع فلك تلالا هادثة منعزلة تحتضن ( ثور نفيلد ) وتعزلها بصورة لم أكن أتوقعها على مقربة من مكان مثل ( ميلكوت) يضطرب بالحياة . وبالقرب من أورنفيله ، كانت تقوم كنيسة المقاطعة ، ببرجها العالى القديم المطل على ربوة تقع بين المنزل والبوابات . وفياكنت أتامل مغتبطة هذا المنظر الساجي ، وأنعم بالهواء العليل ، كانت أذناى تصغيان بابتهاج إلى هديل الحائم ، وعيناي تتصفحان مدخل البهو الواسع الموحش . وعندما أخذت أتساءل كيف تعيش سيدة عفر دها في مثل هذا المكان الكبير . ظهرت مسز فيرفاكس في ملخل الباب تقول : ٥ ماذا ؟ أتخرجين مبكرة هكذا ؟ أراك ممن يستيقظون في ساعة مبكرة أ 🛪 .

فَانْجُهِتَ نَعُوهًا ، لتستقبلني بقبلة رقيقة ، ثم صافحتني قائلة : ٥ كيف وجدت ثورنفيلد؟» ، فقلت إنني أحيبتها كثير أجداً . . فقالت : ﴿ نَعْمُ ، إنها مكان جميل ، ولكني أخشي أن تدركها الفوضي ما لم يستقر رأى

الظن أنها لم تغادرها إلا منذ ستة شهور . ولما جاءت إلى هنا لأول مرة لم تكن تعرف الإنجليزية : أما الآن فهي تحاول الشحدث بها قليلا . وأنا لا أفهم منها شيئاً لأنها تخلط كلامها كثيراً بالفرنسية ، ولكنك سوف نتينين ما تعنيه جيداً .

ولحسن حظني كالنت سيلمة فرنسية قدعلمتني اللغة الفرنسية وأغرتني بأنْ أتحدث على الدوام مع ( مدام ببيرو ) بالفرنسية ماسنحت الفرصة ، هذا فضلا عن أنني حرصت في الستوات السبع الأخيرة على أن أحفظ متطوعة فرنسية في كل يوم عن ظهر قلب ، وأنَّ أهم اهتماماً بالغاَّ بالهجتي وبمحاولة تقليد معلمتي في النطق ، إلى أن حصلت على قسط كبير من إثقان هذه اللغة يعصمني من أن أرتبك أمام الآنسة آديلاً : التي تقدمت فصافحتني عندما علمت أتني معلمتها . وفيا كنت أتقدمها إلى حجرة الطعام لتناول الفطور وجهت إليها بعض العبارات بنفس لغتها ، فأجابتني في أول الأمر باقتضاب ، ولكن بعد أن جلسنا حول المائدة وجعلت فصافحتني حوالي عشر دقائق، بدأت فجأة تُبرثر في طلاقة ، ثم صاحت بالفرنسية : ١ آه . إنك تتكلمين لغتي مثل ما يفعل مستر (روشستر ) ، وفي وسعى أن أتحدث معك كما أتحدث إليه . وكذلك ( صوفى ) سوف تبتهج لأنها لا تجد أحداً هنا يفهمها . إن مدام فيرفاكس لا تتكلم غير الإنجليزية ، ولكن صوفي - مربيتي - جاءت معي بطريق البحر على سفينة كبيرة لها ملخنة كان ينافع منها دخان . . أي دخان ٢ وقد أصابني دوار البحر. كما أصاب صوفي . بل وأصاب مستر (روشستر) نفسه ، فرقد على أريكة في حجرة جميلة تسمى (الْكِللِكِينَ ﴾ ﴿ يُمُّ تَرُّصُوفَى

عن معلمة لأنه يعتزم أن ينشئها هنا ، في هذه المقاطعة على ما أعتقده ها هي آنية مع ( دادئها) ( كما تسمى مربيتها) :

وعند تذوضح اللغز! .. فلم تكن هذه الأرملة الرقيقة الرحيمة سيدة عظيمة ، وإنما أجبرة مثلى! ولم ينتقص هذا من حبى لها ، بل على العكس، اشتد بي السرور عن ذى قبل الآن المناواة بينها وبيني كانت حقيقية وليست مجرد تواضع من جانبها ، وهذا أفضل بكثير ، لأن مو فنى منها غدا أكثر حرية وانطلاقاً . وفيا كنت أفكر في هذا ( الاكتشاف ) ، منها غدا أكثر حرية وانطلاقاً . وفيا كنت أفكر في هذا ( الاكتشاف ) ، قدمت بنت صغيرة تتبعها مربيتها ، وهي تجرى فوق المرج . فرحت أملها دون أن يبدو عليها في أول الأمر أنها فطنت لوجودى : كانت طفلة في كل شيء . ولعلها كانت في السابعة أو الثامنة من عمرها . في نحصرها . وقالت مسر فيرقاكس تحييها : « صباح الخير يامس حتى خصرها . وقالت مسر فيرقاكس تحييها : « صباح الخير يامس آديلا . تعالى وكلمي السيدة التي ستولى تعليمك وتجعل منك يوماً ما امر أة الراحة » .

فاقتربت الصبية تم قالت بالفرنسية وهي تشير ناحيتي ؛ • آها.د هي المعلمة ؟ ٥ .

فأجابتها مربيتها بالفرنسية كذلك ؛ و نعم ، بلا شك . .

ودهشت لسماع الحوار بالفرنسية، فسألت : \* هَلَ هَمَا أَجَنبِينَانَ؟» . - إن المربية أجنبية . كما أن (آديلا) ولدت في القارة (أ). وأغلب

(١) يطلق الإنجليز على كل ما وراء بحر المانش من بلاد أوربا ،
 لفظ (القارة) .

أمامهم وأجلس على ركبهم وأغنى لهم .. كم أحببت ذلك ، فهل تدعيلني أسملك غنائي الآن ؟

وكانت قد قر غت من تناول إفطار ها . فسمحت لها بأن تعرض على " عينة من مواهبها ، فنزلت من مقعدها وجاءت فجلست على ركبتي ثم عقدت بديها أي احتشام على حجرها وردت خصلات شعرها إلى الخلف جَزَةُ مِنْ رَأْسُهَا . ثُمَّ رِ فَعَتْ عَيْنِهَا إِلَى السَّقْفُ وَجَعَلَتْ تَغْنَى إَحْدَى أَغْشِات الأوبرا عَنْ ٱلام سيدة هجرها حييها : وبعد أنَّ أقامت مناحة على حيانته ، استنجدت بكبرياتها وطلبت إلى خادمتها أن تزيتها بأسطع مجوهراتها وأغلى ثيابها . ثم اعتزمت أن تاتي هذا الخائن في تلك الليلة بالذات في حَمَاةُ وَ الْعَصَّةُ كُنِّي تُعْبِتُ لَهِ ﴿ مُطْهُوهِا الْمُرْحِ - أَلَمُهَا لَمُ تَعَاَّرُ وَبُجِرَانُهُ أَ

بدا الموضوع غريباً في اختباره لغناء طفلة صغيرة ، ولكني أعتقد أن الغرض من ذلك الاستعراض كان مجرد سماع عبارات الحب والغيرة تتعتر م: المنفذ الطفولة دولُ أن تدوق لها طعماً.. أو هكذا خيل إلى على

غنت آدبلا في محافظة تامة على اللحن ، ويسدَّاجة تنفق وسلها . وما أنَّ فرغت من ذلك حتى وثبت عن ركبتي قائلة : « والآن با أنسة سأثلو عليك بعض الشعر ٧ .. نم تهيأت لذلك وأعدنت تسمعني بعض أشعار من ء جماعة الجوذان ۽ و تصص ( لافونتين ) الخرافية .. ثم أخذت تلتي المقطوعات بالهجة خطابية : وهي تراعي باهيام صحة النطق . وتطنيب الألفاظ ، ومرونة الصوت ، وملاءمة إلحركات بر مما لا ينفتر نحال مع على مويرين صغيرين في مكان آغو . وكدت أقع من فراشي الذي كان يشبه الرف ، وأنت يا آئسة ,. ما اسمك ؟

الراب جين اير .

\_ إبر ؟ أوه . . لا أستطيع النطق به . حسناً . . لقد تو قفت سنميتنا في الصباح ، وقبل أن ينتشر ضياء النهار تماماً ، في عدينة كبيرة .. مدينة ضخمة كل دورها حالكة بنبعث منها اللخان جميعًا ، ولا تشبه إطلاقًا تلك المدينة البديعة النظيفة التي جئت منها . وقد حملتي مستر روشستر على ذراعيه فوق لوح يمتد إلى الشاطىء ثم تبعثنا صوق فاستقللنا كلنا عربة حملتنا إلى منزل جميل كبير ، أكبر من هذا وأظوف ويدعي ( فندقاً ) حبث مكثنا حوالى أسبوع . وقد اعتدت أنا وصوفى أن نتمشى يومياً في مكان فسبح أخضر مليء بالأشجار يدعى (المتنزه) ، وفيه أطفال عديدون سواى و بركة بها طيور جميلة أطعمتها من فتأت الخيز .

وهنا سألتني مسز قير فاكس مشدوهة : ﴿ أَتَفْهَمِينُهَا وَهِي تَنْطَلُقَ بِكُلِّ هذه السرعة ٢ ٪ . والواقع أنني فهمت حديثها جيداً لأنني اعتدت لسان ﴿ مَدَامَ بِيرُو ﴾ الذرب السيال ـ وأردفت السيدة الطبية تقول : « بودى أن تطرحي عليها سؤالا أو اثنين عن والديها ، ترى هل تذكرهما ٢٠.٠ فسألتَّها : ، مع من يا آديلا كنت تعيشين عندما كنت في تلك المدينة الجميلة النظيفة التي حدثتنا عنها ؟ ه .

 عشت منذ زمن بعيد مع (ماما) . ولكنها مضت إلى العذراء . وقد اعتاث ( ماما ) أن تعلمني الرقص والغنــاء وثرثيل الأشــعار . وكان عدد كبير من علية السادة والسيدات يزورون ماما ، فكنت أرقص



صغر سنها ، ويقطع بأنها تدربت على ذلك بعناية . فسألتها : ﴿ أَهِي وَالدُّنْكُ التي علمتك هذه المقطوعات؟، .

... نعر , وكانت (ماما) تقول لى بالفرنسية : . ماذا لديك بعد ذلك ٢ م.. ثم تجعلني أرفع بدي هكذا لتذكرني برفع عقيرتي . والآن هل أرقص لك ؟

ــ كلا ، هذا يكني . ولكن ، بعد أن ذهبت أمك إلى العذراء المقدسة ... أمَّا قلت ... مع من كنت تعيشين ؟

.. مع (مدام فردريك) وزوجها . وقد عنيت بأمرى ، ولكنها لا تمت إلى جَاية قرابة . وأغلب الظن أنها فقيرة ، لأنها لا تملك بيتاً جميلا مثل ببت (ماما) . ولم تطل إقامتي هنالك ، فقد سألني مستر روشستر هل أرغب في الذهاب والعيش معه في إنجلترا . . فقلت د نحر » ، لأنني عرفت مستر روشستر قبل أن أعرف مدام قردريك - والأنه كان على الدوام رحيماً بي ، پمنحني ثياباً ولعباً جيلة .. ولكن هأننذي ترين أنه لم يهر بوعده . لأنه جاء في إلى إنجلترا ثم عاد موة أخرى ولم أعد أراه على الإطلاق !

ربعد الفطور ، ارتددت وآديلا إلى حجرة المكتبة التي يبدو أن ممتر روشستر أمر بتخصيصهما لدروسنا ، بينما كان معظم الكتب موصالاً عليه خلف أبواب زجاجية . ولكن كان ثمة صواف للكتب ترك مفنوحاً ويحـوى كل ما قد أحتاج إليـه من مواد أولية : وعدة مجلدات خفيفة في الأدب والشعر والسير والرحـلات ، ويضـــع روايات ... إلخ. وأظنه اعتبر ذلك كل ما قد تحتاج إليه معلمة لمطالعتها



ولكن كان تمة صوان للكتب ترك مفتوحا ويحوى كل ما قد احتاج اليه من مواد أولية ، وعدة مجلدات خنيمة في الأدب والنبعر ...

(الخاصة . والواقع أنني قنعت بهذه المكتبة كل القناعة في ذلك الحبين .. سما حين كنت أقارتها بالمنتخبات القلبلة التي استطعت أن ألتقطهما فى ( لوود ) من منا وهناك -- فقد بدت لى كافية لتوفير حصاد واف من أسباب النسلية والمعرفة . وكان في الحجرة كذلك بـانو كبير بادى الجاءة ، ثمتار النغم – ثم حمالة للرسم . وكرتان أرضيتان

والنَّبِت تلميذتي لينة العربيكة : ذات قابلية للعلم ، ولكتبها لم تكن تطيق الخضوع لنظام في حياتها ، إذ لم تألف أي عمل منظم ، من أي نوع !.. ورأيت أن ليس من الفطنة أن أضيق عليها الخناق كثيراً في أول الأمر , وبعبد أن تحدثت إليها كثيرًا وساعلتها على حفظ بعض الدروس حتى انتصف النهار . سمحت لها بالعودة إلى مربيتها . ثم استقر رأني على أن أرسم لهما يعض صور تخطيطية إلى أن يأتى ونهت الغداء . وفيها كنت أرقى الدوج إلى الطابق العلوى لأجيء بمحفظــة أوراق وأقلامي الرصاص ، نادتني مسرّ فيرفاكس قائلة : ، أظنـث النبيث الآل من ساعات الدراسة الصباحية ، . وكانت تجلس في حجرة دات أبواب اوليبة منتوحة على مصاريفها ، فلخلت إليها عناما خاطبتني لأجد الحجرة والمعه فاخرة بالمفروشة بمقاعد وستائر أرجوائية وسجاء تركبي ، وقد غطت جدرانها ألواح من شجر الجوز ، وبها نافذة واسعة مصنفرة الزجاج ، وسقف شاعق بديع النقوش . وكانت مسرّ فير فاكس تنفض الغيار عن بعض (زهريات) من البانور الأرجواني البديع قند صفت على صنوان الأوالي - ( البوفيه ) - فلم أتمانك أن صحت وأنا أتلفت فها حولي : ﴿ يَا لَمُنَا مِنْ حَجِرَةٌ جَمِيلَةٌ ! ﴿ مَا خَلَكُ أَنَّ

لم أر من قبل حجرة لها نصف هذه المهابة ! - فقالت ممنز فيرفاكس: نعم ، هـــــذه حجرة الطعـــام ، وقـــد فتحت تافلـــهـــا من فورى ليدخل يعض الهواء وضياء الشمس ، لأن الرطوبة تتلف كل ما بالحجرة التي قل أن يأوى إليها إنسان . وهناك ترين حجرة الاستقبال ، التي تبسدو كالقبو ! ٣.

ثم أشارت إلى قوس واسع يشبه النافذة : ومغطى مثلها بستارة مطوية من وسطها على هيئة أنشوطة ، فهبطت إلى ذلك القبو درجتين عريضتين . ونظرت خلاله فلمحت مكاناً بدا لعيني الغريرتين شديد التألق ، ولم يكن سوى حجرة للاستقبال نسقت على صورة جاءت آية تى الجال . وبداخلها كان مخدع تكسوه الأبسطة البيضاء ، وتشاهد فيه أكاليل من الزهور المتألفة ، ويغطى كلا الحجرة والمخدع الداخــلي سقف من أشجار الكرم الناصعة البياض .. بينها كانت أدوات الزينة التي نعـلو الموقد من زجاج بوهيمي متلألي ، في حمرة البـاقوت ! وقلت : ٥ بأى نظام تحافظين على هاتين الحجرتين يا مسز فيرفاكس، قلا غبار ، ولا ملاءات تغطى الأثاث ؟.. لولا هذا الهواء البارد لحسب الإنسان أنهما لا تستعملان يومياً 1 ، .

 كيف يا مس إير.. إن زيارات مستر روشستر نادرة، ولكنها تجيء فجائية وعلى غير انتظار !.. ولما كنت أعلم أنه يمتعض إذا شاهد شيئاً غبر منظم أو يحتاج إلى ترتيب عاجل ، فقد آثرت أن أجمل الحجر تين مرتبتين على الدوام ، استعداداً لمقدمه .

ــ هلى مستر روشستر رجل مدقق يصهب إرضاؤه ؟

أو على الأقل أنى أنا تفسى لا أفهمه ، ولكن ماذا يهمني من ذلك ما دام سيداً على جانب كبير من الطيبة ؟!

كان هـذا كل ما ظفرت به من مسز فيرفاكس عن مخدومهما ومخدوى ، فإن هناك أناسًا لبست في رأسهم أية فكرة عن رسم صورة تخطيطية للأخلاق: أو عن ملاحظة ووصف النقاط البارزة، سواء في الصنف ، لأن تحرياتي حيرتها ، وإن كانت لم تخرجها عن سمبيتهـا . . إذ كان مستر روشستر في عينيها مستر روشستر فحسب : سيداً ومالك أراض : ولا شيء أكثر من ذلك !.. فلم تشأ أن تتحرى أو تبحث إلى أبعد من ذلك ، ولذلك كانت دهشتها واضحة عندما رغبت إليها في أن أظفر يتعريف أكثر تحديداً لشخصيته !

وعنــدما غادرنا حجرة الطعــام ، اقترحت على أن تفرجني على بِثَيةِ المَنزِلُ . فَتَبَعِبُهَا إِلَى الغرف العليا والسفلي وقد تولاتي العجب أينما ذهبت ، من فرط ما كان كل شيء جماد مرتب وجميمل : كانت الحجرات الآماميــة واسـعة أكثر من المألوف ، أما حجرات الطابق الثالث فإنها على الرغم من ظلمتها وانخفاض سقوفها كانت تمتعة بما يشبع فيها من جو أثرى ، ولطالما نقبل أثاث الطابق الأرضى إلى هذه الحجرات كلما تغير طرازه وتبدلت ( الموضة ) .. ومن ثم رأيت على الضوء الخافت المتسرب من نوافذها الضيقة أسرة ترجع في قلمها إلى مائة سنة .. وصناديق من خشب البلوط والجوز رسمت نقوشها العجبية على صورة أغصان النخيل ورؤوس (الشاروج) ﴿ فَعَاظُ الْعَاظُ

 ليس إلى هذا إلحد ، ولكن له ذوق السيد النبيل ، وعاداته . ولذلك يحب أن يرى كل شيء متسقاً مع الذوق وهذه العادات .

ـــ هل تحبينه ؟ وهل هو محبوب بوجه عام ؟

- أوه . نعم . إنّ أفراد الأسرة يانفون الأحترام هنا دائمًا . ومعظم الأراضي في هذه الناحية - على مدى ما يصل إليه يصرك – كانت فيا مضي ملكاً لهمر !

 دعینا من الأراضی ، فهی خارجة عن موضوعنا ، وإنما أنا أسألك : هل تحبينه ٢ وهل هو محبوب لشخصه ٢

 ليس لدى ما يحملني على أن أشعر نحوه شعور أ آخر ، وأعتقد أن مستأجري أراضيه يعتبرونه مالكاً عادلا متحرراً . وإن ثم تطل إقامته بينهم .

أليست له تصرفات شاذة ؟ وما هي بالاختصار أخلاقه ؟

أصبح على شيء من الشذوذ بعد أن قام برحلات عديدة وشاهد كثيراً من أرجاء العالم . وفي وسعى أن أقرر أنه رجل أريب . وإن لم يطل حديثي معه يوماً من الأيام .

ـــ وما هو موضع شذوذه ٢

ــــ لا أدرى ، ولا يسهل وصف ذلك .. وإن كنت تحسينه عندما تتحلثين إليه ، فلا تدوين جيمداً أهو يمزح أو يجد ، أهمو مسرور أو على النقيض ? وقصارى القول أنه لا يتسنى لك أن تفهميه جيداً ..

71X.

يغلب على أفرادها العنف على الهدوء ، ولعل ذلك سر هدوئهم الآن في قبور هم !

فغمغمت قائلة : 8 نعم . إنهم لا شك يستغرقون في نوم هادئ ، بعد حياة من النشاط المحموم.

وإذ وجدتها تبتعـد . سألتهـا : ﴿ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ الْآنَ يَا مَسْرُ فير فاكس ؟ ٢

.. إلى السطح العلوى . ألا تأتين و ترين المنظر من هناك ؟ فتبعتها في هدوء . ورحنا نرقي درجاً ضيقاً جداً إلى الطابق الأخير ، ومنه صعدنا سلماً من الخشب ثم نفذنا من باب بالسقف إلى السطح :. وإذ ذاك أصبحنا في مستوى مستعمرة الغربان ، وأمكنني أن أرى أعشاشها .. ثم اتكأث على الشرفات ، أتطلع إلى أبعد ما تحتى ، فوأيت الحقول أشبه بخريطة ، وشاهدت المرج المخملي المشرق يحيط بأسسقل النَّصر . وبدا لي الحُقل في اتساع أحد المتنزهات ، وقد رصعته أخشابه الفديمة . كما بدت الغابة الداكنة الذابلة وقد تخللها طريق كث النباتات أمعن في الخضرة ــ بطحلبه ــ من الأشجار بأوراقها الجافة . وسبيح في شمس الشتاء كل من الكنيسة والطريق والتلال الساكنة . أما الأفسق فكانت تناخمه سماء مماثلة ، لازوردية مرصعة ببياض لؤلؤى . وخلا المنظر من سمات غير عادية . ولكن كل ما فيه كان شائقاً . ولمما استدرت وعدت من فجوة السقف ، كدت لا أتبين طريقي فـوق السلم الخشي . إذ بدا لي الطابق النهائي في سواد القبو بالنسبة لقوس السياء الزرقاء الذي كتت أتطلع إليه وإلى متض المروج والمراجي والتلال

سفينة عبرانية !.. وصفوفاً من الكراسي اأوقورة ، بظهرها العسائي الضيق .. ومقاعد خفيضة ، أعرق في القدم ، وقد علتها آثار تطريز أوشك أن يمحي . لأنه من صنع أصابع ووريت اللَّري منذ جيلين !.. كل هذه المخلفات الأثرية خلعت على الطابق الثالث بقصر ﴿ تُورِ نَفْيَلُهُ ﴾ منظر بيت يرجع إلى الماضي السحيق، أشبه ( بمحراب ) للذكريات!: ولقد أحببت في هذه المخلفات سكونها ، وقتامتها . وغرابتها ، ولكني لم أطمع بأية حال في أن أستريح ليلة واحدة على سرير من هذه الأسرة الواسعة الثقيلة التي أغلقت على بعضها أبواب من خشب البلوط . وأسدلت على بعضها الآخر ستائر إنجليزية قديمة طرزت عليها زهسور عجيبة ، وطيور أعجب، ومخلوقات آدمية أعجب وأعجب ! والواقم أنها كانت كلها تبدو عجيبة في ضياء الفمر الشاحب.

وسألت محدثتي : « هل ينام الخدم في هذه الخجرات ؟ a .

-- كلا .. إنهم يشغلون صفأ من الحجرات الصغيرة الواقعة في ظهر القصر ، ولا ينام هنا أحمد قط .. إذ يقمال إنه لو كان في قصر ( أورنفيلد ) شبح ، لاختار مسكنه في هذا الطابق !

هذا ما أعتقده . أليس للبيكم أشباح هنا ؟

فأجابتني المرأة باسمة : ٥ لم أسمع بواحد منها ! ١

ولا على سبيل التشى مع التقاليد ، أو مجاراة الأساطير وقصص

– لا أظن ، ومع ذلك يقال إن أسرة روشستر كانت في المــاضي

 نعم، بوضوح وجلاء - وكثيراً ما أسمعها - فهي تخيط في إحدى هذه الغرف ، وأحياناً تكون معها (لياه) ، فإذا اجتمعنا معاً ارتفعت جلبتهما .

وتكررت الضحكة : بنغمها الخافت المتقطع - وأعقبتها همهمسة عجيبة .. قصاحت مسر فيرقاكس : « جريس ! » :

والواقع أنتي لم أكن أنوقع أن تجيبها (جريس) ، لأن الضحكة كانت (رهبية) ، غير طبيعية . تخالف كل ما سمعته في حبــاتي من ضحكات ! ولكننا كنا إذ ذاك في رائعة النهار ، ولم يصحب القهقهـــة العجبية ظهور شبح من الأشياح .. ومع ذلك قلولا أن الظرف لم يكن بسمح بالخلع الاستبدان رعب عجيب ، ولكن الحادث ما لبث أن أراني أنثى كنت حقاء عندما تملكني الإحساس بمجرد الدهش والعجب فقد فتح الباب القريب مني وخرجت منه خادمة : امرأة بين الثلاثين والأربعين من عمرها ، ربعة القامة ، حمراء الشعر . جامدة الأسارير.. أقرب إلى أن تكون شبحًا مخيفًا لا بمكن أن ترى العين أو تتخيـل

وقالت مسر فير فاكس : \* يا لها من ضجة شديدة جداً يا جريس! تذكري الأوامر والتعليات و . ـ

فانحنت جريس في احسترام وهسلوء . ثم دخلت .. بينها مضتّ الأرملة تقول : ﴿ هَـــَـْهُ أَمْرَأَةً جَنَّا بِهَا لَتَخْطِ وتساعد (لياه) في واجبائها المنزلية . ولا اعتراض عليها إلا في بعض الأمور . يبياء أنها الخضراء التي تضيئها الشمس ويتوسطها القصر ، والتي كنت منذ قليل أرنو إليها عتشرحة الصدر . .

و ريئت مسز فيرفاكس خللي قليلا ، لتغلق فجوة السقف . فأمكنني أن أتجسس طريقي حتى اهتديت إلى المخوج من الطابق التهائي ، ثم تقدمت لأهبط سلم السطح الضيق . وتمهلت في ذلك الممشى الطويل الذى يفصل بين الحجرات الأمامية والحجرات الخلفية بالطابق الثالث إذ كان شيقاً خفيضاً ، معتماً . وليس به سوى ناقذة واحدة صغيرة ف الطرف البعيد . . بحيث كان يشبه . بصنى الأبواب الصغيرة المغلقة التي تحف به ، دهليزاً في قلعة صاحب اللحية الزرقاء !

وبينها كنت أخطو في رفق . صفع أذني آخر صوت كنت أتوقع أن أسمعه في مثل هذه المنطقة الساكنة : ضحكة عجيبة واضحة. متكلفة كابية 1.. فتوقفت عن السير، وعندثة انقطع الصوت ـــ العظة واحدة فقط ـــ ثم عاد مرة آخري ، أقوى وأعلى مما كان في المرة الأولى !.. ومر الصدى في جلجلة صاخبة ، كأنما هو يتردد في كل حجرة على انفراد - وإن لم يصدر إلا من حجرة واحدة - وكان بوسعي أن أشير إلى الباب الذي انبعث من خلفه !.. وناديت يصوت عال : • محز فير فاكس [ » ، وذلك بمجرد أن سمعتها تبيط الدرج الكبير .. ثم قلت أسألها: « هل سمعت هذه الضحكة العالية ؟ ضحكة من هي ؟ ه

ــ إنها على الأرجح ضحكة إحدى الخادمات .. لعلها (جريس

\_ عل سمتها ؟

## الفصل الثاني عشر

 أم يسفر طول مقامى وتعرفى على قصر (ثورنفيلد) وأهله ، عسا يناقضالبوادر التي أوحت إلىَّ – في البداية الهادئة لعهدي هناك – بأنني مفدمة على عمل مريح . . فقد وجدت في مستر فيرفاكس ما كان مظهرها بنبيُّ عنه من أنها امرأة وادعة طبيعة القلب ؛ على جانب كاف من التعلم ، وقسط لا بأس به من الذكاء :. كما وجدت في تلميذتي طفلة نشيطة مرحة ، دللت وعوملت في كثير من التساهل واللين ، ومن ثم كانت في يعض الأحيان عنيدة صلبة الرأى .. ولكن لما كانت شئونها قد وكلت كلها إلى "، دون أن يعرفل الخطط التي رسمتها لإصلاحها أي تدخل غير حكم ، من أية جهة ؛ فإنها سرعان ما نسيت نزواتها النافهة وأصبحت طبعة قابلة للتعلم , ولم تكن على جانب من المواهب والميزات الخلقية . ونضح الإحساس والذوق ، يمكن أن يرفعها ـــ ولو بقدر ضَيْل - فوق مستوى الطفولة العادية ، ولكنَّما كذلك لم تكن ذات عبب أو رذيلة تهبط بها عن هذا المستوى : وقد تقدمت تقدماً محسوساً ف در استها وأظهرت نحوى حباً متوثباً ، وإن كان من المحتمل أنه لم يكن خميقاً إلى حد يعيد . واستطاعت بسذاجتها وثر رُسّها المرحة ومحاولاتها إرضَائَى أَنْ تَجَعَلَى أَنَا الْأَخْرَى أَنعَلَقَ بَهَا إِلَى الْحَدِ الذِّي جَعَلَ كَلَّا مِنَا راضية بمعاشرة الأخرى .

وهنا أقول – بين قوسين - أن هذا الأساوب في وصف علاقتنا قد بيدو فاتراً إذا ما صدر عن أشخاص يتطرفون في أراثهم عن طبيعة تقوم بعملها جيداً :: ولهذه المناسبة ، كيف كانت حالك مع تلميذتك ا الجديدة هذا الصباح ؟ ه

وبذلك خولت دفة الحديث إلى (آديلا) ، واستمرت كذلك حتى بلغنا المنطقة المضيئة بالطابق الأرضى ، فأقبلت آديلا تجرى لتقابلنا في المردهة ، وهي تصبيح بالفرنسية : « لقد أعد الطعام يا سيداتي . . » : « ثم أردفت تقول : « وأنا جائمة جداً ! » .

وقد وجدنا الغداء معداً في انتظارنا ، في حجرة مسز فيرقاكس بم

恭 恭 首

موقنة بوجود ألوان أخرى زاهية من الخير والفضائل .. وكنت أرغب دائماً في مشاهدة ما أومن بوجوده !

قُن يلومني على فلك ؟ .. كثيرون . ولا ربب .. نسوف أتهم بعدم التمناعة . ولكن ما حيلتي وقد فطرت على القلق .. وكان هذا الفلق يحتدم أحباناً فيورثني الألم . ولا أجد خلاصاً منه إلا في أن أتمشى جيئة وذهاباً في ردهة الطابق الثالث . حيث تداخلتي الطمأنينة والسلام وسط سكون المكان وعزلته . وحيث أثرك عيني تمتلئان بما كان ينبعث أمامهما من رؤى مشرقة ــما كان أكثر عددها وأشد تألقها! ــوحيث أَنَّ قَلَى يُسَابِ مَمَ الوجيبِ النَّدُوانَ الذِّي كَانَ يَمْعُمُهُ بِالْحَيَاةُ ، فَيَ الوقت الذي يضنيه فيه ! .. وكان الأفضل من ذلك كله أن أفتح أذني سريرني . الأصيخ السمع لنفسة لا تلتمي قط .. قصة كان يلسجها خيالي ويرويها باستمرار وبلا القطاع ، ويبعث فيها الحركة المثيرة بما كان يصمنها من أحداث ، ومن حياة ، ومن نار ، ومن إحساس . ، ومن كل خرع أشتهيه ولا أجده في حياتي الواقعية ج

ومن العبث القول بأن على البشر أن يقنعوا بالطمأنينة والسكينة . إذ لابد في من العمل والحركة ، وعليهم أن يبتدعوهما ويخلقوهما . إذا عز عليهم أن يجدوهما ؛ لقد كتب على الملابين أن يعيشوا في ركود أشد جوداً ثما كنت أعيش فيه . وكم من ملايين بثورون في صمت على حظهم من الحياة .. ولا يدرى أمرؤ كم من ثورة .. غير الثورات السياسية ... تختمر فى نقوس البشر على الأرض! .. والمفروض فى النساء أن يكن في الغالب جد هادئات و ادعات ، و لكبن أشعر أهاماً كاريم إل جال : الأطفال الملائكية ۾ ويرون واجباً على أولئك الذين يوكلون بتعليم الأطفال . أن يكنوا لهم حباً يصل إلى مرتبة العبادة .. ولكني لا أكتب لأتملق أنانية الآباء . أو لأردد عبارات الرباء أو أظاهر الدجل - وإنما أقول الصدق وحده عندما أقرو أن ضميرى قد شغل بالاهتام بسعادة (آدبل) وتقلعها ، وإن قلبي كان يحبها لذائها الصغيرة . حبًّا هادئاً .. تماماً كما كنت أكن لمسز فيرفاكس شعوراً بالعرفان لكرمها . واغتباطأ بعشرتها يتفق مع ما كانت تبديه لى من احترام رزين . ويتلاءم مــع حظها المعتدل من الذكاء والشخصية .

ولياسني من يشاء : إذ أضيف إلى هذا أنني كنت إذا ما خرجت بين آن وآخر ـــ وحيدة ـــ للنزهة في الحقول ، أو لأسـير إلى أبواب السياح الحارجي فأطل على الطريق العامة .. أو إذا ما صعدت سلالم طبقات المبنى الثلاث ... مخلفة آديل تلعب مع مربيتها . ومسز فيرفاكس فى (البدروم) تصنع الفالوذج ــ حتى إذا بلغت السطح سرحت البصر عبر الحقول والتلال ، وعلى طول الأفق المعتم .. ليلمني من يشاء إذا قلت إلني كنت ﴿ إِذْ ذَاكِ ﴿ أَتُوقَ إِلَىٰ قَوْدُ إِبْصَارِ تُتَجَاوِزُ هَلَمُ الْحُدُودُ ﴿ وتفوى على أن تصل إلى العالم المصطخب . والمدن والأقالم التي تطفر بالحياة ، والتي طالما سمعت عنها ، دون أن ثقع عليها عيناى 1 . . ولكم كنت أصبو إلى مزيد من التجارب العملية \_ فوق ما كان لدى \_ وإلى مزيد من مخالطة بني جنسي ، والتعرف على أخلاقهم المتباينة . بقاس يقوق ما كان يتاح لي في ذلك المكان ! .. لقد كتت أقدر نواحي الخير في نفس مسرّ فيرفاكس ، وتواحى الخيرَ في نفس آديل ، ولكني كنت

من خدم إلى جانب جريس – أى الحوذي -- ( جون ) وزوجته ، أو ( ليا ) التي تقوم يتنظيف الدار ، وصوفى المربية الفرنسية ـــ فكانوا ،قوماً طبيبن ليس فيهم ما يسترعي الاهتمام . وقد اعتادت أن أتحدث إلى ( صوفى ) بالفرنسية ، فألقى عليها أحياناً بعض الأسئلة عن وطنها الريني ، ولكنها لم تكن من الصنف الذي يميل إلى الوصف والرواية ، ولذلك كانت أجوبتها تافهة مضطربة قليلة ، تصدولا تشجع .

■ وانقضي أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ، وفي عصر أحد أيام بتابر ، طَلَبَتْ مَنَى مَمْزُ فَيْرُفّاكِسَ أَنْ أَمْنِحِ (آديل) عَطَّلَةً ، لأنَّهَا كَانْتَ تَشْكُو من البرد . وعندما عقبت (آديل) على ذلك الرجاء ، بتحمس ذكرني يما كان للأجازات العارضة من قيمة لدى في طفولتي . وافقت على ذلك . مؤثرة إظهار المروتة في مثل هذه الأمور . وكان اليوم جميلا هادئاً . برغم اشتداد البرد، وكنت قد سئمت الجلوس في سكون بحجرة المكتبة طوال ذلك الصباح . وإذ كانت مسز فيرفاكس قد فرغت لتوّها من كتابة خطاب ، ثم تركته في ارتقاب من يلقيه في صناءوقي البرياء ، فقد ارتديت قبعتي ومعطني : وتطوعت بحمل ذلك الخطاب إلى قرية ( هاى ) .. وكانت مسافة الميلين – بيننا وبينها – مجالًا لنز هة بديعة على الأقدام . في أصبل اليوم الشتوى , ومن ثم اطمأننت إلى أن (آدبل) جلست مرتاحة على مقعدها الصغير بجانب الموقد في حجرة مسز فيرقاكس . وأعطيتها خير دماها الشمعية ـــ التي كنت أحتفظ بها دائمًا في ورق مفضض بداخل أحد الأدراج – لتلعب بها . كما أعطيتها كتاب

ويحتجن إلى تدريب لمواهبهن ، وإلى ميدأن لجهودهن ، بقدر ما يحتاج إخوانهم الرجال .. وهن كفاك يعانين من الكبت الشديد ، والركود التام ، تماماً كما يعاتى الرجال ، ولذلك فمن ضيق العقل لدى أبناء جلدتهن المحظوظين ـــ أى الرجال ــ أن يقولوا بأن عليهن أن يقبعن في دورهن لصنع الطعمام ، ورتق الجوارب ، والعزف على البيانو . وتطريز الحقائب .. وأن بنحوا عليهن باللائمة ، ويضحكوا منهن إذا حاولن البحث عن عمل آخر أو الإلمـام بجديد غير ما قضي به العرف لجنسهن ا

وكثيراً ما كنت ... في خلواتي هذه ... آسم ضحكة ( جريس بول) .. نفس الضحكة الجلجلة . . ونفس الـ ( ها . . ها ! ) الحافتة ، البطيئة ، التي جفلت لها عندما تناهت إلى أذنى في أول مرة . كذلك كنت أحمم غمغاتها الشاذة التي تفوق ضمحكتها غرابة ! .. وكم من أيام أخلدت فيها صاحبة الضحكة إلى الصمت ، ولكنها كانت لاتكف \_ في أيام غيرها -عن الضحك والدمدمة .. وكنت أراها في بعض الأحيان وهي تغادر غرفتها ، وفي يدها حوض أو صحن أو صينية ، فتهبط إلى المطبخ .. لتعود من فورها وهي تحمل في العادة وعاء مليئاً بالطعام .. آه ، ألا اغفر لي أبها القارئ العاطني المزاج ، فاست أروى سوى الحقيقة انجردة . ولقــد كان ظهور (جريس بول) يُغْفُفُ دَأَمَّا مِنْ وَطَأَةَ الْفَصُولَ الذَّى تثيره تصرفاتها الصونية الشاذة : إذ كانت قساتها الحادة تنم عن رصانة . وليس فيها ــ في الواقع ــ ما يسترعي الانتباه . وكثيراً ما حاولت أن أستدرجها إلى محادثتي ، فكانت تبدو ز اهدة تى الكلام ، وتجيب بكلات مقتضبة تقطع على المرء أي أمل في هذا الصدد .. أما بقية من كان بالدار

أنرف على غاياتها .. حتى إذا غاصت الشمس بين الأشجار ، يممت ناحية الشرق ، حيث تربع القسر فوق قمة تل يعلو مجلسي .. وكان يبدو ياهتاً . ولكنه أخذ يزداد تألفاً في كل لحظة .. وكانت قرية (هاى) أما تزال على مسافة ميل ، ولكني استطعت – وسط السكون الساجي – أن أسمع بوضوح دبيب الحياة الخافت في حناياها . كما تناهي إلى أذنى كذلك تدفق التيارات . وإن كنت لم آدر ثماماً في أي وديان أو وهاد كانت نندفع .. على أنه كانت ثمة تلال عديدة وراء (هاى) ، ولابد كان تمة جداول كانت تنخلها !..

وفجأة بددت ذلك السكون وتلك الهمسأت الرقبقة ضجة عنيفة البعثت من بعيد جداً : ولكنها كانت غاية في الوضوح : وقع حوافر قوية . وقعقعة معدنية حجبت أفكاري . كما تحجب صور الصخور القمخمة الصياء ، أو أشجار البلوط الكبيرة الوارفة ــ إذا رسمت في مقدمة لوحة بخطوط ثقيلة سوداء ــ ما يكون وراءها من تلال لازور دية . ومن أفق ساطع بالضباء . ومن سحب متمازجة . تختلط عندها درجات الألوان . وكانت الضوضَّاء عند الجسر . إذ كان عُمَّة جواد يقترب. ولكن الطريق الكثيرة المنعر جات حجبته عن عيني .. غير أنه كان يدنو -فهممت بأن أغادر مكانى : ولكنى وجدت الطريق ضيمَة فآرُت أن أثبت في موضعي حتى يمر في . وكنت في تلك الأيام شابة تقبع في ذا كرتها تلك القصص التي حمقها في طفولتهما ... فلم نضجت . صمارت همامه القصص إذا ما تحركت من وقادها ، أضغي عليها الشهاب اليافع قوة وحيوية قوق ما كانت الطفولة تقوى على إسباغه لها على المؤلف الناف الثان

قصص كي تنوع من أسباب تسليتها . ويعد أن أجبت بقبلة عن قولها : « عودي بسرعة باعزيزتي الطيبة . . يا آنسة جينيت العزيزة » . غادرت اللمار .. وكانت الأرض يابسة ، والهواء ساكناً . والطريق موحشاً ،ا فأسرعت الخطو حتى دفئت ، ثم أخذت أسير الهويني كي أستمتع بنزهتي ، وأحلل أنواع الغبطة التي خالجت نفسي في ذلك الزمان وذلك المكان . وكانت الساعة الثالثة ، وقد أخذ جرس الكنيسة يدق في اللحظة التي مررت فيها تحته . . وكان سحر تلك الساعة يكمن في غسقها الوافد . وفي شمسها الباهتة الضياء ، والتي كانت تتحدر وثيداً . وما لبثث أن أصبحت على بعد ميل من ( أور نفيلد ) . في طويق شهيرة في الصيف يورودها البرية . وفي الشتاء بنَّار الجوز والعليق .. على أن خير مفاتنها الشتوية هو ما يغشاها من عزلة تامة ، ومن سكون يشمل أشجارها الحردة من الأوراق ، فإذا هبت النسائم قلا صوت ولا همهمة ولا حقيف .. وعلى الجانبين ، إلى مسافة بعيدة . تمند حقول خلت من ماشية ترعي . . حتى الطيور التي ربمـا هبطت مصادقة على السياج . كانت تبدو أشبه يأوراق حمراء فاتها أن تتساقط على الأرض !

وكانت هذه الطريق الضيقة نميل صاعدة سفح التل حتى تصل إلى قرية (هاى) . فلم بلغت منتصفها ، جلست على قارعة درب يفضى إلى الحقل ، ثم لففت معطني حولى ، ودسست يدى فى فراقه فلم أشعر ببرد . برغم الجليد الشديد الذى كانت تشهد به صفحة من الثلج تغطى المجسر . كما تغطى غديراً صغيراً متجمداً كانت مياهه تفيض بسرعة منذ أيام . وفى جلستى تلك ، تسنى لى أن أطل على ( ثور نفيلد ) ، وأن

الجواد يقترب ، وفيما كنت أترقب ظهوره خلال الغسق . تذكرت بعض قصص (بیسی ) عن روح تدعی (جیئراش) کانت تظهر فی شمال إنجلترا على صورة جواد ويغل وكلب ضخم ، لترثاد انطرق المنعز لتأ الموحشة ، وتببط أحياناً أمام المسافرين الذين فاجأهم الليل في الطريق . مثل ما كان هذا الجواد مقبلا على فى تلك الآونة .

وازداد الجواد اقتراباً ، ولكنه لم يكن قد بلغ بعد نطاق أبصارى . . تُم سمعت بجانب وقع السنابك حفيفاً بين الحشائش .. وإذا بين جذوع أشجار البندق القريبة كلب ضخم ، كان اختلاط اللونين الأبيض والأسود في جسمه يبرز شكله وسطُّ الأشجار . كان يشيه تماماً إحدى الصور التي تظهر فيها روح (جيئراش) ، كما كانت تصفها بيسي .. فهو مخلوق يشبه الآسد ، طويل الشعر ، ضخم الرأس . . على أنه مر بي في هدوء ، فلم يتريث ليتطلع إلى بعينين مخيفتين تندلع منهما النار . كما توقعت ].. ثم تبعه الحصان .. جواد مرتفع ، يعلو ظهره راكب . وبدد الرجل ــ ذلك المخلوق الآدمي ــ سحر الخرافة في الحال ، لأنه لم برد في الأسطورة أن شيئاً علا ظهر ( جيئراش ) إطلاقاً ، بل كان يهم وحده . ومع أن العفاريت ربما ركبت رمم الوحوش الضارية - كما كان يخيل لى-إلا أنها ينلسر أن تشتهي التستر في شكل آدمي عادي . وَإِذَنَ فَلَيْسَ هَذَا روح ( جيتراش ) ، وإنما هو مجرد مسافر يختصر طريقه إلى ( ميلكوت ) بالانطلاق في هذه الناحية . . على أنه لم يكد يمر بي ويمضي في سير ه بضع خطوات : حتى اضطررت للالتفات ، على صوت الزلاق : وصيحة تر دد : " بالله [ . . ما العمل الآن ۽ . ثم استرعي انتباهي صوت کبوة ،

فقد سقط الجواد براكبه ، منز ثقين على صفحة الجليد الذي كان يكسو الجسر . وعاد الكلب يتواثب ، قلما رأى سيده في مأزقي ، وسمع الجواد يئنٌ ويتوجع ، راح ينبح حتى رددت تلال المماء نباحه الذي كان من الصَّخامة بِعُدر حجمه . ثم راح يتشم الجسمين الساجيين ، وهرع تحوى. فقد كان ذلك كل ما يستطيعه - إذ لم يجد بالقرب منه من ينشد مساعدته ومعونته سواى ــ فأطعته ، وسرت إلى الرجل الذي كان يحاول إذ ذاك أن يتخلص من جواده ، باذلا في ذلك جهوداً جبارة نمت عن أنه لم يصب بكثير أذي . ومع ذلك فقد سألته : « هل أصابك أذي ياسياحي ؟ » .. ولعله كان لحظنتذ يسب ويلعن ، ولكني لست واثقة .. كان – على أية حال ــ يتفوه بعبارات منعته من الرد على في الحال .. فعدت أسأله : ه هل أستطيع أن أقعل شيئاً من أجلك ؟ ٥ . . فأجاب و هو ينهض من عثر ته أولا على ركبتيه ثم على قلميه : « بل قني جانباً ! » .. فنعلت . و تلت ذلك من جانب الجواد عملية من اللهث ، وركل الأرض ، يصحبها نباح ما يحرى . وانتهى الحادث بخبر ، فقد هذأ الجواد ولهض . كما سكت الكلب ، عندما نهره سيده قائلا : « صه يابايلوت » . ثم انحني الرجل يتحسس قدمه وساقه ليطمئن إلى سلامتهما . ولاح أن شيئاً آلمه ، لأنه توقف عند مكاني الذي كنت قد زايلته ، ثم جلس فيه . وكنت راغية في أن أكون ذات نفع ، ولمو من قبيل المجاملة على الأقل : فاقتربت منه مرة أخرى وقلت : ﴿ إِذَا كُنْتَ قُلْدُ أُصِبِتَ بِأَذَى وَفِي حَاجَةَ إِلَى عُونَ یا سیدی ، فغی وسعی أن أجیئك بمن تشاء ، سواء من ( ٹورنفیلد ) أو من ( های ) ه .

بى رغبة فى سؤاله مرة أخرى . ولكن عبوسه وخشوتته طمأنانى . وعندما لوح لى بيده أن أمضى . الزمت مكانى وقلت : « لا يمكن أن أفكر ف. تركك يا سيدى فى مثل هذه الساعة المتأخرة : وفى مثل هذه الطريق المنعزلة . حتى أراك قادراً على امتطاء جوادك » .

فلم حميع ذلك تأملني – ولم يكن قد وجه نظراته ناحيتي من قبل --ثم قال : « أظن الأجدر بك أن تكوني في منزلك ، إذا كان لك منزل في هذا الجوار ! .. من أين جئت ؟ × .

 من مكان قريب جاءاً . ولا أخشى الخروج فى ساعة متأخوة مادام القمر مشرقاً . وإذا شئت . ذهبت من أجلك إلى ( هاى ) على عجل . فالواقع أننى ذاهبة إلى هنائة لألتى خطاباً فى صندوق البريد .

انقيمين قريباً جداً . أتعنين في هذا المنزل الذي تعلوه الشرفات ؟
 وأشار إلى ( ثور نفيلد هول ) . الذي كان القمر يلقى عليه ضياء خافقاً أظهره للعين في وضوح شاحب بين الأشجار ، ولكنه بدا – إذا قور ن بسياء الفرب المحتمة – وضاه جلياً . وأجبت : « تعم ياسيدى » .

مترل من هذا لا

بـ منزل مستر روشمتر .

... أتعرفين مستر روشهمتر الا

.. كلا .. أره من قبل .

\_ إذن فهو لا يفيم هناك ا

\_ کلا ..

- شكراً .. سأتغلب على الألم . إن عظامى سلَّيمة ، ولكنى أصبت بالتواء فى قدى .

ثم وقف مرة أخرى . وجرب قدمه ، ولكن النتيجة انتزعت منه آهة : برغمه ! .. وكان بعض ضياء النهار ما يزال يتسكع ، والقمر يشرق بضوء شاحب ، فأمكنني أن أرى الرجل بوضوح . كان يرتدي فوق جسمه معطفاً للركوب ذا ياقة من الفراء ومشابك من النحاس -أما بقية التفاصيل فلم تكن ظاهرة بجلاء ، ولكني تبيلت طول قامته وعرض منكبيه ووجهه الأممر ، بقسياته الجادة وحاجبيه الغزيرين . وكانت عيناه وحاجهاه المتشابكان تنم إذ ذاك عن حنق وتجهم .. وكان قد جاوز سن الصبا ، ولكنه لم يبلغ أوسط العمر ، فلم يساورني خوف منه . وإنما غشيني بعض الخفر والحياء , ولو كان سيَّداً شَاباً جميل المحيًّا بادى الجرأة. لمنا جسرت على الوقوف وسؤاله برغم إرادته ، وعرض خدماتي عليه دون أن يطلبها ! وإن كنت لم أر شاباً جميلاً . تقريباً .. ولا تحدثت إلى شاب بمميل في حياتي إطلاقاً .. وكنت أشعر بتوقيز واحترام بالغ الجمال والرشاقة ، والشهامة والفتنة ــ دون ما تجربة عملية ــ ولكن لو أنني وجدت هذه الخصال مجسمة في رجل . لأدركت بغريزتي أن ليس لهذه الأشياء ــ ولايمكن أن يكون لها - تجاوب مع شيء في شخصي لا ولأعرضت عنهـا وهربت منيا كما أهرب من النار والبرق أو أى شيء آخر براق ولكنه منفر كريه! .. وحتى هذا الرجل الغريب ، لو أنه ابتسم في وجهي ومازحني عندما وجهت إليه الحديث ، أو لو أنه أن تطوعي لخلمته في مرح مشفوع بالشكر ، لواصلت سيرى دون أن أجد



يدعني أقترب من رأسه . وعبثًا بذلت الجهد بعد الجهد ، والخوف من قدميه اللثين تضربان في الأرض ، يكاد يقتلني ! .. وانتظر الرجل ، وراقبني قليلا ، وأخيراً ضحك وقال : ﴿ أَرَى أَنَ الْجَبِّلُ لَنْ يَجِيءَ إِلَىٰ الإنسان ، و لذلك فكل ما تستطيعينه هو أن تساعدي الإنسان على الذهاب إلى الجبل! .. أرجوك أن تأتى إلى " .

وذهبت إليه : قاستطرد يقول : ٥ معذرة ، قاِنْ الضرورة تحتم على أن أستعين بك . . . ثم وضع يداً ثقيلة على كتني و اعتمد عليها متخففاً. وراح يعرج في مشيته إلى الجواد . . حتى إذا تمكن من مسك العنان والتحكم فيه ، وثب إلى السرج وهو يزوى وجهه لذلك الجهد الذي لوى قدمه المخلوعة . وأخيراً . بعد أن أطلق شفته السفلي من عضة قوية مثألمة ، قال :

ه الآن ناوليني سوطي . إنه هنالك تحت السياج « فبحثت عنه وجئته يه . فقال : ﴿ أَشَكَرُكُ . وَالْآنَ هَيَا أَسْرَعَى بِالْخَطَابِ إِلَى ﴿ هَاى ﴾ • ثم عودي يأسرع ما تستطيعين 1 ٪ .. وبلمسة من كعبه المهموز ، وثب الجواد إلى الإمام ، ثم إلى الخلف ، قبل أن ينطلق كالسهم .. والمدفع الكلب في أعقابه . . ثم اختفي الثلاثة ، وأشبه بالمروج في البيداء . . تعصف بها الرياح الهوجاء ! ٥ .

• وعندئذ التقطت فراء يدي وسرت في طريقي .. وقد مر في الحادث كغيره من الأحداث العادية ، لايحمل في أطوائه أهمية ، أو قصة ، أو مصلحة ذات بال ، وإن كان قد أدخل تغييراً على ساعة من حياتي الرتبية التي تسير على منوال واحد : فهأناذا تد سئلتي المعونة ولم أبخل

مل تستطيعين أن تخيريني أين هو ؟

ـ لا أستطيع .

أنت بالطبع لست خادعة في القصر . . أنت . .

تُّم توقف وتأمل زبي ، الذي كان كالعادة غاية في البساطة : معطفاً أسنود من صوف المارينو ، وقبعة صغيرة من جلد السمور ــــالا يليق أحدهما بوصيفة - وتبدت عليه الحيرة في أمرى . فقلت أعاونه : ة أنا المعلمة ؟ ه .

أه ، المعلمة .. يالله ، كيف نسيت !!.. المعلمة !

وعاد يتفحص ثوبي ، ثم نهض من مكانه بعد دقيقتين ـــ وقد نطقت أساريره بالألم وهو يحاول النهوض ــ وقال : « لا أستطيع أن أبعث بك لتأتيني بمن يساعدني ۽ ولكن في وسعلت إذا تفضلت أن تعاونيتي قليلا

أية خدمة أؤديها لسيدى ؟

ألديك مظلة أستطيح أن أتوكأ عليها ؟

حاولی أن تمسكی بعنان جوادی و تأتینی به .. هل أنت خائفة ؟

وكان خليقاً لي أنَّ أخاف أن ألمس جواداً وأنا وحدى : أما وقد طلب منى ذلك ، فقد اضطررت إلى أن أطيع .. فخامت فراء يدى ووضعتهما على حجر ناصية اللـرب ، ثم ذهبت إلى الجواد العالى ، وحاولت أن أمسك بالعنان , ولكن الجواد كان خفيف الحركات فــلم

يها . ويذلك أتيح لي الشعور بالاغتباط لأنني قمت بعمل ما ، ربما كان تافيهًا وقصير الأمد . إلا أنه كان إيجابياً بعد أن ثولاني الملل والسأم من حياة سلبية كلها 1 .. كما كان هذا الوجه الجديد أشب بصورة جديدة أَضيفَتَ إِلَى قَاعَةَ الذَّكُرْمِاتُ فِي رأْسِي .. صورة تَخْتُلَفُ عَنْ كُلِّ الصور المُمَنَّةُ هَالُكُ - لَـعِبِينَ : أُولِهَا أَنَّهَا صَوْرَةً رَجَلَ : وثَانَيْهِمَا أَنَّهَا كَانَتَ غامضة . فوية . متجهمة ! .. وقد لازمتني هذه الصورة علما دخلت ( هاى ) . وأودعت الخطاب مكتب البريد , كما تمثلتها وأنا أسير بصرعة عند سفح التل في طريق عودتي إلى المنزل . وعناءها بلغت الحجر القائم عند ناصية الدرب توقفت قليلا أتطلع حولي منصتة، يُخامرني خاطر بأن حوافر جواد لن تلبث أن تطرق أرض الجسر المعاشية مرة أحرى . وأن ر اكباً برتدى معطفاً قد يظهر من جديده م كلبه المدى يشبه ( جتراش ). ولكني لم أر أمامي سوى السياج والصفصاف المقلم الأطراف ، بأعتاقهما العالية . وكأنما يهمسان إلى الفحر .. ولم أسم سوى حفيف الريح المزمجرة بين الأشجار على مسافة بعيدة حول (ثورنفيلد) . وعندما صوبت تَشْرَى إِلَى نَاحِيَةَ هَذَهِ الرَّ مِجْرِةُ عَبْرِ وَاجْهَةَ الْقَصْرِ . شَاهِدَتْ نُوراً مَضْيِمًا في إحدى النوافا. . فانتبهت إلى أنني قد تأخرت . وأسرعت الخطي .

لم تكن في رغبة في العودة إلى ر ثور نفيلد و . لأن اجتياز عنبته كان عناية العودة إلى رفور نفيلد و . لأن اجتياز عنبته كان والرجوع إلى حجر في العمنيرة المنعزلة . ثم لقاء مسز فيرفاكس الحادثة ، وقضاء أمسيات الشناء الطويل في رفقتها – ورفقتها فقط . . فقد كان كنيلا بأن يقضى كل القضاء على الانفعال المنطقة المناهدة في المنس



نم وضع بدا نقيلة على كتفي واعتمد عليها متخففا ...

فتحت باباً جانبياً ولفت منه إلى الداخل .. ولم يكن اليهو قد أضيء بعد إلا بمصباح برونزى مدل من السقف ، ولكن وهجاً دافئاً كان يغمر البهو وبعض درجات السلم ، منبعثاً من حجرة المائدة الكبيرة التي كان مصراعا بابها مفتوحين ، تظهر بينهما نيران الموقد البهيجة ، والمفروشات والرياش ، في إشراق بديع ، وتبينت في الداخل جماعة جلست بالقرب من الموقد ، ولكني لم أكد ألحها وأقطن إلى خليط من الأصوات المبتهجة - تميزت من بينها صوت (آديل) – حتى أغلق الباب ه

وبادرت إلى حجرة مسز فيرفاكس . حيث وجدت ناراً موقدة ، ولكنى لم أر أثراً الشمعة ، أو لمسز فيرفاكس ، بل كان يجلس على السجادة وبتفرس في الوهج ، كلب كبير طويل الشعر ، أشبه بجتراش الذي صادفته في الطريق ! . . كان يشبه لدرجة أنني تفدمت وناديته ; (بايلوت ا ، فهض واقترب ، يتشممني . فربت عليسه ، وإذا به يبصبص بذيله الكبير ، ولكنه بدا مخلوفاً مرعباً لايصح الانفراد به . ولم أدر من أين جاء ، فقرعت الجرس ، لأنني كنت في حاجة إلى شمعة ، وفي حاجة كلك إلى معرفة قصة هذا المزائر . و دخلت (لياه) و فسألتها :

- ـ أي كلب هذا ؟
- لقد جاء مع سيدى ٠
  - مع من ؟
- مع سیدی ، مستر روشمنر ، إذ وصل مند قلیل ه
  - حقاً ! وهل مسز فيرفاكس معه ؟

تلك النزهة ، وبأن يعيدني إلى قيود الزى الرسمي ألم تعلمة في دار لها تقاليدها – وإلى الكيان الساكن .. كيان له من مزايا الأمن والراحة ما غلوت عاجزة عن تقدير قيمته .كان الأجدر بي إذ ذلك أن تطوح في عواصف حباة قلقة غير مستقرة ، لتعلمني التجاريب القاسية كيف أتلهف على هدوء أتململ منه الآن ! .. نعم ، إن ذلك كان خليقاً بأن يتبح لى عين الفائدة التي يلقاها وجل سئم الجلوس الهادئ في مقعد جد مربع ، إذا ما قدر له أن يقوم بنزهة طويلة على قدميه ! .. وكما أن الرغبة في الحراك طبيعية في مثل ظروف ذلك الرجل \* فإنها كانت طبيعية في ظروف ذلك الرجل \* فإنها كانت طبيعية في ظروف إذ ذلك !

و تلكأت عند الأبواب الخارجية ، ثم تلكأت فوق المروج ، ورحث أفرع الرصيف جبئة و فعاباً . وكان مصراعا الباب الزجاجي مغلقين ، في يتسن لى مشاهدة ما كان في الداخل ، وخيل إلى أن عبى وروحي قد انصرفت عن المنزل المظلم – وعن الفراغ المعتم بين جدرانه ، وقد بدا هذا الفراغ مقسماً إلى حجرات عديمة الضياء – انتظام إلى الساء الممتدة أماى ، بحراً أزرق مبرأ من شوائب السحب ، ومن فوقها يسير المعتدة أماى ، بحراً أزرق مبرأ من شوائب السحب ، ومن فوقها يسير المقدر في رزانة ووقار ، وكأن مداره يشرئب بعنقه وهو يجتاز قم التاثل التي جاء من ورائها ليبلغ أوج المجد . وعندما شاهدت النجوم المرتجفة تتبع طويق القمر ، ارتعدت نباط قلبي بدورها ، وتأججت الدماء في شراييني ا

على أن بعض التوافه لا تلبث أن تعيدنا إلى الأرض .. فقد دقت الساعة فى القاعة ، فكان ذلك كافياً لأن يصرفني عن القمر والنجوم =



#### 

وبذلك ينتهى الجزء الأول من القصة .. ويليه الجزء الثانى ، وفية تدخل القصة في مرحلتها العنيفة المثيرة ، بل تبدأ القصة المخقيقية – بعد أن استخدمت المؤلفة هذا الجزء الأول ليكون بمثابة (مقدمة) طويلة لأحداث المأساة الرئيسية – وهكذا نرى في الجزء الثانى كيف يتطور هذا اللقاء الأول بين (جين إير) وبين (سيدها) – روشستر – حتى يقع حادث غامض في مخدع السيد ، يفتح أمام بصيرة (جين) الباب الذي تنفذ منه إلى حيل ما استعصى على ذهنها من (ألغاز) قصر رثور نفيلد هول) ، والغوامض التي تكننف حياة صاحبه وقاطنيه ! ... كا تقف منه على سر تلك الضحكة الغامضة الغريبة التي كانت تتردد في جنبات القصر ، في سكون الليل ! .. وفي غضون ذلك ، تنسج المأساة الخفية التي كان يعيش فيها (روشستر) ، خيوطاً تربط بينه وبين (جين) ، بروابط شديادة التعقيد !

اقرأ التفصيلات الشائقة المثيرة لهذه الأحداث الرئيسية للقصة ، في الجزء الثاني منها . بنع .. ومس آدبل . إنهم بحجرة الطعمام ، وقد ذهب جون لاستدعاء جراح ، لأن السيدوقع له حادث ، كبا جواده فالتوى كاحله .

حل سقط الجواد فی طریق (های) ؟

نعم ، انزلقت أقدامه فوق بعض الجليد أثناء هبوطه التل .

- آه . آتینی بشمعة من فضلك یا (رلیاه) .

وجاءت (لباه) بالشمعة : وأقبلت فى أثرها مسز فيرفاكس ، فروت لى نفس الاخبار ، مضيفة إلى ذلك أن الجراح قدوصل ، وأنه كان إذ ذلك مع مستر روشستر . . ثم أسرعت إلى الخارج لتأمر بإعداد الثاى ، فصعدت لاخلع ملابسى .

\* \* 1



# شــــارلوت برونتي صدر من هذه السلسلة

٢٣ _ الجريمة لا تفيد .	١ _ وجود الحب السبعة. إ
٢٤ _ نساء و مآسى في	1 3/1
ساحة العدالة ،	
٥٦ _ الحرب والسلام ، ج ١	
٢٦ _ تعلم كيف تسترخى .	ع _ انـا کارنینـا ٠
۲۷ _ مرکب النتص	ه _ الحرب والسلام ا جا
۲۸ ـ غرام سوان ، ج ۱	٢ - الحرب والسلام ، ج٢
Y ~ /	٧ _ الخاطئـــة -
٢٩ _ غرام سوان ، ج ٢	٨ _ البؤساء ، ج ١
٣٠ _ كيف نجحوا في الحياة ا	۹ _ مدام بوفساری ، ج ۱
٢١ _ كيفيتحصل على الشروة ا	١٠ _ بدام بوناري ، ج ٢
٣٢ _ غرام سوان ، ج٣	١١ _ البؤساء ، ج٢
۳۳ _ لماذا انت عصبی ا	١٢ _ الخطيئة الاولى .
بلاست عشميشه _ ۲۲	١٢ _ المنسون ٠
٥٦ _ زواج الحب ،	١١ _ الحب هو الكنــز ،
٣٦ _ التحليل النفسىللاعلا	١٥ _ نن الحياه ٠
٣٧ _ حذار من الشفقة .	ما ــ من الحيــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
١٨٠ - اسم الانتقام ٠	١٦ _ د . زيناجو ، ج ا
and a city of the series	١٧ _ د . زيناجو ، ج ٢
1 4	۱۸ ـ د . زيناجـو ، ج ٣
. ٤ _ اعترافات جان روسو	١٩ _ د . زيفاجـ و ، ج ؛
4 ÷	٣ - ١ البؤساء ٤ ج ٣
ا ٢١ _ أعتر المات جأن روسو	٢١ _ الحرب والسلام ، ج٣
Lockoo	۲۲ _ محاکمه سقراط .
www.leddorah.com	

```
تدت الطبع
                     ٢٤ _ أعترافات جان روسو١٠
  ٨٥ - جين لير ١ ج ١
                     ٣٤ _ اعترافات جان روسوء
  ٥٩ - جين ايسر ، ج٢
                            0 4
  ١٠ - جين إير ١٠ ج٣
                      ٤٤ _ مرتفعات ويذرنج ١ ح١
١١ - نينو تشسيكا ، د ١
                     ٥٤ _ مرتفعات ويذرنج ٤ جـ٢
٦٢ _ نينــو تثــ يكا ، ج ٢
                     ٢٦ _ مرتفعات ويذرنج ، ١٦
  ۳۳ _ ماریا ایفانوغنا ۰
                      ٧٤ _ قلوب ضالة ٠
    ١٢ _ الخالـــدون ٠
                         ٨٤ _ اوديب ٠
       . col _ 70.
                     الأريف . المنتقات في الخريف . ا
   15 - 18h - 77
                      ٥٠ - اسرار الجاسوسية .
  ٧٧ - الالسادة ، د ٢
                     ١٥ _ الابن الفسسال .
  ٥٢ _ ارواح هائمة . ١٨ _ الالياذة ، ج ٣
  ٥٣ _ الثسار للوطن . ١٩ _ القلعة ، د ١
  ١٥ - العسيمة ١٥٠ ١ ٧٠ القلعسة ١٠ ح ٢
  ٥٥ - السبحة ، ح ٢ ١١ - القلعة ، ح ٣
     ٥٦ - بئسر سسبع ، ج ١ ٧٢ - بوشسكين .
```

٧٧ - بئس سبع ، ج ٢ ٧٣ - ذات الرداء الابيض .

رقم الإيداع: ٢٧٦٦ ٢ - ٨٠ - ١٢٢ - ٧٧٧

### الطبعسة العربيسة الحديثسة

 ٨ نارع ٧٧ بالنطقة الصناعية بالعباسية طيف ون : ٣٩٢٨٠ التسامرة





## عزيزي القارئ ،

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن في كل شيء تقريبًا: تشابهن في نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن في خلودهن بعد البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن في خلودهن بعد الموت! ، وهكذا اقتسرن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنساني : وكان نصيب صغراهن « أن برونتي» من هذا الإنتاج نوبية فلأطفال ، وإن كان نصيب الجد الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرئج) ، أقول إنهن تشابهن في ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفي إصابتهن بنفس المرض الذي قضى على ثلاثتهن بالتعاقب وهو مرض السل أو الشدون الرئوي .. فصائت به « أسارلوت » في سن مرض الشاب أو الشدون الرئوي .. فصائت به « أسارلوت » في سن التاسعة والشلائي ( ١٨٤١ ـ ١٨٩٥) ، وصائت به «إميلي» في سن الشاسعة بالمعاشر « بونتي» لاتفاق

مسرض افسار أو التندرق الرؤوى ... في مناتت به « شنارلوت » في سين التناسعية والشلالين (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، ومناتت به «إميلي» في سين التناسعية الشلالين (١٨١٦ ـ ١٨٤٩) . ثم مناتت به «أنه في سين التناسعية والعشرين (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) أ والواقع أن قواجع اسرة «برونتي» لاتقام عند هذا الحد ، ولعل هذه القواجع هي المسئولة عن الجو القائم الذي تتسبم به رواياتهن جمعيمًا ، فقد كانت أسرة «برونتي» تشألف في الاصل من ثمانية أقواد : الأب، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بأعلاما أ . . وزوجته ، ثم أطفالهما السنة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و البيزابيث ، وشارلوت ، و برافويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلي ، وأحيرًا «أن» ،

وكانت تفصل بين كل من الأطفال السنة والذي يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» في سن السابعة ، والصغرى «أن» في عامها الأول! وهكذا صارت «ماريا» وهي بعد في سن السابعة بثابة الأم للصغار الخمسة الأخرين! وبعد أربع سنوات ألحق الأب ابتشيسه الكبيسرتين «ماريا»

وبعد أربع سنوات ألحق الأب ابنسيسه الكبيرتين «صاريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التي رصفتها «شارئوت» في رواية (جين إير) باسم «لورود» .